العرب فى الأندلس

احمد محمد عبد الهادى



الناشر
مركز الراية للنشر والإعلام

العرب فى الأندلس

أحمد محمد عبد الهادى

الناشر
مركز الراية للنشر والإعلام

الكتـــــاب : العرب فى الأندلس

التـــــأليف : أحمد محمد عبدالهادى

الطبعـــــة : الأولى ٢٠٠١

الناشـــــر : **مركز الراية للنشر والإعلام**

القاهرة - ٣٠ ميدان الحسين - مكتبة فكرى

تليفون : ٥٩٢٦٢١٩

رقم الإيـداع : ٢٠٠١/٢١٠١

الترقيم الدولى : ISBN: 977-5967-50-3



المقـــدمة

الحمد لله الذى أكرمنا بنعمة الإسلام ، وأصلح حالنا بالدين الختام ، وجعلنا خير أمة أخرجت لسائر الأنام ، بفضل الاستجابة لدعوة النبى عليه الصلاة والسلام، ورضى الله عن آله الطيبين الطاهرين وصحابته الأبرار ، الذين نشروا الدين فى جميع الديار والأمصار ، بالحكمة والموعظة الحسنة والترغيب فى الجنة وتخويف الظالمين من النار .

وبعد فهذا كتاب لا يستغنى عنه أى باحث عن الحقيقة ، ولا يغفل عنه من يهمه تاريخ الفتوحات الإسلامية فى شبه جزيرة أيبريا (أسبانيا و البرتغال حاليًا ») . والتى أطلق عليها بلاد الأندلس ، أو الفردوس المفقود ، تلك البلاد التى كانت زهرة الدنيا وعروس الأمصار ، وذلك بفضل الفتح الإسلامى لها فى عام ٩٢هـ/٧١١م وعلى يد القائد المغوار طارق بن زياد مولى قائد الجيوش الإسلامية فى شمال أفريقيا موسى بن نصير .

وقد كان الفتح الإسلامى لتلك البلاد أعظم نعمة أسداها الله تعالى لأهلها . إذ أنقذهم من حكامهم الطغاة المتجبرين ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وأنعم على من أسلم منهم بخير عقيدة ارتضاها لعباده . ونشر بين ربوع مدنهم وقراهم حضارة فريدة يحكمون بها ، ولا تستطيع عقولهم الساذجة أن تدركها ، وسرعان ما استجاب أهل تلك البلاد لنداء الحق ، وسرعان ما انتشر الإسلام فى ربوعها وطارد الظلام إلى ما بعد جبال البرانس على حدود بلاد الفرنجة (فرنسا) وأصبحت الأندلس عاصمة النور ، تضاهى مصر والعراق والشام ، وعاصمتها قرطبة تباهى القاهرة وبغداد ودمشق .

إلا أن هذا النور وجد من يحاول إطفاءه من الحاقدين على الإسلام والمسلمين . فكانت جيوش الفرنجة تناصر الممالك المسيحية فى أسبانيا لإنهاء الوجود الإسلامى فى الأندلس ، على مدى القرون الثمانية التى مكثها العرب فى تلك

البلاد ، ولهذا نشبت بين الفريقين حروب طاحنة ، كان للمسلمين فى أغلبها الظفر والظهور . ولم يغلبهم عدوُّهم إلا بعد أن تفرقوا أحزابًا وشيعًا . وقاتل بعضهم بعضًا ، بل استعان بعضهم بالجيوش المسيحية على إخوانهم المسلمين . وبعضهم استغرق فى الملذات والملوك والأمراء المسيحيون يجمعون أمرهم على خوض المعارك الشرسة ضدهم لاستئصالهم وإخراجهم من شبه جزيرة إيبريا قاطبة .

وقد قويت شوكة النصارى فى أسبانيا بقيام دولة قشتالة فى الشمال واستيلائها على طليطلة العاصمة الأولى للمسلمين فى عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م . وبعدها نشأت مملكة أراغون المسيحية المتعصبة باستيلاء الفرنجة على مقاطعة قطالونيا من المسلمين وتسليمها للأسبان المسيحيين فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى . ثم مازالت هاتان المملكتان تكبران ويتسع نفوذهما على حساب المسلمين . ثم اتحدت هاتان المملكتان بزواج إيزابيلا ملكة قشتالة وليون بفيليب الثانى ملك أراغون . فأصبحت الممالك النصرانية هى القوة الرئيسية فى شبه الجزيرة ، خاصة إذا علمنا بقيام مملكة ثالثة للنصارى الأسبان هى مملكة البرتغال فى غربى شبه الجزيرة جنوبى نهر الدويرو .

وعلى يد الملكين فيليب الثانى الأرغوانى وإيزابيلا القشتالية انتهى آخر معقل للمسلمين فى الأندلس بتسليم أبى عبد الله مملكة غرناطة لهذين الملكين على أن يخرج هو ومن تبقى من المسلمين فى غرناطة إلى بلاد المغرب ويتركوا كل شئ خلفهم للغازين المنتصرين . وهكذا تنتهى قصة المسلمين فى الأندلس فى عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م .

ثم انقضت تلك السنون وأهلها   فكأنها وكأنهم أحلام

وهذا الكتاب « العرب فى الأندلس » يحكى بصدق ونزاهة قصة الصراع المرير الذى مرَّ به المسلمون وهم يحاولون البقاء فى الأندلس ولم يتعرض للجوانب الأخرى لحياتهم فيها . أعنى الجوانب الثقافية والحضارية والاجتماعية وانتشار العلوم والآداب والفنون والفلسفة بفضل وجودهم فى تلك البلاد فهذه مجالات تضمها مؤلفات أخرى .

والله ولى التوفيق ،،،

القاهرة فى ٨ ديسمبر ٢٠٠٠هـ   **المؤلف**

الفصل الأول

فتح الأندلس

لقد شهد تاريخ هذه الأمة فِتنًا وقلاقل شتى ، ولكنها كانت كالطود الأشم أمام هذه المحن ، لأن المحن هذه قد صهرتها ، فأظهرت نقاء معدنها ، وأزالت الشوائب العالقة بها ، فأصبح هذا المعدن النفيس كأحسن ما يكون المعدن بعد خروجه من البوتقة .

وجدير بالذكر أن الأمة الإسلامية فى بداية بناء دولتها ، وقبل أن تتوطد دعائمها ويرسخ بنيانها وتتسع رقعتها ، مُنيت بوفاة مؤسّسها الأول ونبى الإنسانية قاطبة محمد بن عبد الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فشجعت هذه الكارثة مدعيى النُّبوَّة والمفسدين فى الأرض بعد إصلاحها ، على نشر سمومهم فى أنحاء الجزيرة العربية .

كما شجعت ضعفاء العقيدة على الإنصياع وراءهم ، والدعوة لهم فى أنحائها ، ولكن العزيمة الصادقة والإرادة القوية حدَتْ بأبى بكر الصديق (رضى الله عنه) أن يقسِم بالله ألاَّ ينكص على عقبيه أمام هذه الفتن ، بل أقسم بالله ليَطمأنَّهم بسنابِك خيلهِ ، حتى يذعنوا لأوامره ، وحتى يعطوا الزكاة عن يدٍ وهم صاغرون .

ثم جاءت الفتن الكبرى بمقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وكان اغتيال هذا الخليفة بذرة الصراع الدامى الذى شهدته هذه الأمة ، والذى جعلها تتقسم إلى طوائف عديدة متناحرة ، تتكالب على صولجان الحكم ، فبيعة المسلمين للخليفة الراشد الرابع : على بن أبى طالب لم يحالفها التوفيق (لوجود بذرة العداء قبل مبايعته) ، فمهدت بيعته لانشقاق فئة من المسلمين على الإجماع الإسلامى ، وكان على رأس هذه الفئة طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وأم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق ، فخاض علىٌّ ضدهم معركة الجمل ، التى هزمهم فيها وأرجع

بعدها السيدة عائشة معززة مكرمة إلى المدينة ، ثم انشق عليه معاوية بن أبى سفيان والى أقاليم الشام ، وخاض ضده معارك مروعة من أشهرها معركة صفين ، التى كُتبت فيها أسفار ضخمة ، وانتهت بخدعة التحكيم عندما رفع أصحاب معاوية المصاحف على أسنة الرماح ، وهذه الخدعة أدت بأصحاب علىّ أن ينقسموا على « أنفسهم فئتين ، فئة ترى أن هذه خدعة دبرها عمرو بن العاص لهم » وفئة أخرى ترى الإذعان لتحكيم كتاب الله فيما بينهم ، وقد سُمِّيت الفئة الأولى بالخوارج ، وأصبحت تناصب عليًا العداء فحاربهم وانتصر عليهم فى معركة (النهروان) ورغم هذا فقد زادت المحن حتى بلغت الذروة بمقتل الحسين بن على ، وانشقاق عبد الله ابن الزبير على الخلافة الأموية فى دمشق ، بينما استشرت النعرة الجاهلية الأولى فى نفوس القبائل العربية إذ رجعت القهقرى إلى سوالف العصور التى كانت فيها تتنابذ بالألقاب ، فدبَّ بينها دبيب الحقد (والأنانية) وأصبح لا همَّ للخلفاء إلاَّ أن يضربوا هذه القبائل ببعضها بعضًا ، ليصفو لهم الجوُّ وتتوطد لهم دعائم الحكم .

كل هذه الفتن لم تكن إلاَّ اختبارًا لصلابة هذه الأمة ، وسبرًا لغور الإيمان فى نفوس ذويها ، فقد أثبتت صدق إيمانها ، وقوة عقيدتها ورباطة جأشها . وبسالة أبنائها وعزة نفوسهم ، وتصميمهم على نشر مبادىء الإسلام ، مهما اكتنفته المحن ومهما حاقت به الإحن .

فقد استطاع العرب بعد فتوحاتهم التى شملت أرض السواد حتى الهند شرقًا ، وشملت مصر وبرقة وطرابلس حتى طنجة غربًا ، استطاعوا أن يعبروا المضيق الذى يفصل أوروبا عن أفريقيا ، ويتجهوا صوب الأندلس بقيادة البطل طارق بن زياد ، والذى سُمِّى هذا المضيق باسمه فيما بعد . وهو الذى قال بعد أن عبر المضيق وأغرق سفنه فى قاعه : العدو أمامكم والبحر خلفكم واعلموا أنكم أضيع من الأيتام على مائدة اللئام وفيه يقول الشاعر :

سلوا التاريخ من جاب البوادى ... ومن ذا أودع البحر السفينا
ومن قال العدوُّ أمام عينى ... وخلفى لا أرى ركنًا حصينًا
ومن نادى الجيوش : قفوا السنا ... لمائدة اللئام ميمميناَ

قال البلاذرى : « قال الواقدى : غزا طارق بن زياد عامل موسى بن نصير الأندلس وهو أول من غزاها وذلك فى سنة اثنتين وتسعين ، فلقيه أوليان (يوليان) وهو والِى على مجاز الأندلس على سبتة فأمَّنه طارق ، على أن حمله وأصحابه إلى الأندلس فى السفن ، فلما صار إليها حاربَهُ أهلها ففتحها ، وذلك فى سنة اثنتين وتسعين وكان ملكها فيما يزعمون من الأشبال وأصلهم من أصبهان ، ثم أن موسى بن نصير كتب إلى طارق كتابًا غليظًا لتغريره بالمسلمين وافتئاته عليه بالرأى ، فترضَّاه طارق ، فرضِى عنه فافتتح طارق مدينة طليطلة ، وهى مدينة مملكة الأندلس وهى ما يلى فرنجة فرنسا » .

لماذا عبر العرب المضيق الذى يفصل أوروبا عن أفريقيا :

إن الفتوحات التى حققها العرب فى المشرق والمغرب لم تحدث لغيرهم فى العصور التى سبقتهم أو العصور التى لحقتهم ، ولم يكونوا تجَّار حروب قط أو غُزاة همُّهم سفك الدماء، وإقامة إمبراطورية مترامية الأطراف على جثث أعدائهم المندحرين. بل الحقيقة أنهم كانوا يجاهدون فى سبيل الله ولرفع نِير الحكَّام الظالمين عن كاهل الرعايا الضعفاء، وكسر شوكة السادة المتحكِّمين فى رقاب البشرية ونشر روح الإسلام السمحة التى قوامها التوحيد والمحبة والسلام بين الأمم.

لهذا لم يكونوا فى حاجة إلى توسيع أملاك الدولة الإسلامية بعبورهم المضيق ، والاستيلاء على أسبانيا والبرتغال وجنوبىّ فرنسا إلاَّ أن داعِى الجهاد (الذى عرَّفناه آنفًا) دعاهم إلى عبور هذا المضيق ، لمَّا ترامى إلى أسماعهم ما كانت فيه أوروبا من جهالة وظلام ، وفحش وأوهام . وكان الشعب الأسبانى يعانى الأمرَّين من القوطيين الذين تحكموا فيه تحكم السيِّد فى رقاب أرقَّائه ، وفى هذا يقول الأستاذ سيد أمير على فى كتابه (مختصر تاريخ العرب) : « وبينما كانت أفريقيا تنعم بالتسامح والعدل وبينما كانت تخطو خطوات واسعة فى تاريخ الإزدهار المادىّ فى ظل الحكم الإسلامى كانت جارتها أسبانيا ترزح تحت نير القوط الحديدىّ ، والحقّ أن حالة تلك البلاد وأهلها لم تكن أسوأ منها ولا أتعس فى عهد ملوك القوط . كانت طبقات الأغنياء والنبلاء والأعيان شأنها فى أيام الرومان معفاة من الضرائب، بينما كانت الطبقات الوُسطى التى أُلقيَت على عاتقها الأعباء العامة الثقيلة ، تئنّ من

البؤس والفقر ، فقتل النشاط الصناعى وانعدام الانتاج وتوقفت التجارة ، وأصيبت البلاد بشلل مريع ، لا يقلُّ هولاً عن الشلل الذى أصابها بعد خروج المسلمين منها » .

ولم يكن هذا الجور الذى تعرضت له أسبانيا على يد القوطيين واقعًا على رعاياها فحسب ، بل كان أشد ما يكون على فئة اليهود بها وهم الذين ضُربت عليهم الذلَّة والمسكنة أينما ثُقِفوا إلاَّ بحبلٍ من الله وحبل من الناس ، ويذكر المؤرخ آنف الذكر أنَّهم كثيرًا ما عانوا من عنت الملوك والكهنة ، وحاولوا الثورة على أسيادهم ولكن هؤلاء ما لبثوا أن قضوا عليها ، ونكَّلوا بهم أشد تنكيل ، وعاملوهم معاملة العبيد ، ووزَّعوهم كما توزع الغنائم والأسلاب ويقول المؤرخ : « هذا هو العقاب الذى أنزله رجال الدين أصحاب السلطة باليهود ، فأصبح المواطن البائس الفقير ، والعبد التعس والقن الشقى ، واليهودىُّ المضطهد ، ينتظرون الخلاص الذى طالما انتظروه ، فما لبث أن جاءهم وهم فى ذروة بؤسهم ، من جهة لم تدُرْ بخلَدهم ، كانت الولاية العربية على الضفة الأخرى من المضيق ، قد أصبحت ملجأ للهاربين من اضطهاد القوط وعسفهم ، وكان كثير من الأسبانيين قد لاقوا الصدور الرحبة فى أفريقيا الإسلامية ، وعاشوا فيها بعيدين عن طغيان ملوكهم وصف رجالهم » .

المعارك التى خاضها المسلمون فى فتح الأندلس :

بدأ الصِّدام بين العرب بقيادة طارق بن زياد مولى موسى بن نصير بعد عبوره(*) المضيق الذى سُمِّىَ باسمه فيما بعد ، وبين الأسبانيين عند الجيكراس (الجزيرة) وكان يحكمها تدمير أحد عمال روذريق (ملك أسبانيا) ، وكان عَدَّةُ جيش طارق سبعة آلاف جندى ، استطاع بهم أن يمزق أعداءه شرًّ ممزَّق ، عندما اعترضوا سبيله وهو يزحف للاستيلاء على طليطلة عاصمة ملكهم .

وقد وصلت الإمدادات إلى طارق من موسى بن نصير ، فبلغ تعداد جيشه إثنى عشر ألفًا ، فى الوقت الذى كان روذريق يخمِدُ الثورات التى قامت ضده فى الشمال .

(*) سبق طارق بن زياد والٍ اخر يسمى طريف بن مالك - سبقة فى الجواز إلى الأندلس حيث عبر فى أربعمائة رجل معه مائة فرس فى أربعة مراكب فنزل بجزيرة تقابل جزيرة الأندلس عرفت بجزيرة طريف . ثم أذن موسى بن نصير لعامله طارق بن زياد بتَحملة الغزو .

معركة سيدونيا وهزيمة القوط :

وعندما أحس روذريق بغزو العرب للولايات الجنوبية من دولته ، قفل مسرعًا إلى عاصمته وراح يطلب من الرؤساء الإقطاعيين أن يناصروه ضدَّ العرب ، ويقول المؤرخ سيد أمير على : « وقد بلغ جيش روذريق عندما انضمت إليه الإمدادات مائة ألف رجل ، ولذا كان الجيشان غير متكافئين إطلاقًا ، عندما التقيا على ضفاف نهر كوادليت ، إلى الشمال من سيدونيا » .

ومصداقًا لقوله تعالى : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ تحقق النصر المبين للفئة القليلة الصابرة ، على الفئة الكثيرة المتزعزعة ، إذ انقسمت على نفسها ، فدارت عليها الدائرة ، وبعد هذا النصر الذى هلك فيه معظم الجيش الأسبانى ، وبعد أن غرق قائده فى نهر الكوادليت ، فتحت مدينتا سيدونيا وقرمونة أبوابهما للعرب ، وتبعتهما مدينة استجه التى تمركزت فيها فلول الجيوش الأسبانية ، ثم قسم طارق جيشه إلى أربع فرق : فسيَّر أحد قواده إلى قرطبة ، وآخر إلى مالقة ، وثالثًا إلى غرناطة والبيرة ، وتوجَّه هو إلى طليطلة عاصمة الأسبان فتكمنت جميع الفرق من دحر أعدائها ، والاستيلاء على المدن التى توجهت تلقاءها . كما تمكن من مطاردة فلول المنهزمين حتى حدود البلاد الشمالية .

موسى بن نصير وطارق بن زياد فى طليطلة :

يذكر المؤرخ سيد أمير على مولِّف روح الإسلام فى كتابه « مختصر تاريخ العرب » ، بأن أنباء الفتح ترامت إلى مسامع موسى بن نصير ، فدفعه حبُّ التنافس إلى أن يلحق بطارق بن زياد فى ميادين القتال التى يخوضها ، فعبر المضيق على رأس جيش من ثمانية عشر ألف رجل ، ليكمل الفتح الذى بدأه قائده البارع ، وكان فى جيش موسى العديد من سادات اليمن وأحفاد صحابة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم . فسار بهم شرقًا حتى وصل سافيلا وماردة وأخضعهما : الواحدة تِلْوَ الأخرى. وفى طليطلة لحق به طارق قائده المظفر ، ولقد شهد اجتماع القائدين خلافًا لم يكن يليق بهما ، على أنهما ما لبثا أن تصالحا ووحَّدا قواتهما ، وزحفا على

أراغون ففتحت لهما أبوابها كلٌ من سِرَقسطَة وتراغونة وبرشلونة وغيرها من المدن الرئيسية فى الشمال .

وفى أقلٌ من عامين اثنين ، غدت بلاد أسبانيا كلُّها حتى جبال البرنيه (البرانس) فى أيدى العرب ، وبعد بضع سنوات فتح العرب بلاد البرتغال ، وجعلوها ولاية مستقلة ، وأطلقوا عليها اسم الغرب ، وفى جبال الاسترياس وحدها استمر المسيحيون الأسبان ، فى مقاومة المسلمين .

فتوحات موسى فى الشمال ثم استدعاؤه هو وطارق لدمشق :

وعهد موسى إلى طارق مهمة إخضاع مدن جليقية ، ثم سار إلى فرنسا شمالاً، فاستولى على القسم المتاخم لها ، والمسمَّى بلاد لانكودوك ، وفكر فى فتح أوروبا بأكملها حينما وصل إلى جبال البرنيه ، وذلك أن المغرب الأوربى قد أصبح بكامله تحت قدميه .

ولكن سياسة الحذر والتردد التى اتبعها بلاط الخلفاء فى دمشق أضاعت تلك الفرصة الرائعة . وكانت النتيجة أن ظلَّت أوروبا غارقة فى ظلام الجهل طوال القرون الثمانية التالية لفتح الأندلس ، فقد أصدر الخليفة الوليد بن عبد الملك إلى موسى أمرًا بالتوقف عن الانسياح نحو الشمال ، بينما كان يستعد للتوغل فى فرنسا بُغية اجتيازها إلى إيطاليا ، فحصر اهتمامه فى إخضاع الأقسام الجبلية من أسبانيا، حيث كان المسيحيون يقيمون حصونهم الجبلية المنيعة فيها ، وحيث كانوا يدافعون منها العرب دفاع اليائس المستميت .

واستطاع موسى أن يشدد النكير على الفلول المسيحية المعتصمة بجبال الأوسترياس ، فاستسلمت واحدة تلو الأخرى ، حتى لم يبْقَ منها سوى جماعة بيلايو وقليل من أنصاره ، وكان سيُلقِى سلاحه لولا أن وصَل رسولٌ من دمشق يستدعى القائدين ويحملهما على العودة إليها . ومهما كان الدافع الذى حدا بالخليفة أن يستدعيهما فإن هذا الاستدعاء كان كارثة عظمى على الإسلام ، ذلك أن رحيل موسى وطارق مكَّن بيلايو من تحصين نفسه من الجبال ، وأمكنه أن يكون نواةً لتلك

القوة التى قُدِّر لها من بعد أن تنتصر على الولايات الإسلامية ، وتسترد كل الذى صار فى أيدى العرب بعد ثمانية قرون من الفتح ، وبعد أن أخذت هذه القوة النصرانية تزداد قوة وأنصارًا بمرور الأعوام والعصور .

على أن هذا الفتح العظيم قد كانت له آثار طيبة فى تلك البلاد ، رغم القلاقل التى كان يثيرها المتمردون المعتصمون بجبال الاستريباس والهضاب العالية والوديان المنزوية .. كما أن هذه الانتصارات لم تكن لتتحقق لولا توافر أسباب عدة وعلَى أثر هذه الفتوحات يمكننا أن نستنتج النقاط التالية :

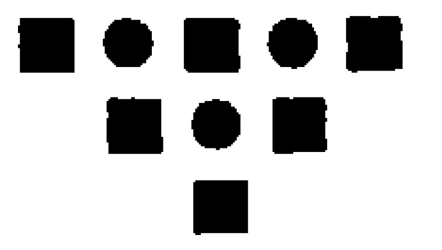
١ - إن العرب الفاتحين لم يكن هدفهم التوسع الإقليمى فى القارات الثلاث (آسيا وأفريقيا وأوروبا) بقدر ما كانوا يهدفون إلى بثٌ روح الإسلام فى الشعوب التى كانت ترزح تحت نير حكامها .

٢ - إن فضل العرب على أوروبا لم تزل نتائجه حتى اليوم شاهدةً على ما قدَّموه من خير للإنسانية جمعاء .

٣ - إن العرب بفتحهم للأندلس أيقظوها من سبات عميق كانت تغط فيه سائر أوروبا فى ذلك الحين .

٤ - إن الإنتصارات المتلاحقة التى حققتها الجيوش العربية قليلة العدد على الجيوش الأوروبية كان من أسبابها :

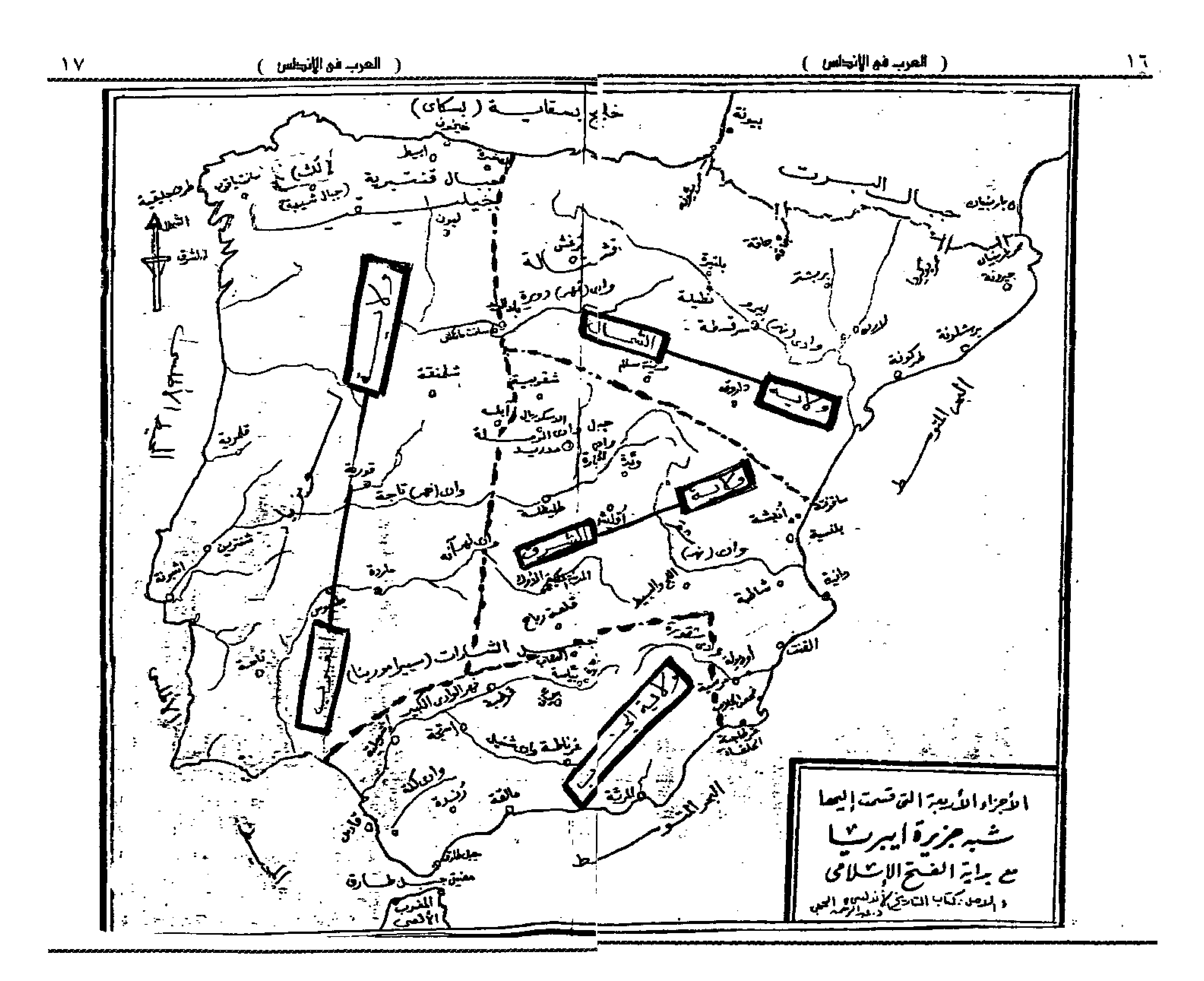
قوة إيمان الفئة المسلمة ، وانحياز بعض الموالين للأسبان إلى العرب ، ثم وجود قادة مغامرين .



الفصل الثاني

العرب فى الأندلس

- معارك السمح بن مالك وظهور شخصية الغافقى .
- معارك عبد الرحمن الغافقى .
- هجمات المسلمين بعد معركة تور على فرنسا .
- معارك العرب فى الأندلس فى عهد أبطال ثلاثة .
- معاركة العرب فى عصور ملوك الطوائف .
- المعتمد بن عياد وأبو بكر بن عمار ومعركة الشطرنج .


الأجزاء الأربعة التي قسمت إليها
شبه جزيرة ايبريا
مع بداية الفتح الإسلامي
خليج بسقاية (بسكاي)
جبال البرت
جبال قنتبرية
البحر المتوسط
جبل الشارات (سيرامورينا)
نهر الوادي الكبير
برشلونة
طركونة
سرقسطة
لاردة
مدريد
طليطلة
بلنسية
دانية
قرطاجنة
المرية
مالقة
غرناطة
قرطبة
إشبيلية
قادس
مضيق جبل طارق
المغرب الأقصى
قلمرية
شنترين
الأشبونة
ماردة
باجة
شلمنقة
ولاية الشمال
ولاية الشرق
ولاية الجنوب

العرب فى الأندلس

تمهـــــيد :

أعقب فتح العرب للأندلس تطور هائل فى ولاياتها المختلفة ، فقد طورها العرب ثقافيًا وإداريًا وحضاريًا ، حتى إنها أصبحت فردوس أوروبا فى ذلك الحين ، ولم تكن أوروبا آنئذ سوى قارة ظلماء تنعق فيها البوم والغربان ، ويعبث فيها الغوغاء والمفسدون ، وتقام فيها ولايات عديدة بلا أساس ، وتنهار فى عمر الزهر ، وذلك لعدم توافر أسباب قيام الدولة فى كل إمارة منها ، ثم إن هذه الإمارات وتلك الدويلات ، ليس فيها المؤسسون الأكفاء الذين ينهضون بأعباء المُلك . ولقد قسم العرب أسبانيا إلى أربع مقاطعات كبيرة وجعلوا على كل منها حاكمًا مسئولاً تجاه أمير الأندلس مباشرة ..

(ا) **المقاطعة الأولى :** تقع ما بين البحر ونهر الوادى الكبير .. ومن أشهر مدنها قرطبة وأشبيلية ومالقة وجبَّان .

(ب) **المقاطعة الثانية :** وهى أسبانيا الوسطى ومن أشهر مدنها طليطلة وقونقا وسيقوبيا وبلنسية وقرطاجنة (الجديدة) .

(جـ) **المقاطعة الثالثة :** وتتألف من جليقيه ولويزتيانة ومن أهم مدنها ماردا وباجة ولشبونة .

(د) **المقاطعة الرابعة :** تمتد من شاطىء الدورو إلى جبال البرنيه ومن أهم مدنها سرقسطة وطرطوشة وترغونة وبرشلونة .

وقد تباين شعب الأندلس لغة وجنسًا ودينًا ، فقد كان بها أقوام من بلاد شتى ، بالإضافة إلى أصحاب البلاد الأصليين ، من مسيحيى أسبانيًا ، ومن المسلمين الذين كانوا مسيحيين قبلاً ، ويمكن تقسيمهم على النحو التالى :

١ - العرب المضريون الذين جاءوا مع الفتح الإسلامى من الحجاز والعراق وبعض بلاد الشام .

٢ - العرب الحميريون وهم من أصل حميرى وقد نزحوا من بلاد اليمن والشام .

٣ - المسلمون المستعربون من مصر ، ومن شمال أفريقيا (وهم الذين كان يطلق عليهم البربر) .

٤ - فئة اليهود الذين استظلوا تحت الحكم الإسلامى واستخدموا فى بلاط الأمراء الأندلسيين .

٥ - المسلمون المستعربون من أهالى البلاد وهم المسيحيون الذين اعتنقوا الإسلام وانصهروا مع العرب برابطة الدين والمصاهرة .

٦ - المسيحيون الذين ظلوا على ديانتهم دون أن يكرهوا على الدخول فى الإسلام . مثلهم مثل اليهود يقيمون شعائرهم الدينية فى حرية مطلقة دون رقيب أو حسيب .

وعندما استدعى الخليفة الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير وطارق بن زياد، اتخذ موسى قبل رحيله جميع التدابير لحكم الأندلس ، فعين ابنه عبد العزيز حاكمًا عليها ، وجعل أشبيلية مقرًا لحكمه وعيَّن ابنه الأوسط حاكمًا على أفريقيا والأصغر حاكمًا على المغرب الأقصى ، وقد اهتم العرب بتحصين قواعدهم البحرية ، وإقامة الترسانات البحرية ، والارتفاع بمستوى أسطولهم الحربى فى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى .

وبعد انتهاء حكم الوليد بن عبد الملك ، ولى الخلافة بعده أخوه سليمان ، وكان أرأف منه فى معاملة رعاياه ، إذ أمر بإطلاق المسجونين ، وبفك الأسار من المغضوب عليهم ، وقد كان طاغية بنى أمية الحجاج بن يوسف الثقفى ، قد زجَّ بهم فى السجون وسامهم سوء العذاب .

إلاَّ أن حكم سليمان بن عبد الملك لم يكن خيرًا كلَّه ، فلو كان كذلك لكان الخليفة العادل فى بنى أمية ، إلاَّ أنه أساء معاملة القائدين العظيمين اللذين فتحا الأندلس (موسى بن نصير وطارق بن زياد) وكذلك (كما يقول سيد أمير على)

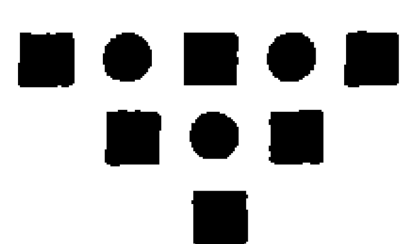
كان على علم بمقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير ، الذى حقق حكمه ازدهارًا عظيمًا فى الأندلس (كما استدعى محمد بن القاسم فاتح السند والبنجاب ، والذى فاز بمحبة الهندوس لعدله وإنصافه ، وكان ذنب محمد الوحيد أنه من أقارب الحجاج ، ولذلك لقى أشد صنوف العذاب على يدىّ يزيد بن المُهَلّب ، وعُيّن مكانه حبيب أحد أشقاء يزيد حاكمًا على الهند ، فأضاع رغم شجاعته تلك المنزلة التى كان سلفه قد اكتسبها بين الهنود) ..

وقد تولى إمارة الأندلس عقب مقتل عبد العزيز بن موسى ، ولاة كثيرون منهم أيوب بن حبيب الذى انتخبه الجيش العربى بالأندلس ، ثم (الحُرّ) الذى عينه الخليفة بدلاً منه ، وهو الذى جلب كثيرًا من الأُسر العربية فى أفريقيا ، فاتخذهم حاشية له حتى أصبحوا يشبهون نبلاء أوروبا وإقطاعييها (ومنذ ذلك الحين حتى استيلاء العباسيين على الخلافة ظل يحكم أسبانيا سلسلة من الحكام يعيّنهم الخلفاء فى دمشق تارة ، وأمراء أفريقيا ومركزهم القيروان تارة أخرى ، وكانت هذه السلطة الموزّعة مصدرًا لشرٍّ عظيم ، ذلك أنها أفسدت الإدارة واعترضت الحكم وشجعت الاضطرابات وحالت دون تعزيز الحاميات النائية » ..

وقبل أن يستسلم الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك لسبات عميق فى رقدته الأخيرة ، أوصى بأيلولة الخلافة إلى ابن عمه عمر بن عبد العزيز ، ولما بويع عمر الثانى بالخلافة سار على نهج جدّه لأمه عمر بن الخطاب (رضه) ومسح عن الخلافة الإسلامية دنس بنى أمية . ويعتبره أهل السنة خامس الخلفاء الراشدين وكان تقيًاوورعًا ، وحاكمًا عادلاً ، وخليفة متواضعًا (وقد وجدته زوجته فاطمة بنت عبد الملك يبكى ذات مرة بعد الصلاة فسألته عما يبكيه فقال : لقد وُلِّيت أمور المسلمين وغير المسلمين فتذكرت الفقراء الذين يموتون جوعًا ، والمرضى المحرومين ، والمعْوزين المضطهدين ، والمسجونين البائسين ، والشيوخ مهيضى الجناح ، فخشيت أن يحاسبنى الله من أجلهم حسابًا عسيرًا ولهذا بكيت) - وليس هنا مجال لتعداد مآثر هذا الخليفة الإنسان ، إلاّ أننا أشرنا إليها كلمح بالبصر ، ولم يكن فى مقدورنا

الإتيان بتلك الخصال الحميدة ولعلَّ مِنّ خِيرة مَنْ ألف عنه الدكتور : أحمد حسن الشرباصى (انظر كتاب الشعب العدد ٥٣ ، ٦٢ : خامس الخلفاء الراشدين : عمر بن عبد العزيز) .

ولمَّا عجز « الحُرُّ » عن التفاهم مع الأسبانيين قامت اضطرابات عمَّت البلاد شرقها وغربها فعزله عمر فى عام ٧١٩ م وولَّى مكانه زعيمًا يمانيًا يدعى (السمح بن مالك) وكان مشهوراً بقدرته الحربية وكفاءته الإدارية (ولذا عهد إليه بإعادة تنظيم الدولة فى الشئون المالية والإدارية) .



معارك السمح بن مالك وبروز شخصية الغافقى

يقول مؤرخنا الإسلامى سيد أمير على (وبعد أن أعاد النظام إلى نصابه فى أسبانيا أخذ السمح على عاتقه تأديب العصاة المسيحيين فى الأنكيدوك والبروفانس فهزمهم وأجبرهم على اللجوء إلى المعاقل الجبلية فى الاسترياس كما اكتسح (ستمانية) وفتحت (أربونة) أبوابها وحذت حذوها مدن كثيرة أخرى) .

بروز شخصية عبد الرحمن الغافقى (أعظم قائد عربى عرفه الفرنجه):

ثم زحف السمح تجاه (تولوز) عاصمة الأكواتين وحاصرها بقوة صغيرة ، وقبل أن تأتيه الإمدادات داهمته جنوده عدوه (أبوديس) وكان على رأس جيش يناهز عشرة أمثال جيش السمح ، وقد أبدت جنود السمح بسالة نادرة النظير وقد صممت على الفوز بإحدى الحسنيين (وكسر قوادهم أغماد سيوفهم وهم مصممون على الانتصار أو الموت) واستمرت الحرب سجالاً بين الفريقين لمدة طويلة أعقبها إصابة السمح برمح فى عنقه فهوى صريعًا . وكادت أن تخور عزائم العرب عقب مقتل قائدهم ، إلاَّ أن أحد الجنود ويدعى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى استطاع أن يمسك بأعنَّةِ القيادة ، (ونجح فى سحب الجند من البروفانس بمهارة وشجاعة فائقتين حازتا إعجاب أعدائه أنفسهم ، ولقد وقعت معركة تولوز التى هلك فيها عدد كبير من العرب المشهورين فى شهر آيار من سنة ٧٢١ م أى بعد وفاة عمر بن عبد العزيز بقليل) .

وهكذا استطاع الجيش أن يتخيَّر من جنوده من يستطيع أن ينجو بهم من شر محدق ، وهذا الموقف يذكرنا بوقعة مؤتة التى استطاع فيها المسلمون أن يختاروا خالد بن الوليد قائدًا لهم ، عقب سقوط القواد الثلاثة الذين عيَّنهم الرسول الأعظم صلَّى الله عليه وسلَّم لخوض المعركة ، وهذا القائد العربى الذى أمسك بزمام القيادة

لم يستمر فيها سوى بضعة أشهر قبل وصول القائد (عنبسة) الذى قدم من قبل أمير أفريقيا واليًا على الأندلس .

دروس وعبر من معركة تولوز (السابقة) :

١ - إن الجندي العربى لا يهاب الموت عند مفاجأة العدو له ولا يستسلم مهما كانت ظروف المعركة .

٢ - إن الجندى العربى المحنَّك على أُهبة الاستعداد لتولى زمام القيادة عند استدعاء الأمر .

٣ - إن القيادة فى الجيش العربى تكليف وليست تشريفًا والقائد الماهر هو المكلف بها .

٤ - إن العرب الذين طرقوا أبواب فرنسا غازين لم يكونوا دعاة حرب وإنما هم رسل حضارة وروَّاد فكرٍ سامٍ ، لإنقاذ أوروبا من غياهب الظلام الذى خيَّم عليها ، وليس هناك بديل لنشر تلك المبادىء عن الحرب .

معارك عبد الرحمن الغافقى

تولية عبد الرحمن الغافقى على الأندلس :

لم يستمر (عنبسة) فى الحكم طويلاً ، حتى أغتيل فى كمين نصبه له « السقوبيون » فى أحد شعاب جبال البرانس . وقد تولَّى الإمارة بعده خمسة أمراء وآخرهم عيَّنة الخليفة هشام بن عبد الملك ويدعى الهيثم ، واستطاع هذا الأمير أن يحرز انتصارًا ساحقًا على أعدائه باستيلائه على ليون وماسون وشالمون وبون واتون (وصالحته مدن أخرى على دفع الجزية ولكن هذا الفتح فى النهاية لم يأتِ ثماره ، ذلك أن العرب بسبب اختلافاتهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بهذه المدن ، كما أن وحشية البربر الذين كانوا يؤلِّفون القسم الأكبر من الجيش الإسلامى حوَّلت ود أهل (استمانيه) إلى عداء مرير ، هذا ما ذكره المؤرخ الإسلامى سيد أمير فى كتابه « مختصر تاريخ العرب » .

وبعد أن قتل الهيثم ولى الخليفة هشام عبد الرحمن الغافقى إمارة الأندلس ، فكان أعظم قائد شهده تاريخ العرب فى الأندلس ، إذ استطاع بكفاءته العسكرية أن يبنى جيشًا قادرًا على تحقيق انتصارات شبيهة بانتصارات طارق بن زياد وموسى بن نصير ، كما أن عبد الرحمن كان بمثابة القائد الذى أعدته المقادير للانتقام لشهداء معركة (تولوز) فى أيام السمح بن مالك .

وقد كان هذا القائد العربى على دراية عالية بسياسة البلاد وإدارتها ، وتنظيم ولاياتها المختلفة ، فقام بإصلاحات فى كل مجال من المجالات التجارية والزراعية والشئون العسكرية ، وهكذا استطاع أن يثبِّت قدميه قبل أن يزحف تجاه فرنسا ، كما أثبت له التاريخ تسامحه الجم وجِدَّه المتواصل لإزالة الحزازات ونزع المشاحنات الداخلية ، ومعاملة جميع الطبقات على قدم المساواة .

اغتيال منوزة وغزو جنوبى فرنسا :

قام أحد الولاة المسلمين فى جبال البرانس ويدعى عثمان بن أبى نسعة ، وقد أسماه الذميون منوزة بعد تزوجه بلامبيكى الجميلة ابنة (أودى) حاكم (إكواتين) الذى عقد معه معاهدة تحالف هجومية ضد الإمارات العربية ، ولم يلبث منوزة أن أعلن عصيانه وخروجه على عبد الرحمن الغافقى ، واستعد لملاقاة جيوش المسلمين فى إمارته (مدينة الباب) فداهمته جيوش عبد الرحمن فهزمته هزيمة منكرة ، قتل عقبها وأسرت زوجته ، فأرسلت إلى بلاط الخليفة الأموى بدمشق .

وبعد أن انتهى عبد الرحمن من منوزا ، وجد حليفه (أودى) يستعد على رأس الجيوش المتحالفة معه من الفرنج والقوط ، للانقضاض على جيش المسلمين الذى كان قاب قوسين أو أدنى من غاليس (فرنسا) . وفى هذا الحين توالت إمدادات الجيوش العربية حتى تضاعف تعدادها ، ويقول المؤرخون إنه أعظم جيش سيَّره المسلمون صوب فرنسا ، وكان ذلك فى عام ١١٤ هـ (٧٣٢ م) ، واخترق جبال البرنيه ، وزحف على إمارة إكواتين وهزم الدوق (أودى) هزيمة منكرة ، واستولى على عاصمته (بوردو) وتبعتها جميع ولاياتها الأخرى ، ثم تقدم الجيش العربى نحو الرون (واخترق ولاية برجونيه واستولى على ليون وميزانصون ، ووصلت سريَّاته إلى (صانص) التى تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط . ثم تحول عبد الرحمن بعد ذلك غربًا إلى ضفاف اللوار ، ليتم فتح هذه المنطقة ، ثم يقصد إلى عاصمة الفرنج وتم هذا السير المظفر وافتتح نصف فرنسا الجنوبى كله ، من الشرق إلى الغرب فى بضعة أشهر ، هذا ما ذكره مؤرخنا العربى محمد عبد الله عنان فى مجلة العربى العدد السابع .

موقعة بلاط الشهداء (أو موقعة تور) واغتيال عبد الرحمن الغافقى :

بعد هذه المعارك التى انتصر فيها العرب على حاكم (إكواتين) وبعد زحفهم المظفر إلى قلب فرنسا ، ظهر أمامهم قائد مسيحى ذو كفاءة عالية يدعى كارل مارتل ، وقد استطاع تجميع جنوده حتى أصبحت أضعاف الجيش الإسلامى ، كما

سعى إلى عقد تحالف مع سائر الدويلات والإمارات المسيحية فى شمال غزلى أوروبا، ثم تقدمت هذه الحشود تجاه جيش المسلمين الذى عبر نهر اللوار شمالاً ، فاستطاعت أن توقف تقدمه وأن تجبره على الانسحاب إلى جنوب النهر .

ثم عسكرت الجيوش الإسلامية جنوبى مدينة (تور) بينما عسكر كارل مارتل بجنوده إلى يسار المسلمين غير بعيد عن معسكرهم . وأثناء هذه المعارك التى خاضها عبد الرحمن بجنود أعيا الكثيرين منهم ما أصابهم من السهام ، ورشق النبال وطعنات الحراب وإصابات السيوف . إزاء هذا الموقف الدقيق ، كان عليه إمَّا أن يرتد مندحرًا إلى الجنوب تاركًا أسلابه وغنائمه ، وجميع ما استولى عليه من الإمارات الفرنسية ، وإمَّا أن يقاتل عدوَّه قتالاً مستميتًا ، واضعًا نُصب عينيه إمَّا النصر وإمَّا الشهادة فى سبيل الله .

والتقى الجيشان فى أعظم معركة شهدتها الأندلس ، طيلة القرون الثمانية التى عاشها المسلمون فى أسبانيا . كما اعتبرها المؤرخون الموقعة الحاسمة بين الشرق والغرب ، وبين الإسلام والنصرانية ، فهى آخر محاولة لغزو أمم الشمال من أوروبا (وإن كان قد حدث بعدها عدة محاولات إلاَّ أنها لم تكن كمثل هذه المحاولة فى عظمها وشدَّة بأسها) وقد أجمع كُتَّاب الغرب على أن هذه المعركة لو انتصر فيها العرب ، لصارت جميع بلاد أوروبا فى قبضة المسلمين إلى ما شاء الله .

وقد سمِّيت هذه المعركة بلاط الشهداء ، لكثرة الشهداء الذين سقطوا أثناءها من أبطال المسلمين الأفذاذ ، وقد كان اليوم التاسع من المعركة يومًا حاسمًا ، إذ لاحت فى بدايته طوالع النصر للمسلمين ثم أصاب قائدهم عبد الرحمن سهم لم يخطئه ، فأرداه قتيلاً من أعلى صهوة جواده .. وهنالك ابتُلِيَ المسلمون ابتلاء حسنًا، فدب فيهم الذعر والاضطراب وكادوا أن يولوا الأدبار فى أقلَّ من القليل .

انسحاب المسلمين من جنوبى فرنسا :

كان اليوم الحادى والعشرون من أكتوبر سنة ٧٣٢ م (أوائل رمضان سنة ١١٤ هـ) يوم شؤم على المسلمين ، إذ سقط فيه خِيرة قوادهم ، واشتدت عليهم وطأة

الفرنج لضخامة عددهم وعتادهم ، ولم ينقذ العرب منهم إلا دخول الليل ، إزاء هذا الموقف الدقيق قرر المسلمون الانسحاب فورًا ، وارتدت جموعهم تحت جنح الظلام تاركة أسلابها وغنائمها لعدوها الذى هالته فرحة النصر ، وأعمته نشوة الانتقام ، إلاَّ أنه عاد أدراجه نحو الشمال خوفًا من الوقوع فى أحد الكمائن التى يحتمل أن يوقعهم فيها المسلمون .

عبد الرحمن الغافقى فى سطور (نقلاً عن مجلة العربى) :

١ - أمير عربى ولاه الخليفة هشام بن عبد الملك على الأندلس فى عام ١١٢ هـ (٧٠٩ م) ويعتبر من أعظم الولاة فى عصر الخلافة الأموية .

٢ - اشتهر بغزو فرنسا بعد أن ارتد المسلمون عن مدينة (تولوز) .

٣ - عبر عبد الرحمن جبال (البرانس) ودخل أرض فرنسا عام ٧٣٢ م فانتصر على جيوش دوق إكواتين على نهر الرون .

٤ - ثم اتجه نحو (بوردو) فاستولى عليها ثم على إقليم برجونيا وخفق علمه على مدينة ليون .

٥ - تحالف الأمراء الفرنسيون ضده والتقوا به عند مدينة تور (بلاط الشهداء) على نهر اللوار وفيها قتل عبد الرحمن ، مما أدى إلى ارتداد العرب بعد انتصارهم .

٦ - كانت هذه الوقعة الحد الذى وصل إليه توغل العرب فى شمال أوروبا .

٧ - توفى عام ٧٣٢ م .

دروس وعبر من معارك الغافقى فى الأندلس :

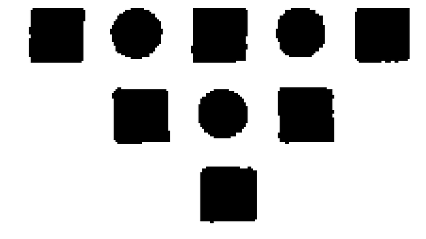
إذا تتبعنا المعارك التى خاضها العرب فى الأندلس فى زمن ذلك القائد المظفر فيمكننا استخلاص النتائج التالية :

١ - إن الروح المعنوية للجنود تكون فى أعلى مستوى لها عندما يتولى القيادة القيادة رجل كفء فى وقت الشدة ، حيث يستطيع ردء الأخطار التى كان يمكن أن تحيق بالجيش لولاه .

٢ - إن اختلاف أمراء المسلمين فى الأندلس جنودهم ، كان نواة الفتنة التى كانت بدورها سببًا فى زوال حكمهم عنها .

٣ - إن العدو يستخدم عادة ضعاف النفوس لطعننا فى الظهر ويمكنه أن يستقطبهم إلى جانبه ، بسهولة إذا عرف مواطن الضعف فيهم ، ولذا فإن القادة الضعفاء الذين هم حَربة فى أظهرنا ينبغى تنحيتهم تمامًا عن القيادة قبل أن يكونوا عيونًا للأعداء ، ثم يصبحون رأس حربة تطعننا من الخلف .

٤ - إن أوروبا كانت بين (فكى الكماشة) الإسلامية فى عصور التاريخ السالفة ، ولم يُفْلِتها من قبضة المسلمين إلاَّ الخونة أو الطابور الخامس الذى كان يساعد العدو وهو فى ظاهره نصير للمسلمين . وإن معركة « تور » هى إحدى المعارك التى كانت معرضًا للصراع بين الشرق العربى الإسلامى والغرب الأوروبى المسيحى .



هجمات المسلمين بعد معركة (تور) على فرنسا

أرسل الخليفة هشام بن عبد الملك واليًا آخر يدعى عبد الملك بن قَطَن الفهرى ، عقب الأنباء التى توافرت إليه عن معركة (تور) ومقتل الغافقى فيها وكثير من المسلمين . وأوصى القائد الجديد بأن يثبت جدارته فى ولايته الجديدة ، وأن يُشْعِر أعداءه ببقاء لواء المسلمين عاليًا خفاقًا على ربوع الأندلس ، حتى لا تكون تلك المعركة فاتحة لهزائم أخرى متلاحقة على يد كارل مارتل وأنصاره .. فاستطاع الوالى الجديد أن يقضى على الثوَّار قضاءً مبرمًا ، وأن يدخُل (أراغون) و (نافارة) وأن يستولى على لانكيدوك ، كما استطاع تعزيز مواقع المسلمين فى تلك الجهات .

واستطاع المسلمون بتحالفهم مع بعض الزعماء فى أوروبا ، أن يعيدوا الكرَّة مرة بعد مرة لغزو الجزء الأكبر من فرنسا ، فعبروا نهر الرون واستولوا على (سان ريمى) و (أفنون) وعقب هذه الهجمات عزل الخليفة هشامٌ قائده عبد الملك وولَّى بعده (عقبة بن الحجاج السلولى) إمارة الأندلس « وكان رجلاً عادلاً فاضلاً محبوبًا من جميع المسلمين ، وفى خلال السنوات الخمس الأولى من حكمه دخل فرنسا مراتٍ عدَّة ، ووصل رجاله وسلاحه إلى أبعد مما وصل إليه المسلمون من قبل ، وفى عهده أقام المسلمون حاميات فى جميع الأماكن المكشوفة ، حتى نهر الرون وكانت هذه المراكز العسكرية تدعى (الرباط) وكانت الغاية منها الدفاع والاستكشاف » .

واستمرت هجمات المسلمين على فرنسا تتوالى عامًا بعد عام فاستولوا على مدن عديدة ، وهددوا عاصمتها أكثر من مرة ولم يستطع كارل مارتل أن يحرز عليهم انتصارًا مماثلاً لانتصاره فى (بلاط الشهداء) رغم تحالفه مع ممالك عديدة فى أوروبا ، بل كان موقفه موقف المدافع اليائس ، فكان يخرِّب المدن ويحرق الزرع ويقتل الآدميين الأبرياء ، ما إن وقعوا فى قبضته ويمثِّل بجنودِ عدوه أبشع تمثيل .

وقد قام عبد الملك بن قطن الفهرى بثورة ضد الوالى الجديد عقبة بن الحجاج

استطاع فيها أن يأسره ويفتك به ، ولم يلبث عبد الملك أن لقى مصيرًا مماثلاً لمصير غريمه على أيدى الثوار الذين ثاروا ضده . ثم أعقب هذه الاغتيالات قيام حرب أهلية طاحنة فى الأندلس حيث قسمتها إلى ثلاث شُعَب : شُعبة تناصر الوالى ثعلبة ابن سلامة ، وشُعبة تناصر أبناء عبد الملك بن قَطَن ، وثالثة وهم البربر وكانوا يسعون إلى جعل السلطة فى قبضتهم دون سواهم . وإزاء هذا الموقف الدقيق ، أخذ ملوك أوروبا يرقبون المسلمين بأعينٍ فاحصة ، ولم ياهجموهم إيمانًا منهم بأن الفتنة كفيلة بأن تعركهم عَرْك الرَّحَى بثِقالها فيصبحوا لقمة سائغة فى يد أعدائهم .

ولم تكن هذه الفتنة فى الأندلس إلاَّ جزءًا من الفتنة الكبرى التى كانت تعم البلاد الإسلامية آنئذ ، وكان مركز تلك الفتنة عاصمة الأمويين دمشق ، حيث كانوا يوجِّهون أوامرهم الصارمة بالضرب بيدٍ من حديد على كل من تخوَّل له نفسه القيام بثورة مضادة لسياسة الأمويين ، وقد كان أخوف ما يخافون وأخشى ما يخشون ، اشتداد الدعوة لآل البيت ، ولذا كانوا يفتكون بهم فى غير رحمة ورأفة ، حتى وصل بهم الأمر إلى أن يفتكوا بحفيد النبى صلَّى الله عليه وسلَّم الحسين بن على ابن أبى طالب (كرم الله وجهه) . وقد فعلوا هذه الفعلة الشنعاء بحفيد المصطفى صلَّى الله عليه وسلَّم ، دون أن يرعوا حقًّا للدين أو الرحم ويكفى أن قائد الأمويين كان فتى لم يعرف نسبه ، فكان لا يأبه بما يفعل ، ألا وهو زياد بن أبيه ولم يتركوا الحسين بعد موته بل نبشوا قبره وأخرجوا جثته وصلبوها ، هكذا بلغت الفتنة ذروتها فى بلاد المسلمين ، ولم تحرز الجيوش الإسلامية آنئذ انتصارات على أعدائها شبيهة بالانتصارات التى أحرزتها قبل نشوب تلك الفتنة .

نعود إلى الحرب الأهلية التى اشتعل أوارها فى أسبانيا لنعرف عن ماذا انجلى الموقف ؟ يذكر المؤرخون بأن ثعلبة بن سلامة استطاع أن يوقِع بأعدائه هزيمة منكرة، إلاَّ أن ولايته لم تدم إلى الوقت الذى كان سيستطيع فيه أن يفتك بكل أعدائه ، بل صدر أمر الخليفة بتولية أبى الخطار حسام اليمانى (ويقول المؤرخون أنه لم يكد يصل إلى الأندلس حتى جنحت الطوائف إلى السلم وانصاع الثوار) .

غير أن هذا الوالى لم يُطل به العهد على الولاية ، حتى أظهر تحزبه مع القبائل اليمانية ، واشتعلت الحرب الأهلية مرة ثانية وقضى فيها على اليمانيين قضاءً

مبرمًا، وقتل أبو الخطار أثناء تلك الحرب (واختار المصريون ثوابة بن سلامة حاكمًا عليهم) ثم وَلِىَ أمر الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهرى أحد أحفاد عقبة بن نافع فاتح أفريقيا ، واستطاع أن يرأب ما تصدع من بنيان بنى جنسه ، وإن يلم شعثهم ويجمع كلمتهم ، كما استطاع أن يقتل القبلية فى مهدها (وبذلك استطاع أن يتمرس بأعباء الحكم قرابة عشر سنوات من دون مصادقة دمشق ودون أن ينازعه أى منازع فى الداخل) .

غير أن الثورة اشتعلت فى الأندلس للمرة الثالثة فى عصر هذا الوالى ، فاستطاع أن يكبح جماح الثائرين وأن يتعقب فلولهم حتى أطراف الولايات الأندلسية ولكن لجوء عبد الرحمن(*) الداخل (صقر قريش) إلى الأندلس بعد انتهاء الخلافة الأموية فى دمشق جعل مكانة يوسف بن عبد الرحمن تتضاءل أمامه ، لما اجتمع لعبد الرحمن من صفات جعلته أقوى مكانة ومنزلة .

هجوم بيبن القصير على المسلمين فى فرنسا سنة ٧٥٢ م :

استطاع بيبن القصير بن كارل مارتل أن ينتهز فرصة انشغال عبد الرحمن بحروبه الداخلية وسعيه للقضاء على القلاقل التى كان يثيرها الثوار فى قلب إمارته فانقضَّ على (لانكدوك) و (وسبتمائية) و (سافوى) الغربية .. بجيش لا قبل للعرب به فأحرق تلك المدن ، وجعلها خرابًا يبابًا ، فهدم المساجد والمستشفيات والمدارس ومثَّل بالمسلمين تمثيلاً مبينًا ، ومن لم يمت منهم بالسيف مات بغيره جوعًا وظمأً . ويثبت التاريخ أن العرب دافعوا عن كيانهم آنئذ دفاعًا مستميتًا ، واستمرت الحرب بينهم وبين الفرنجة سجالاً طيلة ثلاثة أعوام ، انكشف بعدها الموقف عن انحسارهم عن جنوب فرنسا فيما عدا (أربونة) التى حاصرها (بيبن) بقواته لمدة أربعة أعوام ، فقطع عنها أثناء الحصار الزاد والعتاد ، ولم يستسلم العرب فيها بل

(*) هو عبد الرحمن بن معاوية الذى استطاع أن ينجو بنفسه من بطش العباسيين بعد استطاعتهم القضاء على جميع الأمويين فى عام ١٣٢ هـ - ففر الداخل إلى شمال أفريقيا ومنها عبر إلى الأندلس واستطاع أن يقيم إمارة أموية مستقلة عن الحكم العباسى فى بغداد .

دافعوا ببسالة نادرة ، ولم يسبق لغيرهم أن وقف مثل وقفتهم البُطولية تلك ، حتى حدث أن استعان العدو ببعض الخائنين الذين فتحوا أبواب المدينة على مصاريعها وعلى حين غفلة من حراسها ، فدخلها البرابرة على رأسهم بيبن فأعملوا سيوفهم فى رقاب أهلها رجالاً ونساءً وأطفالاً ، وأحالوها إلى جحيم لا يطاق فأصبحت معالمها أثرًا بعد عين .. وهكذا رجعت فرنسا إلى حظيرة أوروبا الظلماء ، بعد أن ولجها بصيص من النور لم يلبث أن انطفأ عنها فجأة ، فى ليلةٍ حالكة الظلام ولم يدخلها العرب بعد هذا التاريخ إلا لمامًا ، إذ لم يكن دخولهم بصفة دائمة أو لفترة تجعلهم يصلحون فيها ما أفسد الدهر .

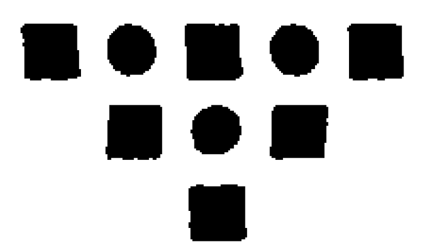
دروس وعبر :

١ - أن الفترة التى مرَّت على العرب فى الأندلس بعد موقعة (تور) كانت فترة حرجة شُحِنت بالفتن والاضطرابات وتنازُعِهم فيما بينهم .

٢ - إن أقوى سلاح ساعد العدو فى الانقضاض على العرب وتحطيم قواهم هو سلاح الفتنة التى هى أشد من القتل حيث استعان العدو بأعوان خونة حققوا أغراضه .

٣ - إن إثارة النعرة القبلية والتفاخر بالحسب والنسب كان من أسباب ضعف المسلمين فى الأندلس وتضاؤل سلطانهم فيها .

٤ - إن عقاب الله للمسلمين فى الأندلس لم يكن إلا نتيجة لأعمالهم البشعة (أى الأمويين) بأهل البيت والتنكيل بهم على أيدى طغاتهم وزبانيتهم فسلط الله عليهم من عدوهم من لا يرحمهم .



معارك العرب فى الأندلس فى عهد أبطال ثلاثة :

(عبد الرحمن الداخل - عبد الرحمن الناصر - المنصور بن أبى عامر)

عبد الرحمن الداخل :

يعتبر عبد الرحمن الداخل أحد الأشخاص الأربعة المبرِّزين فى تاريخ العرب بالأندلس ، وهم : عبد الرحمن الغافقى وعبد الرحمن الداخل (صقر قريش) وعبد الرحمن الناصر (عبد الرحمن الثالث) والمنصور بن أبى عامر وهو أحد الوزراء العظام الذين حكموا الأندلس باسم الخليفة الأموى بالأندلس .

وقد حكم الداخل(*) الأندلس فيما بين سنة ١٣٨-١٧٢هـ (٧٥٦ - ٧٨٨ م) وقد كان الأمير الأموى الوحيد الذى استطاع أن يهرب من بطش العباسيين الذين استولوا على السلطة عَنوة وقضوا على الأمويين فى عهد آخر خلفائهم مروان بن محمد ، فخفق علم العباسيين فى بغداد منذ أول خليفة لهم وهو أبو عبد الله السفاح ، أما الأمير الأموى عبد الرحمن الداخل فقد استطاع أن يلوذ بالفرار من العباسيين ، وأن يعبر مضيق جبل طارق إلى الأندلس ، وأن يصبح أميرًا على الأندلس ، فكان شخصية مرموقة أحرزت إعجاب كل من عاصره من العظماء ، حتى أن الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور كان يسمِّيه (صقر قريش) .

وقد محا عبد الرحمن بدخوله الأندلس اسم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى الذى كان قائدًا لامعًا فى تاريخها النضالى ، كما استطاع أن يستحوذ على قلوب الجند وأن يجمع كلمة المسلمين على قلب رجل واحد ، وبذلك تمكن من صد هجمات الفرنجة ومن إحراز بعض الانتصارات عليهم .

(*) هو أحد ثلاثة سموا بعبد الرحمن حكموا الأندلس وهم : عبد الرحمن بن معاوية وعبد الرحمن الثانى (٢٠٦-٢٣٨هـ) وعبد الرحمن الثالث أو عبد الرحمن الناصر لدين الله (٣٠٠-٣٥٠هـ) .

عبد الرحمن الناصر (أو عبد الرحمن الثالث) :

يعتبر عبد الرحمن الناصر (أو عبد الرحمن الثالث) من أبرز الشخصيات الأربعة التى أشرنا إليها انفًا فى تاريخ الأندلس .. وقد كان عصره حافلاً بالانتصارات الساحقة على الأعداء كما كانت دولته تمثل العصر الذهبى فى تاريخ الأندلس . أو تاريخ الفردوس المفقود . وقد تولَّى الحكم فيما بين ٣٠٠-٣٥٠هـ (٩١٢-٩٦١) وقد سبق تولِّية الإمارة استيلاء المسلمين على (بروفانس) ودومينى وبيدمونت (وباحتلال المسلمين لهذه المنطقة قطعوا الطريق بين فرنسا وإيطاليا حتى إنه فى عام ٩١١ م لم يستطع أسقف تاربون (أربونة) الذى استدعاه البابا لأمر هام أن يعود إلى بلده ، لأن المسلمين كانوا يسيطرون على ممرات الألب ، واستمر المسلمون فى تقدمهم فوصلوا إلى بحيرة جنيف[1] (بحيرة ليمان) وجبال الجورة .

ويذكر المؤرخ هارون خان شيرونى أن اسم عبد الرحمن الثالث كان يبعث الرعب فى نفوس أهل أوروبا ، ويرى المؤرخ أيضًا أن المقرِّى قد ذكر فى كتابه (نفح الطيب) أن المسلمين كانوا يؤمنون بأن عبد الرحمن ذو قدرة خارقة . ويرى المؤرخون بأن قيام الدولة الفاطمية فى تونس كان له أثره على الدولة الأموية فى الأندلس ، إذ أوقف الفتوحات الإسلامية فى أوروبا فترة من الزمن ، سيما وأن هناك نزاعًا بينهما ، بشأن مراكش التى كانت مستقلة عن الدولتين .

ثم عاد المسلمون إلى الغزو فاستولوا على ميناء طولون فى عام ٢٧٨هـ (٩٤٠م)، ثم سيطروا على منطقة نيس واستطاعوا أن يجعلوا تلك المناطق قلاعًا حصينة مواقع استراتيجية ، لتوجيه ضرباتهم إلى الأهداف المنشودة ، وفى عام٢٩٢هـ (٩٥٢م) دخل العرب مع الفرنجة فى حرب طاحنة انتهت باستيلائهم وسيطرتهم التامة على سويسرا ، ووصلوا إلى بحيرة (كونستانس) ولكن العدو استطاع أن يفاجئهم ليلاً ، وأن يجبرهم على الانسحاب ، فتركوا منطقة بحيرة كونستانس تحرفًا لقتال وتحيزًا إلى فئات أخرى .

---

(١) العربى العدد (٢٤) .

وقد عاصر عبد الرحمن أحد ملوك ألمانيا المبرزين ويدعى الملك (أوتو) الكبير، وحدث بينهما اتصال دبلوماسى على مستوى عال ، وفى عام ٣٥٠هـ (٩٦١م) توفى الخليفة عبد الرحمن الثالث ، وحكم بعده ابنه الحكم الثانى ٣٥٠-٣٦٦هـ (٩٦١-٩٧٦) وكان محبًا للعلم والعلماء ، ميالاً إلى السلم ، ومن هذا التاريخ بدأ النفوذ الإسلامى فى التراجع فى أوروبا ، فخرجت من أيديهم جرينوبل عام ٣٥١هـ (٩٦٢م) ولحقت بها دوفيثى وبروفانس ، وكانت الضربة القاصمة عند سقوط قلعة فركسينيت عام ٣٦٥هـ (٩٧٥م) بعد أن بقيت مركز المسلمين لمدة تزيد عن ثمانين سنة ، وبسقوطها لم يبقَ بيد المسلمين أىُّ أرض فرنسية .

المنصور بن أبى عامر :

ويعتبر المنصور بن أبى عامر(*) من الشخصيات الهامة فى تاريخ الأندلس ، إذ استطاع أن يفرض نفسه حاكمًا باسم الخليفة الأموى ، بغية جمع كلمة العرب وتوحيد صفوفهم أمام أعدائهم ، فعادت الحياة تدبُّ فى عروق تلك الخلافة التى وهِنت فترة من الزمن بسبب ندرة الرجال الذين يسهرون لحمايتها ضد أعدائها .

وقد تمكن المنصور بن أبى عامر من الاستيلاء على الحكم ، حينما عهد الخليفة الأموى الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر إلى ابنه هشام ، وكان فى ريعان صباه . عهد إليه تولِّى الحكم بعده ، فكان لهذه الوصية أسوأ الأثر فى تاريخ هذه الأسرة الأموية بعد وفاة المستنصر ، إذْ وجدت الأسرة نفسها فى صراعٍ دامٍ للاستيلاء على كرسىِّ الحكم ، وكان بوسع الخليفة الراحل أن يعهد بالحكم إلى أحد أخوته ، والذين كانوا راشدين غير حديثى السن ، ولكن تفضيله أن تكون الخلافة فى بيته من بعده ، جعل هذه الإمارة عرضة لخطر الحروب الأهلية .

ويقول الأستاذ على أدهم (وقد مكَّن ذلك المغامر الشديد البأس الماضى العزم المنصور بن أبى عامر - من التغلب على منافسيه والاستئثار بالسلطة ، وكان المنصور

(*) هو أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبى عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافرى . وجده عبد الملك أحد الوجوه الذين دخلوا الأندلس مع طارق بن زياد فاتح الأندلس . وتلقب أبو عامر بالحاجب المنصور ثم تولى الحكم فى عام ٣٦٦هـ (٩٧٦م) .

حـاكـمًـا من الطـراز الأول ، ومن أقـدر رجـال الدولة الـذين عـرفـتـهم الحكومـات الإسـلامية ، ولكنّه فى سبيل توطيد سلطانه اعتدى على الصفة الشرعية للخلافة وأضعف شعور رجالات الأندلس بالولاء لها . ونصَّب لهم القدوة وضرب لهم مثلاً شرودًا فى الاعتداء عليها والاستخفاف بها ، وفضلاً عن ذلك فإنّه رغبة فى استبقاء نفوذه ، والمحافظة على حياته استكثر من البربر والصقالبة فى الأندلس ، للاستعانة بهم فى غـزواته المتلاحقـة ومغالبـة أهل الأندلس الذين تنكروا لـه أو ثاروا به ، وقد استطاع بدهائه ، وقوة شخصيته ، أن يسخِّر العناصر الثلاثة القوية فى الأندلس ، وهى العرب والبربر والصقالبة فى تحقيق غاياته) .

حدوث الفتن بين عناصر المسلمين ، بعد انتهاء الخلافة الأموية فى الأندلس :

إلاَّ أن غالبـيـة أهل الأندلس كانت ترى بقاء الخلافـة الأموية فى شبـه جزيرة أيبيريا ، فهى التى جعلت لواء الإسلام يرتفع عاليًا خفاقًا فيها ، ولذا كانت طاعتها واجبة ، وأمرها نافذًا وسلطانها مؤيَّدًا من الجميع . غير أن الزعماء والرؤساء لم يكونوا متـفـقين مع آراء عـامـة الشعب ، فـهم ينظرون إلى الحكم بزاوية أخـرى ، فبعضهم يريد أن تكون السلطة له فوق غيره ، وبعضهم يرى عدم تركيز الإمارة فى يد الأمويين ، وبعضهم يرى أن الاستقلال للمناطق المختلفة عن بعضها ، يحقق لها ازدهارًا وتقدُّمًا ، وهكذا تنازعت الآراء إلى أن أصبحوا شيعًا وأحزابًا ، ووصلت هذه الحزبية إلى هاوية سحيقة ، كانت بداية النهاية للحكم الإسلامى فى الأندلس ، وهو ما يعرف بعصر الطوائف .

فبعد أن انتهت الخلافة الأموية فى عام ٤٠٠هـ (١٠٠٩م) ، قامت عدة إمارات فى الأندلس ، كل إمارة يحكمها أمير لا تربطه أى صلة بالإمارات الأخرى غير صلة الدين ، وقد اشـتـد التنافس الحـزبى بين العناصـر المختلفـة من البـربر والعـرب والصقالبة والمسلمين والمولَّدين من أهالى أسبانيا ، على الاستئثار بالحكم « فاستأثر العرب بالنفوذ فى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة الأسبانية ، وساد الصقالبة فى القسم الشرقى ، وذهب الجزء الباقى فى الوسط والغرب إلى أيدى بعض الأسر التى سلِمَت من ضـربات النـاصـر والمنصـور بن أبى عـامـر ، وإلى بعض الأسـر الأخـرى

الطريفة المجد المحدثة النعمة . فكان هناك بنو حمود الأدارسة فى مالقة والجزيرة الخضراء ، وبنو زيرى البربر فى غرناطة ، وبنو هود فى سرقسطة ، وبنو ذى النون فى طليطلة وبنو الأفطس فى بطليوس ، وبنو جهور فى قرطبة ، وأسيرهم ذكرًا وألمعهم تاريخًا هو محمد أبو القاسم الذى اتخذ لنفسه لقب المعتمد على الله تشبهًا بخلفاء بنى العباس » أو هو المعتمد بن عبَّاد فى أشبيلية .

وقد كانت نهاية الأسر العامرية خاتمة محزنة لتلك الأعمال المجيدة التى قام بها ذلك العاهل الراحل ، إبَّان حكمه وذلك أن ابنه عبد الرحمن كان شابًا طائشًا قليل البصر بالعواقب « فقد قدِم على ما أحجم عليه أبوه العظيم وحمل الخليفة المستضعف هشامًا ، الثانى على أن يتنازل له عن ولاية العهد وافضى ذلك إلى الثورة[1] به وقتله » .

دروس وعبر :

إن تاريخ العرب بالأندلس تاريخ تثير ذكراه لواعج الحزن والألم الممضّين ، فقد كان تاريخًا حافلاً بالأمجاد ، ففيه أشرقت على أوروبا شمس الهداية الإسلامية ، وترعرعت فى شبه جزيرة أيبريا الثقافة والحضارة الإسلاميتان ، فمن فنون عمارة إلى فنون شعر وموسيقى ورسم وتصوير ونحت ، ومن فلسفة إلى فقه إلى بيان عربى مبين . ومن انتعاش المعيشة لكل مواطن ، إلى أُبَّهة الملك والحرير والسندس والديباج فى بلاط الأمراء ، ومن تمثيل دبلوماسى مع الأمم الأخرى إلى علاقة وطيدة ، ومن الفترة التى عاشها العرب فى الأندلس فى عهد الأمير عبد الرحمن الداخل ثم الخليفة عبد الرحمن الناصر ثم المنصور بن أبى عامر يمكننا أن نصل إلى النتائج التالية :

١ - إن أعظم الشخصيات التى برزت فى الأندلس قبل عصر ملوك الطوائف تمثلت فى هؤلاء النفر : عبد الرحمن الغافقى ، عبد الرحمن الداخل ، عبد الرحمن الناصر (أو الثالث) ثم المنصور بن أبى عامر .

---

(١) على ادهم - كتاب المعتمد بن عباد .

٢ - أن العرب بفضل القيادات الحكيمة استطاعوا أن يسيطروا على خمس دول أوروبية ، تعرف الآن بأسبانيا والبرتغال وفرنسا وسويسرا وإيطاليا .

٣ - أن زوال الحكم الإسلامى عن الإمارات الأندلسية يرجع إلى عوامل عديدة منها :

(أ) تنازع الزعماء فيما بينهم واختلاف آرائهم .

(ب) كثرة الأجناس التى كانت تكون شعب الأندلس .

(جـ) الاهتمام بالبذخ وحياة الترف والتمرغ بين الحرير والديباج .

(د) كثرة الدخلاء والعيون التى تعمل لحساب أعدائهم بين صفوفهم .

(هـ) تَمكُّن الملوك الأوربيين من استدراج بعض الولاة المسلمين الضعفاء ، والتمكن من جعلهم حلفاء لهم .

٤ - إن أوروبا لا تزال مدينة للعرب بالتقدم الذى أحرزته وطورته وما تزال تستقى من تجارب ونظريات وآراء عربية عاشت فى ربوع الأندلس وإن كانت تتنكر لذلك الفضل ، فإن ذلك طبيعة كل ناكر للجميل وخائن لله والبشرية مدَّعٍ على الناس أنه هو الصنف المختار من بين خلق الله .

■●■●■
■●■
■

معارك العرب فى عهد ملوك الطوائف(*)

إن العصر الذى أعقب انهيار الخلافة الأموية فى الأندلس كان عصر التفتت الحزبى ، والتعصب الدينى والمذهبى والقَبَلىّ . فكثرت الدويلات وكَثُر الملوك والأمراء. وأصبحوا شيعًا وأحزابًا وكل حزب بما لديهم فرحون وكلٌّ طائفة كانت ترى أنها على حقٍّ وأن غيرها على باطل ولم يسجل التاريخ لهذه الدويلات أى مبادرة إيجابية نحو الوحدة الشاملة ، دون إراقة دماء لتقف تلك الإمارات وقفة رجل واحد ضد العدو المشترك ، كما لم يسجل لهم انتصارات شبيهة بانتصارات أسلافهم على الفرنجة فوق جبال البرانس ، وعلى ضفاف الرون واللوار ، وعلى مقربة من العواصم الأوروبية الكبيرة فى ذلك الوقت .

بل سجل لهم أنهم كانوا كثيرًا ما تطاحنوا وغالبًا ما تنازعوا للاستيلاء على الحكم . فهذا الشاعر أبو بكر بن عمار يمتدح المعتضد بالله ملك أشبيلة مُشيدًا بانتصاراته على البربر مدَّعيًا أنهم أخس خلق الله وأنه يجب استئصال شأفتهم (وهم طائفة من الطوائف الإسلامية التى كانت تكوِّن شعب الأندلس) فيقول :

أدِرِ الزُّجاجة فالنسيمُ قد انبرى ... والنجمُ قد صرفَ العِنَانَ عن السُّرىَ

والصبح قد أهدى لنا كافورةً ... لما استردَّ الليلُ عنَّا العنبرَا

والروضُ كالحسنَا كَساهُ زَهرهُ ... وشْيًا وقلَّدَه نَداهُ جوهرَا

* * *

عبَّادُ المخضَرُّ نائلُ كفِّهِ ... والجوُّ قد لبس الرداء الأغبرَا

ملِكٌ إذا ازدحم الملوكُ بموردٍ ... وحَماهُ لا يردون حتى يُصدرا

أندَى على الأكبادِ من قَطْرِ النَّدَى ... والذُّ فى الأجفانِ من سنةِ الكَرَى

* * *

(*) من عام ٤٠٠ إلى عام ٤٨٤هـ (١٠٠٩-١٠٩١م) .

يا أيُهـــا الملكُ الذى حـــازَ المُنَى وحــبَــاهُ منه بمثلِ حــمْــدِى أنورا

السـيـف افـصَحُ من « زيادٍ » خطبَـةً فى الحـرب إنْ كـانت يمينُك منبَـرَاً

مــا زلتَ تُغنِى من عنا لك[1] راجيًا نيـلاً وتُفنِى من عــتــا وتجــبَّــرَاً

حتى حلَلْتَ من الرياسة مـحـجـرَاً رحــبًـا وضــمَّتْ منك طرفًـا أحــورَا

شـقِـيَتْ بسـيـفِكَ أُمـةُ لم تعـتـقِـدْ إلاّ اليــهـــودَ وإنْ تسـمَّت بربرا

اثمـرْتَ رُمـحك مـن رؤوس كُـمـاتِهِمْ لمَّا رأيت الغـصنَ يُعــشق مـثـمِـرَاً

وصـبـغْتَ درعك من دمـاء ملوكـهم لمَّا علمت الحُـسْنَ يُلبس أحــمــرَا

* * *

وقد أورد لنا الأستاذ على أدهم فى ترجمته لشخصية المعتمد بن عباد ، أن اسماعيل بن ذى النون صاحب طليطلة كان يرى أنه ينبغى أن يكون هو الحاكم بأمره فى جميع ولايات الأندلس ، ففى حديث له مع أبى العباس السكرى الاسكندرانى (وهو رجل ممتع الحديث حسن المجالسة) سأله ابن ذى النون عن ابن حمُّود حاكم مالقة ، فأثنى عليه ، فقال إسماعيل : « أتُثنى على أدعياء قد فعل الله بهم وصنع ؟ فبهت الاسكندرانى وقال : معذرة إليك أيدك الله فإنى جهلت رأيك فى هذا الرجل ، مع أنى ألزمت نفسى ألاَّ أذم ذا سلطان البتة ، وأنت غير منازع فى أئمتك المروانية وهم أهل ذلك منك أقاديم الملوك وذوو العدل والسياسة ، ومضى الاسكندرانى فى إطرائهم ظنًّا منه أنه يسُرُّه إذ كان يقول بدعوتهم فى ذلك الوقت فقطع عليه ابن ذى النون بأسوأ من قطعه على البائسين .. وانحنى على ذم بنى أميَّة فلم يبق » ويقول الأستاذ على أدهم (وهكذا كان من سمات هذا العصر أن كل أمير كان يجعل إرادته القانون الذى يرجع إليه وكان كل أمير يتربص بجيرانه من الأمراء الدوائر ويتحين الفرص للانقضاض عليهم وإزالة ملكهم أو لاقتطاع جانب من أملاكهم وضمها إلى

(١) ظهرت الصناعة والتكلف فى هذا البيت بوضوح كالجناس بين تغنى وتفنى والجناس والمقابلة بين عنا وعتا .

أملاكه ، ولا يرى بأسًا فى ذلك من الالتجاء إلى الخديعة ، والدس ومعاقدة العدو الرابض للإيقاع بالأمراء جميعهم) .

وامتاز هذا العصر بمجالس الشراب ، ومنادمة الملوك لوزرائهم وشعرائهم ، وسماعهم للطرب وتمتعهم بالقيان الحسان ، وعدم إكتراثهم بمتطلبات البلاد ، ولم يعطوا من وقتهم جزءًا لمناقشة السياسة العامة لإماراتهم ، وحاجاتها الداخلية والخارجية ، بل كانوا على وتيرة واحدة مثل الخلفاء العباسيين الذين كانوا بين الجوارى الحسان ، وكؤوس المدامة وقصائد الشعراء المتحذلقين .

وقد ساعد على صيرورة أحوال الأندلس إلى هذه الحالة أن أمراءها كانوا يهتمون بنظم الشعر وروايته ، أكثر من اهتمامهم بنظم تلك السياسة وربط معالم الإمارة ، ومعالجة مشاكلها . فهذا خليفة أموى كان بين عهدين فى الأندلس .. عهد انتهاء الخلافة الأموية وعهد سيادة ملوك الطوائف على أنحائها وهو سليمان المستعين بالله والذى وصف أبو حيان المؤرخ الأندلسى أيامه بقوله :

(كانت كلها شدادًا نكدات ، صعابًا مشؤمات ، كريهات المبدأ والفاتحة قبيحة المنتهى والخاتمة لم يعدم فيها تحيُّف ولا فورق فيها خوف ، ولا تم سرور ولا فقد محذور ، مع تطيير السيرة فى إدارة دفة الحكم نراه شاعرًا مبدعًا يقول عنه ابن يسام : هو أحد من شرف الشعر باسمه وتصرف على حكمه ، وذكر له قصيدة يعارض فيها قصيدة الرشيد التى يقول فيها (ملك الثلاث الآنساتُ عِنانى) فيقول:

عجبًا يخافُ الليث حدَّ سِنانى وأهاب لحظَ فواتر الأجفانِ

فأقارع الأهوال لا متهيِّبًا منها سوى الإعراض والهجران

وتملكَت نفسى ثلاثٌ كالدُّمَى زُهر الوجوهِ نواعم الأبدانِ

* * *

أما أمير أشبيليه المعتضد بن عباد فكان يرى أن حياته تنقسم إلى شرطين : شطر لتدبير الملك وشطر للمرح واللهو وإدمان الخمر :

لعمرك إنى بالمدامة قوال   وإنى لما يهوى الندامى لفعالُ
قسمتُ زمانى بين كدٍّ وراحة   فللرأي أسحارٌ وللطيب آصالُ
فأمسى على اللذات واللهو عاكفًا   وأضحى بساحات الرياسة أختالُ
ولست على الإدمان أغفل بغيتى   من المجد إنى فى المعالى لمحتالُ
إذا نام أقوام عن المجد ضلةً   أسهِّد عينى أن تنام بى الحالُ
وإن راق أقوامًا من الناس منطقٌ   يروق بدا منى مقالٌ وأفعالُ

« وكان كلفًا بابتناء القصور واعتمار العمارات المغلة واقتناء الملابس الفاخرة ، وغالى الأعلاق وارتبط الخيول السابحة واتخذ من الرجال الذادة عددًا ليس بالقليل، ودرَّبهم على الحرب وتمنع بهم ويعز على من رامه ويطول » .

ولما دار بخلده أن مدينة (ريَّة) ستكون ضمن أملاكه نظم قصيدة يتغنى فيها بجمال هذه البلدة وشغفه بها :

أريَّةُ أنتِ قائدة الزمانِ   فقد فُقتِ الممالك فى معانِ
وقد رُمناكِ من بلدٍ بعيدٍ   فأدناك الإله بلا توانِ
بذلنا جُهدنا عزمًا وحزمًا   ووطَّنا الكماة على الطعانِ
وأجهدْنا العزائمَ والمساعى   وأعملنا الحسامَ مع السنانِ
ليهنِئْ أهلَ مالقةَ انتصارى   وإعزازى لهم بعد الهوانِ
سينقذُهم ويُنميهم جميعًا   رَضاعُ الخيرِ إنْ دَرَّتْ لَبانى
وأضعافُ الذى يُهدى لسانى   إليهم ما يجنُّ لهم جنانى
ألم أعتقْهمو من ذُلِّ كفرٍ   جَرَى فى ضيمهم ملءَ العنانِ

* * *

وإذا علمنا أن هؤلاء الأمراء كانوا أمراء شعر ، قبل أن يكونوا أمراء ولايات فلا غرو أن يحفلوا بمجالس الشعراء ، وأن يدور بينهم نقاش وجدل عن أشهر بيت

قالته العرب ، فى الغزل أو أشهر بيت قالته فى الحماسة أو أشهر بيت قالته فى الخمر إلخ ..

ولا غرو إذا فُتح الباب على مصراعيه لشعراء التكسب المتحذلقين ، حتى أنهم نُصِّبوا أمراء بأبيات من الشعر ، بعد أن كانوا سائحين فى شرقىِّ البلاد وغربيِّها ، ليس لهم من حطام الدنيا سوى خرقة بالية ووريقات ممزَّقة يكتبون فيها ما تجود به القريحة من شعر ، وأتان أنهكتها السير وأضناها الجوع والعطش ، ولعل أكبر مثل على ذلك هو الشاعر أبو بكر بن عمار وهو الذى يقول واصفًا حاله التعسة وأنَّ الظواهر الطبيعية تشاركه أنينه وبؤسه :

عليَّ وإلاَّ ما بكاءُ الغمائم ... وفِىَّ وإلاَّ ما نُواح الحَمائم

وعنِّى آثار الرعد صرخةَ طالب ... لثار وهزَّ البرقُ صفحةَ صارم

وما لبِسَتْ زُهر النُّجوم حدادَها ... لغيرٍ وما قامتْ له فى مآتم

وتغنى شعراء التكسب ببنى عباد ، بغية ابتزاز الأموال الطائلة ، والهدايا الفاخرة ، والإقطاعيات الشاسعة ، كما بالغوا فى تمجيد آبائهم ، والترنم بأصالة حسبهم ، ونسبهم الذى يفصل بالخميين الذين كانوا ملوك الحيرة ، وعمال فارس وهم الذين عرفهم التاريخ بالمناذرة ، وأشهرهم النعمان بن المنذر بن ماء السماء ، ولذا قال أحد الشعراء مادحًا بنى عباد مشيرًا إلى هذا النسب العريق :

مِنْ بنى المُنذرينَ وهو انتسابٌ ... زاد فى فخرهم بنو عبَّادِ

فِتيةٌ لم تلِدْ سِواهَا المعَالِى ... والمعالى قليلةُ الأولادِ

وقال شاعر آخر فى تأييد هذا النسب وربط أصولهم بملوك الحيرة :

من حَلْبة السَّبقِ لا برقٌ يخاطفها ... إلى مَداها ولا ريحٌ يجاريها

تردُّهم نسبةٌ نحو السماء فهُم ... من مائها وعلاهم من دَراريها

ويقول آخر (كما ورد فى كتاب المعتمد بن عباد للأستاذ على أدهم) :

نفرٌ إلى ماء السماء فما همو ... نسبٌ على أوْج النُّجوم مخيِّمُ

بالبيض والبيضات والخلق اكتسوا ... فتوشَّحوا وتتوجوا وتنعَّموا

وشعراء التكسب عادة يتكاثرون ويتهافتون إبَّان المناسبات على اختلاف مشاربها، سواء أكانت مناسبات سارة أو حزينة ، وهذا ما لمسناه عند قراءتنا للأدب، وعند تصفحنا لقصائد شعراء الأندلس وهم يسارعون فى العزاء ، كما يسارعون فى التهنئة فهذا الشاعر بن زيدون يعزِّى المعتضد فى ابنة توفيت فى ريعان صباها بأبيات منها :

سرَّكَ الدهرُ وساءَ فاقْنِ شُكراً وعزاءَ
كم أفاد الصبرُ اجراً واقتفى الشكرُ نماءَ
أنت إن تأسَ على العُنقو د إلفاً واجباءَ
فأمِلْ عنهُ غيرةً واحتمل الرُّزء إباءَ
أيُّها المعتضد المنصور مُلِّيتَ البقاءَ

ويقول الأستاذ على أدهم ، ولكن هذه الدعوة التى أرسلها شاعره لم تُستجب ، فإن بقاءه لم يطل بعد ابنته العزيزة عليه ، والتى توفيت يوم الخميس وكان قد مضى يومان على سماع المقطوعة التى تغنى بها المغنى ، وتشاءم المعتضد منها وشيَّعها إلى القبر مساء يوم الجمعة ، وبعد انتهاء الاحتفال بالجنازة شكا ألمًا شديدًا فى رأسه وأصابه فى عقبه نزيف كاد يذهب بحياته وأراد الطبيب أن يفصده ولكنه تمرد على أمر الطبيب وأمره أن ينتظر إلى الغد التالى ، وزاد هذا التأخير حالته خطورة واشتد النزيف فى اليوم التالى وهو يوم السبت ثم فقد النطق ولفظ النفس الأخير ، وأتى شعراء المناسبات يعزون المعتمد فى والده المعتضد بالله مباركين خلافته من بعده ، ذاكرين فضل هذه الأسرة ، على البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، فهذا الحصرى يقول فى بيتين مشهورين معزِّيًا المعتمد فى وفاة والده متلاعبًا فيها بالألفاظ كى ينال حظوة لدى المعتمد ، أو يرجع ممتلىء الوفاض :

مات (مولانا) ولكنْ بَقِيَ الفرْعُ الكريمُ
فكأنَّ الميْتَ حيٌّ غير ان الضَّادَ ميمُ

ولابن زيدون قصيدة عصماء قالها فى تلك المناسبة منها :

هو الدهر فاصبرْ للذى أحدث الدَّهرُ ... فمن شيم الأحرار فى مثلها الصَّبرُ

ستصبر صبر اليأس او صبر وحشةٍ ... فَلا تؤثرِ الوجهَ الذى مَعَهُ الوِزْرُ

الم تَر انَّ الدِّينَ ضيم ذِمارهُ ... فلم تُغنِ انصارٌ عديدٌ هُمُو كُثْرُ

اانفَسَ نفسٍ فى الورى قَصَدَ الرَّدَى ... واخطرَ علْقٍ للهُدى افْقَد الدَّهرُ

أعبَّادُ يا أوفَى المُلوكِ عدًا ... عليكَ زمانٌ من سجيَّتِهِ الغَدْرُ

لئن كان بطنُ الأرض هُنِّىءَ أُنسُه ... بأنك ثاويهِ لقد أوحشَ الظَّهْرُ

هكذا نستشف من خلال هذا العرض الوجيز أن الحروب التى خاضها العرب فى الأندلس فى هذه الفترة لم تكن إلاَّ حروبًا أهلية ، ولم يكن هدفها سوى التغلب والسيطرة والاستيلاء على أكبر رقعة من الأرض فحكام أشبيليَّة يتطلعون وغيرهم إلى قرطبة وطليطلة ، وحكام طليطلة ومالقة أيضًا يتحينون الفرص للانقضاض على أشبيلية ، وأمراء غرناطة وبطليوس وغيرهما يتعرضون لهجوم المسلمين والفرنجة على السواء .

ولا أدل على تنكيل العرب والبربر والصقالبة ببعضهم بعضًا من قصَّة غزو قرطبة فى عهد المعتضد بالله ملك أشبيلية ، حينما استولى باديس بن حبّوس ملك غرناطة على مالقة ، وامتد نفوذه حتى قرطبة فعزَّ على المعتضد أن يسيطر البربر على عاصمة الأمويين فأرسل ابنه إسماعيل للاستيلاء على قرطبة، ولما أخفق اسماعيل فى المهمة استدعاه والده لتأديبه ، ثم حدث أن شقَّ الابن عصا الطاعة لوالده فكان جزاؤه أن قتل بيد أبيه ، وفى عهد المعتضد قويت حركة الاسترداد الأسبانية فقد استطاع فرناندو الأول ملك قشتالة وليون أن يوجه جيوشه لمحاربة مسلمى الأندلس وكانت تحدُو رجاله الروح الحربية والحماسة الدينية ، ولذلك أحرز انتصارات باهرة ولم يكن فى وسع أحد ملوك الطوائف أن يكون له ندًا ، أو أن يثبت أمام هجوم جيوشه ، ولم يجد المظفَّر(١) صاحب بطليوس ، والمأمون سيد طليطلة

(١) المعتمد بن عبَّاد للأستاذ على أدهم .

وحاكم سرقسطة - حيلةً يدفعون بها شرَّ فرناند ويستبقون بها نفوذهم سوى أن يقدموا له كميات وافرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة والاعتراف بسلطانه وأداء الجزية السنوية له .

وحينما هاجم جيش فرناندو أشبيلية فى عام ٤٥٥ هـ وعاث فى الأرض فسادًا، لم يجد المعتضد قوة توقف ذلك الجيش العرموم ، وتنقذ عرشه من الوقوع فى قبضة ذلك العدو الجبار ، فراح يتوسل له بأعز الهدايا وأثمن القربات ، راجيًا أن يبقى على ملكه ، وأن يتركه وشأنه لقاء جزية سنوية يقدّرها الغازى كما يشاء .

وأن الصَّغار أمام العدو الجبار والتزلف إليه والبكاء بين يديه ، جعله يرق قلبًا ويصغى أذنًا ويجيب المعتضد بالكفّ عن مداهمته ، على شريطة أن يدفع له جزية باهظة . وهكذا كانت خاتمة هذا الملك خاتمة محزنة كلها شجون وآلام واستسلام وخضوع رغم أنه كان أقوى ملك ظهر بين ملوك الطوائف فكثيرًا ما أذاق الإمارات الإسلامية الأخرى حدَّ سيفه ، وغالبًا ما أرغمها على الخضوع له والانصياع لأوامره، ثم دارت عليه الدائرة ، واستحكمت حلقاتها فى عهد ابنه المعتمد جزاءً وفاقًا للاستهتار والاستغراق فى حياة المجون واللهو .

دروس وعبر :

إن عصر ملوك الطوائف قد اتصف بسمات التفتت الإقليمى، والصراع الحزبى والطائفى ، والتكالب على الإمارة وحياكة المؤامرات الدنيئة للوصول إلى مركز السيطرة ، ويمكننا أن نصل إلى النقاط التالية من خلال عرضنا السابق الوجيز :

١ - يقول أحد المؤرخين : إن الذى تعلمنا من التاريخ هو أننا لم نتعظ بأحداثه وهذا المعنى يصدق على ما حدث فى الأندلس ، وما حدث بعد ذلك فى الشرق العربى فى عصور التاريخ المختلفة ، فقد كان للتفتت الإقليمى فى الأندلس أثره البالغ فى انزواء لواء العرب عن الأندلس ، كما كان للتفتت الإقليمى فى أواخر العصر العباسى أثره البالغ فى استيلاء الصليبيين على الشام وفلسطين وتهديدهم مصر والعراق والحجاز كما كان للتفتت الإقليمى فى الشرق العربى أثره البالغ فى التمهيد للاحتلال العثمانى ثم الاحتلال الفرنسى والإنجليزى والإيطالى .

٢ - إن هذا العصر امتاز بالانصراف عن حاجات البلاد الداخلية والخارجية ومتطلبات الدفاع ضد عدوها الذى يتربص بها وعدم السعى الجاد نحو وحدة شاملة بين تلك الإمارات المختلفة .

كما امتاز باهتمام الأمراء بأنفسهم وانغماسهم فى الملذات ومطارحتهم الشعراء وإدمانهم على الشراب ومجالس الندماء وابتنائهم القصور الأنيقة وغرسهم الحدائق الغنَّـاء .

٣ - إن حياة الرفاهية والاستغراق فى الملذات حببت إليهم الدَّعة والمجون وأنستهم رسالتهم الإنسانية كما أنستهم رسالتهم تجاه عدوهم الذى كان على أهبة الاستعداد للاقتصاص منهم .

٤ - كان الأمراء لا يهتمون بحالة إماراتهم قدر اهتمامهم بالتفاخر وحب الظهور ، فكانوا يغدقون على الشعراء آلاف الدنانير إذا ما سمعوا أبيات شعر صاغتها ألسنة الشعراء المتحذلقين .

٥ - إن العقاب الذى أنزله حكام أشبيلية بما حولهم من الإمارات الأخرى ردَّه الله فى نحورهم على يد الفونسو السادس وفرناندو الأول ملك قشتالة ثم على يد يوسف بن تاشفين ملك المرابطين الذى قضى على حكم آل عبَّاد .

الخلاصة : ما يمكن إيجازه عن عصر ملوك الطوائف :

ظلت بلاد الأندلس ولاية تابعة للدولة الأموية ، منذ فَتْحِها على يد طارق بن زياد مولى موسى بن نصير فى عام ٩٢ هـ ، وظلت كذلك حتى سقوط الخلافة الأموية فى دمشق فى عام ١٣٢ هـ - بعد هذا التاريخ استطاع أحد أمراء البيت الأموى أن ينجو بنفسه من العباسيين ، ويعبر إلى برِّ الأندلس ، ويقبض على زمام الأمور بها ، ويعلن أنها إمارة أموية مستقلة عن الخلافة العباسية فى بغداد ، ذلكم هو عبد الرحمن بن معاوية (عبد الرحمن الداخل) واستمر عهد الإمارة الأموية بالأندلس من عام ١٣٨ حتى عام ٣١٦ هـ (٧٥٥ - ٩٢٩ م) وفى عام ٣٠٠ هـ تولى حكم الأندلس أمير أموى قوى الشكيمة ، عظيم الهمة ، باذخ الآمال وهو الأمير

عبد الرحمن الناصر (عبد الرحمن الثالث) - فأعلن فى عام ٣١٦ هـ أنه أول خليفة أموى لبلاد الأندلس ومكث فى الحكم حتى عام ٣٥٠ هـ ، واستمر عهد الخلافة الأموية فى تلك البقاع حتى عام ٤٠٠ هـ حيث انفلت الزمام من آخر خليفة أموى بها وتحولت البلاد إلى دويلات ضعيفة هزيلة . وقد قامت هذه الإمارات فى تواريخ متلاحقة ، واستمرت فى هذا الاستقلال المشوب بالضعف والتمزق حتى قُضىَ عليها جميعًا بسيطرة المرابطين على شبه الجزيرة ، بعد معركة الزلاَّقة التى حدثت فى عام ٤٧٩ هـ وأهم هذه الدويلات[1] أو ممالك الطوائف التى حكمت الأندلس هى :

١ - مملكة سرقسطة : الثغر الأعلى : ويحكمها بنو هود .

٢ - إمارة قرطبة : وسط الأندلس : ويحكمها بنو جهْوَر .

٣ - مملكة طليطلة : الثغر الأوسط : ويحكمها بنو ذى النون (أو دنُّون) سقطت فى يد الأسبان فى عام ٤٧٨ هـ .

٤ - مملكة بطليوس : الثغر الأدنى : ويحكمها بنو الأفطس .

٥ - مملكة أشبيلية : غربى الأندلس : ويحكمها بنو عباد .

٦ - مملكة بلنسية : شرقى الأندلس : تداولها عدد من الحكام .

٧ - مملكة غرناطة : جنوبى الأندلس : ويحكمها بنو زيرى .

وهذا التفتت وذلك الضعف شجع ممالك الفرنجة الناشئة على تحطيم هذه المماليك الإسلامية ، واحدة تلو الأخرى . ولم ينقذ هذا الاكتساح المسيحى إلاَّ دخول المرابطين لتلك البلاد، ولقد وصف أحد الشعراء هذه الحال لهذه الدويلات ، وهو ابن رشيق القيروان فقال :

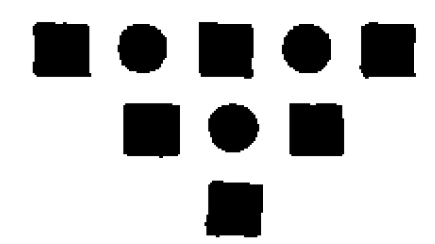
مما يزهِّدنى فى أرضِ أندلسٍ ... ألفاظ معتضدٍ فيها ومعتمدِ

ألقابُ مملكةٍ فى غير موضعها ... كالهرِّ يحكى انتفاخًا صولة الأسدِ

---

(١) التاريخ الأندلسى للدكتور / عبد الرحمن على الحجِّى ، ص ٣٥٥ .

إلاَّ أنه من الواجب ذكره - أن هذه الدويلات بقدر ضعفها عسكريًا فقد ذخرت بعلماء أجلاء ، وفقهاء وفلاسفة وأدباء مرموقين وشعراء نابغين ، وقد أبقى الزمان فيما أبقى من حضارة المسلمين فى ذلك الفردوس المفقود أخبار تلك النهضة الأدبية فى قرطبة وفى أشبيلية وغيرها من بلاد الأندلس فى خلال القرن الخامس الهجرى، فقد كانت تلك المدن ميدانًا مزدهرًا لأنواع الفنون والآداب ، وكانت فى سباق وتنافس فى هذا المضمار مع العواصم العربية فى المشرق والمغرب .



المعتمد بن عبّاد وأبو بكر بن عمَّار ومعركة الشطرنج

يقولون من شابه أباه فما ظلم ، ومثال ذلك ما تلمسه من قصة المعتضد ابن عبّاد وابنه المعتمد فقد نشأ المعتمد على يد والده واستقى من خصاله الكثير ونبغ فى الشعر مثله ، وزاد عليه وأكثر من المغامرات ومجالس اللهو أكثر من أبيه . وقد وفد على المعتمد شعراء الأندلس النابغون فاتخذهم ندماء وجعلهم أقرانه أينما يحل. وطارحهم القريض وجادلهم فيه ، فأكثر جداله معهم ، واستوزر من شاء منهم من أمثال ابن زيدون وابن عمار وابن وهبون . ونرى بعضهم لازم المعتمد بن عباد ملازمته لظله ، وعاش معه فى أيام سروره وعانى معه فى أيام نكبته ومن هؤلاء أبو بكر بن عمار وأبو بكر الدانى المعروف بابن اللبانة . وقد ألف الدانى كتابًا عن الدولة العبادية أسماه « الاعتماد فى أخبار بنى عباد » كما ألف كتابًا فى أخبارهم بعد نكبتهم سماه « نظم السلوك فى مواعظ الملوك » ضمنه مقطوعات وقصائد فى البكاء على أيام بنى عباد وانتثار نظامهم ، ومن الشعراء الذين حفلت بهم ندوات المعتمد الشاعر الصقلّى الكبير أبو محمد عبد الجبار بن حمديس الذى وفد عليه من صقلية فى سنة ٤٧٠ هـ بعد استيلاء النورمانديين عليها .

وقد ولد المعتمد بمدينة باجة فى سنة ٤٣٢ هـ وهى إحدى المدن التى تقع فى غربى الأندلس وقد خلف والده وهو فى التاسعة والعشرين من عمره ، وقد تمرس المعتمد على قيادة الجيوش وحكم الأقاليم وتمرن على ألعاب الفروسية وكتابة الشعر، وتزود من كتب الدين والفقه والأدب العربى ، وقد أثّر بعض الشعراء الذين لازموه تأثيرًا بعيد الغور فى تكوين شخصيته الشعرية ، ومن أبرزهم أبو بكر بن عمار الذى كان يكبره بتسع سنوات . وقد نشأ ابن عمار فى شِلْب إحدى مدن الأندلس الغربية

ولم يكن هذا الرجل على قسط من الحُظوة والثراء وإنما نشأ فقيرًا بائسًا ، ولم يجد وسيلة للتكسب سوى قول الشعر فراح يمتدح كل من يتفضل عليه بشىء يقتات به أو يسد به رمقه ، ويذهب سغبه ، حتى أنه كان يمتدح من يجود عليه بعلف دابته التى أصبحت هيكلاً عظميًا من شدة الجوع والعطش . وكثرة الترحال والتجوال من بلد إلى أخرى .

ولم يزل دأب هذا الشاعر على ما نشأ فيه من بؤس وفقر وتعاسة وحرمان إلى أن وفد على المعتضد بالله ملك أشبيلية فمدحه بقصيدته المشهورة التى مطلعها :

أدرِ الزُّجاجة فالنسيمُ قد انبَرَى والنَّجمُ قد صَرف العِنانَ عن السُّرى

فأعجب به ذلك الملك وأجازه ودعاه إلى المكوث فى بلاطه مثل غيره من الشعراء المقربين « وأتاح له ذلك فرصة الاتصال بالمعتمد وهو ناشىء نزَّاع إلى الأدب أوتى الموهبة الشعرية ، وقد توثقت بينهما الصداقة . وكان ابن عمار على ما يبدو شائق الحديث جذَّاب الشخصية طبًا باستهواء النفوس واختلاب الألباب وقد عركته الحوادث وصقلته التجارب فلما ولِىَ المعتمد الحكم فى مدينة شِلب استوز ابن عمار وأولاه ثقته ووكَّل إليه أموره » .

ولما توثقت الصلة بينهما ولازمه ابن عمار ملازمة الظِّل لصاحبه ، حدثت قصة طريفة أوردتها كتب الأدب ، وذلك أن ابن عمار كان يرقد مع المعتمد على فراش واحد بعد أن أمضيا سهرة ممتعة بين الغير وكؤوس الشراب وصحاف الورد وطرائف الأحاديث والأشعار . وفجأة استيقظ ابن عمار مذعورًا على صوت هاتف يقول له : لا يغررك ابتهاج صاحبك بك فإنه قاتلك لا محالة فاستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ونام ، فجاءه للمرة الثانية ثم الثالثة . وبعدها هُرع ابن عمار إلى ناحية من القصر يريد الفرار فلم يستطع إلى ذلك سبيلاً . فوجد حصيرًا بجانب أحد الممرات الداخلية فخلع ثيابه وطوى نفسه فيها ، واستيقظ المعتمد متفقدًا صاحبه فلم يجده فأسرع مناديًا خدَم القصر أن يعثروا على صاحبه ، الذى لا يدرى من أمره شيئًا وعبثًا حاولوا العثور عليه ، حتى إذا كان المعتمد عليه مقربة من تلك الحصير فأحس بحركة داخلها ولمَّا شدها إليه ألفَى صاحبه يرتعد خوفًا واضطرابًا.

ولما سأله عما دفعه إلى ذلك قصَّ عليه ما حدث له أثناء نومه فقال له : إنها أضغاث أحلام هل تظن أننى أقتل نفسى فأنت عندى كنفسى التى بين جنبىَّ .

الاستيلاء على قرطبة (من قبل بنى عباد حكام أشبيلية) :

كانت قرطبة عاصمة الخلافة الأموية فى الأندلس فكانت جميع الولايات على اختلاف أجناس ساكنيها وحكامها تتبع تلكم العاصمة ، وتُجدِّد لها عهد الولاء من حين إلى آخر . حتى دالت دولة المنصور بن أبى عامر الذى حكمها باسم الخليفة الأموى ، وبعد أن آل زمام الحكم إلى خلفاء ضعاف لا يقدرون على شىء مما ورثوا ، ولم تؤهلهم حداثة سنهم لتسنم كرسِّى الحكم ، فاستطاع ذلك الحاجب أن يكون حاكمًا بأمره وباسم الخليفة هشام بن الحكم المستنصر ، وبقيت الخلافة الأموية مهيضة الجناح طيلة حكم الأسرة العامرية ، ثم اضمحل سلطانها رويدًا رويدًا ، بعد انتهاء هذه الأسرة . ومهد هذا الضعف والاستكانة لعناصر الثورة المضادة أن تظهر على مسرح الأحداث ، فظهر جليًا صراع رهيب بين العرب والبربر والصقالبة . واستمرَّ هذا الصراع على أشده حتى زوال الخلافة الأموية عن قرطبة . حينئذ تمزقت الدولة الإسلامية فى الأندلس أشلاء متناثرة وأصبحت دويلات هزيلة لا حول لها ولا قوة ، مما جعلها لقمة سائغة أمام عدوها الجبار الذى كان يتحيَّن الفرص للانقضاض عليها .

أما قرطبة فقد أعلنت نظامًا جمهوريًا لحكمها حيث تولَّى أمر إدارتها عالم فاضل من أبنائها يدعى أبو الحزم جهْوَر بن محمد بن جَهور ، ثم تولى بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور ، وفى أثناء حكم أسرة بنى جهور طمع فى قرطبة الطامعون وتطلعوا إلى .. الاستيلاء عليها ومن أبرز هؤلاء الذين حداهم طموحهم إلى تحقيق ذلك المأرب ، اسماعيل بن ذى النون وابنه يحيى صاحب طليطلة ، وكان قبلهما بنو حمُّود الأدارسة حكام مالقة ، فقد حاولوا مرارًا الاستيلاء عليها وعلى أشبيلية وأماكن كثيرة ، ولكن قوتهم لم تلبث إن انهارت أمام صمود أهل قرطبة بقيادة بنى جهور وأهالى أشبيلية بقيادة الأسرة العبادية .

وبعد أن تغلب القاضى أبو القاسم مؤسس دولة بنى عبّاد على البربر وعلى بنى حمود ، توجه نحو قرطبة للاستيلاء عليها « ولما وصل القاضى إلى أبواب قرطبة وجدها مقفلة فى وجهه ، واضطر إلى الارتداد لأنه لم يكن معه قوة كافية للاستيلاء على مثل هذه المدينة الكبيرة » .

وفى عهد الخليفة المعتضد بالله حاكم أشبيلية زادت رقعة تلك الولاية على حساب غيرها ، من الولايات الإسلامية ، كما استطاع أن يستأصل شأفة البربر من جميع بقاع الولاية . وتطلع إلى الاستيلاء على قرطبة حينما أرسل جيشًا جرارًا بقيادة ابنه اسماعيل لهذا الفرض وبعد أن كان اسماعيل قد اطمأن نفسًا بالاستيلاء عليها فاجأه قادة الولايات المتحالفة ضده وأخرجوه منها ، فولى هاربًا فاستشاط أبوه غضبًا واستدعاه لأمرٍ هام إلا أنه فطن إلا أنه لن يفلت من قبضة والده فاستعصى عليه ، إلاَّ أنه تمكن من إعادته إلى أشبيلية ذليلاً مدحورًا حتى اغتاله بيده ، بعد أن تكشف له سوء نية ابنه .

أما الخليفة المعتمد على الله العبادى (ابن المعتضد) فقد كان يرنو إلى تحقيق ما كان يصبوا إليه والده من قبل ، إذ كانت تحدوه آمال كبار ، كثيرًا ما حلم بها ومنّى نفسه وهنأ أبناءه من بعده بها ، وكثيرًا ما حدّثهم بالخير الذى ينتظرهم بعد هيمنتهم على سائر الولايات الإسلامية فى الأندلس ، وقد تطلُّعَ المعتمد إلى قرطبة تطلع من يراها درة العقد لدولة قوية تضم سائر الولايات الأخرى .

وقبيل وفاة حاكم قرطبة أبى الوليد محمد بن جهور قسم شئون البلاد بين ولديه عبد الرحمن وعبد الملك ، وقد آثر ابنه الأصغر عبد الملك توليته أمر الجند بالإشراف على أعطياتهم ، وقيادتهم أثناء الحروب وتقوية الحصون ، وتجريدهم فى البعوث ، ووضع فئات منهم لحفظ الأمن وغير ذلك ، أما عبد الرحمن فقد ولاَّه الإشراف على جباية الضرائب والإشراف على أهل الخدمة . وهم موظفو الدولة والتوقيعات الدبلوماسية وتدبير نفقات الدولة .

ويقول الأستاذ على أدهم (وكان المدبر الحقيقى لدولة بنى جهور رجل يدعى بابن السقاء ، وكان هذا الرجل حازمًا قوى الشكيمة ، شديد الضبط لسلطانه ، وقد

استطاع بقوة شخصيته أن يحسم الأطماع عن قرطبة ويخيف الأنداد والمتنافسين والحسَّاد ، وكان المعتضد يتطلع إلى امتلاك قرطبة . ولذلك كان يرقب أحوالها وحاول أن يغتنم الفرصة الملائمة للوثوب عليها وضمها إلى أملاكه ، وكان يجد فى يقظة ابن السقاء ونجاح سياسته عقبة كأداء فى طريق تحقيق أمنيته ، فلجأ إلى المكر والحيلة ، ودس إلى عبد الملك الذى كان يعرف تهوره واندفاعه من يوغر صدره على ابن السقاء، وبذلك اتسعت هاوية الخلاف بين عبد الملك وابن السقاء .

فوثب عليه وقتله .. « وقد أضرَّ قتل ابن السقاء بالدولة القرطبية ضررًا بليغًا فقد كان الرجل يبعث الهيبة والاحترام فى نفوس رجال الدولة جميعهم » .

وحينما انتقل الحكم فى الأسرة العبادية إلى المعتمد بن عباد سنة ٤٦١ هـ أصبح لزامًا عليه أن ينفذ أهداف والده من قبله ، وأهدافه التى تعتبر امتدادًا لأهداف آبائه ، وذلك حتى يتسنى له الهيمنة على سائر بلاد الأندلس وذلك باستيلائه على قرطبة ، ومهدت له الظروف الراهنة التى كانت تعيشها قرطبة أن يحقق ذلك المأرب. فالمتولى لأمرها كان شابًا متهورًا وهو عبد الملك بن محمد ابن جهور ، لا يستطيع أن يحتاط لما سوف يداهمه من ويلات من جرَّاء تهوره . كذلك فإن أبناء ذى النون أصحاب طليطلة ، ما فتئوا يمنون أنفسهم بالاستيلاء على قرطبة « فلما جاء ابن ذى النون بجيشه وضرب الحصار على المدينة لم يجد عبد الملك عنده من الأنصار والمؤيدين الذين يستطيع بهم أن يرد الهجوم ويقاوم الحصار وينقذ حكومته من السقوط والدمار ولم يجد بدًا من استمداد المساعدة من المعتمد »

ولعب المعتمد لعبة الثعلب الذى احتكمت إليه قطتان فى قسمة غنيمتهما فصار يلتهم منها شيئًا فشيئًا بحجة تحقيق الموازنة بين القسمتين حتى حرمهما مما احتكمتا إليه فيه . وحدث ذلك بمساعدة المعتمد لعبد الملك بن جهور ضد يحيى بن ذى النون فلما انتهى الأمر تظاهر جيش المعتمد بالتهيؤ لمبارحة البلاد إلى أشبيلية ثم ما لبث أن انقضَّ على حاكم قرطبة فى صبيحة يوم ارتحاله وأوثقه كتافًا وقبض على إخوته وأهل بيته جميعًا ، وحملهم إلى جزيرة شلطيش حيث بقوا فيها بقية حكم المعتمد بن عباد .

ويشاء القدر أن يلعب يوسف بن تاشفين ملك المرابطين نفس اللعبة التى لعبها المعتمد مع حاكم قرطبة ، شاء القدر أن يلعب هذا الغازى نفس الدور مع المعتمد نفسه ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ إذ أنه انقض عليه انقضاض العقاب الجارح بعد أن نصره فى معركة الزلاقة وحمله وأسرته إلى أغمات حيث بقوا فيها بقية حياتهم .

ويقول المعتمد بن عباد بعد استيلائه على قرطبة مبتهجًا بهذا الفتح :

مَن للملوك بشأوِ الأصيدِ البطلِ	هيهاتَ جاءتكمُ مَهْديَّةُ الدولِ
خطبتُ قرطبةَ الحسناءَ إذ منَعَتْ	مَن جاء يخطبها بالبيضِ والأسلِ
وكم بَدَتْ عاطلاً حتى عرَضْتُ لها	فأصبحت فى سرِىُّ الحَلْى والحُلَلِ
عُرس الملوكِ لنا فى قصرِها عُرُسٌ	كلُّ الملوكِ بهِ فى مـــأتم الوَجَلِ
فراقبُوا عن قريبٍ لا أبَا لكُمو	هجومَ ليثٍ بِدِرْعِ البأس مشتَمِلِ

غير أن المعتمد لم يكد يوطِّد قدميه فى تلك الحاضرة حتى فُوجِىء بما لم يكن فى الحسبان ، فعقب استيلائه عليها ، أوكل الأمر فيها إلى ابنه عبَّاد وهو من حظيَّتهِ الرَّميكيَّة ، ولم يطلُ حُكمه فيها ، إذ فاجأه رجل فتَّاك شديد الضراوة ، يدعى ابن عكاشة فاجأ عباد على حين غفلة منه برجاله الذين جُبِلوا على سفك الدماء ، وإشاعة الفوضَى فأحاطوا به بقصره وقتلوا حراسه ، وأيقظوه من نومه فصارعهم حتى صرعوه ومثلوا بجثته ، وراحت الغوغاء تطوف فى شوارع المدينة معلنة أنَّ الأمر آل إلى المأمون صاحب طليطلة ، وأنه ينبغى على جميع من فى قرطبة أن يقدموا يمين الطاعة لذلك العاهل الجديد . وجاء المأمون إلى قرطبة فرحًا بهذا الفتح الذى حققه له ابن عكاشة ، إلاَّ أنه كان يعتقد فى سريرة نفسه أن « من اجترأ على الملوك لا يصلح للمُلك » وعلم ابن عكاشة بذلك فدَسَّ له السمَّ فمات من حينه .

ويقول الأستاذ على أدهم « وحزن المعتمد على ابنه حزنًا شديدًا حينما بلغته أنباء قرطبة وألهاه الحزن وتقدير جميل الرجل الذى خلع رداءه وغطَّاه به عن الظمأ إلى الإنتقام وتمثل بالشاعر أبى خراشَ الهُذَلىّ فى رثاء ابنه :

ولـــم أدرِ من ألقـــى علــيــه رداءَهُ   على أنَّه قد سَلَّ عن ماجدٍ محضِ

ولم يســتطع المعتمد الثأر لابنه والانتقام من ابن عكاشة واســترداد قرطبة إلا بعد ثلاثة أعوام » .

معركة الشطرنج : (العبَّاديون والفونسو السادس) :

وبعد أن عاود المعتمد فتح قرطبة لم يقف توسعه إلى هذا الحد ، وإنما استطاع الاستيلاء على الأراضى التابعة لملكة طليطلة بين نهر الوادى الكبير ونهر وادى آنه . غير أن قوة المعتمد التى تضاءلت أمامها قوى الأمراء المسلمين ، كانت تقابلها قوة أخرى تتضاءل أمامها قوة المعتمد ، شأنه شأن غيره من الأمراء وكانت تتمثل تلك القوة فى الفونسو السادس ملك قشتالة وليون ، الذى استطاع أن يستولى على ملك أخويه غرسيَّة وسانكو ، وأن يرغم المسلمين على دفع الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ، بعد أن كان يدفعها لعاصمة الأمويين فى الأندلس ، شأنه شأن غيره من بقيَّة الممالك المسيحية . ولما زاد خطر الفونسو وعظم بأسه وهدد بالاستيلاء على أشبيلية التى كانت أكبر ولاية إسلامية أوجس المعتمد فى نفســه خيفة منه ، وراح يســتدعى ابن عمار ليشير عليه ماذا يفعل أمام هذا الخطر المحدق بمملكته ، ويقول الأديب المؤرخ على أدهم « وكان ابن عمار يعرف الفونسو السادس معرفة جيدة ، فقد زار بلاطه وبلاط غيره من ملوك شبه الجزيرة ، وكان الفونسو كذلك يعرف ابن عمار ويقدِّره ، وإذا ذكر ابن عمار عنده يقول عنه (هو رجل الجزيرة) وكان ابن عمار يعرف طموح الفونسو ومطامعه ، ولكنه كان يعرف كذلك نزواته ونواحى ضعفه ، وعمل ابن عمار على استغلال هذه النواحى الضعيفة فى دفع الهجوم على أشبيلية ، وبدلاً من إعداد جيش للمقاومة وتنظيم الاستعداد للدفاع أمر بإعداد رقعة شطرنج غاية فى الإتقان » .

وهذه الحيلة التى لجأ إليها ذلك الشاعر الداهية كانت سببًا فى تجنيب الدولة العباديَّة ويلات الحرب مع عدوها الجبار وكفُّ أذاه عن بلاد المسلمين . فإن معرفة ابن عمار لنزوات ذلك القائد جعلته يُعمِل فكرهُ ليوقعه فى الفخِّ الذى جعله أسيرًا فى قبضته ، دون أن يكلِّف دولته عناء القتال وبناء الحصون والقلاع .

وهذه الحيلة التى توصل إليها جعلته يفكر فى نزال عدوه فى ميدان يعرف أنه لا يغلبه فيه ، ألا وهو ميدان الشطرنج الذى كان يجيده إجادة فائقة ، ويذعن المعتمد ابن عباد لهذا الطلب ، فيحمل ابن عمار تلك القطعة النادرة من (الشطرنج) ويذهب تلقاء الفونسو السادس ثم ما يلبث أن يكشف عن هذه القطعة أمام رجاله الذين جاؤا ليصطحبوه إلى قائدهم ، فيترامى الخبر إليه ، وما إنْ هم القائد بلقائه حتى سأله عن أمر تلك القطعة النفيسة التى يحملها بين طياته ، فيبرزها له فيعجب بها أيَّما إعجاب ، ويسأله من أين لك هذه القطعة النفيسة ؟ التى صيغت بإتقان وشُكِّلت على ألوان ، وأنت تزهو بها كما تزهى الملوك بالتيجان ، فقال له ابن عمار : هى لك يا سيدى على شريطة أن تلعب معى فتغلبنى ، فإن تغلبت عليك فلى حكمى .

ولما سأله عن الشرط الذى سينازله عليه لم يصارحه به ، وإنَّما أصرَّ على عدم التصريح ريثما ينجلى النزال بينهما فى هذه اللعبة ، ولما شاور القائد مستشاريه فى ذلك الأمر أشاروا عليه بالقبول ، لأنهم كانوا يعتقدون اعتقادًا راسخًا بأن مَلكهم لا يُجارى فى لعبة الشطرنج . فنازله ابن عمار فى ذلك الميدان وتصارعا صراعًا فنيًا عنيفًا ، وانكشف الموقف عن انتصار ابن عمار انتصارًا باهرًا . وهنالك سأله الفونسو قائلاً : والآن ما حكم رجل الجزيرة الذى لم يصرِّح به من قبل ، وقد آن له أن يبوح به ، فقال له ابن عمَّار على الفور : حكمى أن تجمع جنودَك المبثوثة فى جميع أنحاء البلاد ، وترحل إلى بلادك إن كنت ممَّن يُوفون بعهدهم إذا عاهدوا . هنالك ذَهل الرجل من حكم ابن عمار ، ورأى أنَّها هزيمة منكرة له وحدثته نفسه بأن يرجع فى كلامه ، لولا أن رأى أنَّه من العار أن يرجع الملوك فى كلامهم ، ولم يجعله يفكر فى رجوعه فيما اتفق مع ابن عمار عليه إلاَّ لوم أصحابه له ، غير أنَّه رأى من الشرف والكرامة أن يحتفظ بعهده مع صاحبه ، ولكنه اشترط أن يدفع له ضعف الجزية التى كانت تدفع له آنفًا حتى تجلو جنوده عن البلاد .

مقتل ابن عمار :

يقول الأستاذ ثروت أباظة فى كتيِّب له عن ابن عمار : « أحسَّ ابن عمار بعد أن خلَّص البلاد من خطر الغزو أنه أصبح دعامة هذه البلاد ، وأحسَّ أنه داهية فى السياسة ، يتلاعب بالملوك ويردُّ بدهائه الجيوش عظيمةً ما عظمت تلك الجيوش ..

ثم أحس بعد فترة من الوقت أن ذكاءه لابد أن يجد شيئًا ينشغل به ، فما تعوّد أن يراح إلى هدوء وما كانت النساء مأربًا لحياته (كما يرى الأستاذ ثروت أباظة) وهو لم يصطنع الخمر والجلسات المازحة إلاَّ إرضاء للمعتمد ، ووافت ابن عمار أنباء عن مُرسيَّة المجاورة لأشبيلية ، والمستقلة عنها فى الحكم ، وكان مؤدَّى هذه الأخبار أن مرسية تفتقر إلى الجيش ، وأن حاكمها على غناه لا يملك خيلاً ولا رجلاً ، وكان ملك مرسية فى ذلك الحين هو أبو عبد الرحمن بن طاهر . ينتمى إلى أصل عربى ويملك أموالاً ضخمة لم تلهه عن ثقافة واسعة ، فكان حصيفَ الرأى قويم الفكرة وكان أيضًا ضعيف الجيش منكسر الشوكة ، وكان يقيم بجوار مرسية كونت يدعى الكونت دى برشلونة (ريمون بورنجيه) وكان ذا قوة وأيدٍ وكان صديقًا لابن عمار » .

ويعمل ابن عمار بأساليب ملتوية لجعل مرسية ولاية خاضعة لأشبيلية اسمًا ، ومملكة خالصة له فى حقيقة الأمر . فيذهب إليها سرًا ليوغر صدور من تخوَّل لهم أنفسهم أنهم أحقُّ بالسلطة من غيرهم وأنه من اليسير تبديل أحوالهم التعسة إلى خفض العيش وراحة البال ، إذا ما نفَّذوا سياسة التخريب التى رسمها لهم ابن عمار. ثم يُولِّى وجهه شطر الكونت ريموند صاحب برشلونة ، ليستعين به على غزو مرسية ، متَّخذًا فى سبيل تحقيق هذه الغاية طرقًا خبيثة غادرة . فأقنع المعتمد بأن مرسية ستكون ولاية تابعة لمملكته ، وحبَّب له ما سيعود عليه من الخير بعد الاستيلاء على مرسية ، ثم أقنع الكونت ريمون بأن يقدم له عشرة آلاف مثقال ذهب لقاء قيامه بمساعدته فى استيلاء أشبيلية عليها ، وتأكيدًا لتنفيذ هذه الاتفاقية أرسل الكونت ابن أخيه رهينة لدى المعتمد ، كما وعد ابن عمار بأن يقدم له ابن المعتمد (الرشيد) رهينة لدفع المال المتفق عليه .

ويقول الأستاذ على أدهم « وتقدَّم جيش أشبيلية ولقى جيش الكونت ريموند وهاجم الجيشان ولاية مرسية ، وانصرم الأجل المحدد ولم يصل المال إلى صاحب برشلونة ، وتحرك المعتمد إلى قرطبة ثم إلى جيَّان ومعه الرهينة على عادته من التؤدة وأبطأ على ريموند ما عوقد عليه واعتقد أن ابن عباد قد مكر به فقبض على

ابن عمار ، وعلى الرشيد بن المعتمد وقيدهما وحاول جيش أشبيلية أن يخلصهما ولكنه عجز عن ذلك ونكص على أعقابه مفلولاً » .

ثم أطلق سراح ابن عمار مع احتفاظ الكونت بالرشيد رهينة لديه فى الوقت الذى أطلق فيه صراح ابن أخى الكونت ، فذهب ابن عمار ليأتيه بمال قدره ثلاثون ألف مثقال ، بعد أن كانت عشرة آلاف مثقال ، ولم يستطع ابن عمار المثول بين يدى المعتمد وإنَّما أرسل له هذه الأبيات لعلمه أنه سريع التأثر بالأشعار التى يصوغها له فى قالب التمجيد والتعظيم والتزلف إليه ..

أُصدِّقُ ظنِّى أمْ أُصيخُ إلىَ صحبِى ... فأمْضِى عزمِى أم أعوجُ إلى الركبِ

واصبحتُ لا أدرى افِى البعد راحتى ... فأجعله حظِّى أم الحظُّ فى القُربِ

إذا انْقَدْتُ فى أمرى مشيتُ مع الهَوى ... وإنْ أتعقّبْهُ نكصتُ على عقْبِى

على انّنى أدرى بأنّك مؤثرٌ ... على كُلُّ حالٍ ما يزحزح من كَربِى

أهابُك للحقُّ الذى لكَ فى دمِى ... وأرجوكَ للحُبُّ الذى لكَ فى قلبِى

أيُظلِم وجهى كذا قمرُ الدجى ... وتنبو بكفى صفحة الصارم العضب

حنانيك فيمن انتَ شاهِدُ نُصحِهِ ... وليس لَه فى غير انتصاحك مِنْ حسْبِ

وما جئتُ شيئًا فيه بغىٌّ لطالبِ ... يضافُ به رأىٌ إلى العجزِ والعُجْبِ

سوى انّنى اسلمْتَنِى لملمَّةٍ ... فلَلْتُ بها حدِّى وكسَّرتُ من غربِى

وما اغربَ الأيامَ فيما نضَتْ بهِ ... تُرينَى بُعدى عنك آنسَ من قُربِى

امَا إنّه لولا عوارفُك التى ... جرَتْ جريان الماء فى الغُصُنِ الرَّطبِ

لما سُمْتُ نفسِى ما اسُوم من الأذى ... ولا قُلتُ إنَّ الذنب فيما جرَى ذنبِى

سأستمنحُ الرحمنَ مِنْكَ ضراعةً ... واسأل سُقيًا من تجوزُك العذْبِ

فإنْ نَفَحَتْنِى من سماتك حَرْجَفٌ ... سأهتف يا بردَ النسيم على قلبِى

وأثرت هذه الأبيات فى نفس المعتمد فردَّ عليه بالأبيات التالية مشجِّعًا إيَّاه على القدوم فى غير خوف أو تردد :

تقدمْ إلى ما اعتَدْتَ عندى على الرحبِ ورِدْ تلقَك العُتْبى حجاباً من العَتْبِ
مــتى تلقَنى تلقَ الذى قــد بلوتَهُ صَفُوحاً عن الجانى رؤفاً على الصَّحْبِ
سأُوليك منِّى ما عهِدْتَ من الرِّضا واعرِضُ عمَّا كان إنْ كانَ من ذنبِ
فما أشعرَ الرحمنُ قلبىَ قسوةً ولا صار نسيانُ الأذمَّة من شَعْبى
تكلَّتُــــــــه ابغِى به لكَ سَلْوَةً فليس يُجيد الشِّعْرَ مشتَرِكُ اللُّبِّ

ثم طلب ابن عمار من المعتمد أن يقدم للكونت ريموند ذلك المبلغ الباهظ من المال حتى يطلق سراح ابنه الرشيد ولمَّا كان هذا المبلغ ليس فى مقدوره تقديمه فقد عهد إلى سباكيه بخلط الذهب بمعادن أخرى فقدمت للكونت ولم يستطع التعرف على ما فيها من زيف فأطلق سراح الرشيد فعاد عزيزًا بعد ذل الأسر وعبوديته .

وهكذا اطمأن ابن عمار إلى صفح المعتمد عنه وأيقن أنه لا يستطيع أن يحقِّق شيئًا دون التعويل عليه والرجوع إليه وعاودته فكرة الاستقلال بولاية من الولايات التى تتاخم حدود الدولة العبادية، ولعله اهتم بوجه خاص بإمارة مرسية مرة أخرى ، فراح يزين للمعتمد ما وراء فتحها من خير ويهوِّن عليه أمر الاستيلاء عليها ويطلب منه أن يمده بالكثير من الديباج والخزِّ حتى يستنفر أهل مرسية لممالأته ضد حاكمها أبى عبد الرحمن بن طاهر ، ولم يمتنع المعتمد لمطلب ابن عمار رغم أنه كان قد تسرب إليه شىء من الشك فى سريرة صاحبه فودَّعه قائلاً : سرْ إلى خيرة الله ولا تظنَّ أنى مخدوع ، فيردُّ عليه ابن عمار : لست بمخدوع ولكنك مضطر ، وأغضى المعتمد عن هذه العبارة إغضاء من لم يفهم معناها . وسار ابن عمار حتى قدم قرطبة فانضم إليه الخيَّالة من جند المدينة ثم توجه تلقاء مرسية فاجتاز حصن ، وكان حصنًا منيعًا يتولى حراسته رجال بواسل يقودهم عبد الله بن رشيق ، فقابل ابن عمار على مقربة من الحصن ثم دخلاه مستعرضين حرس ابن رشيق ويقول الأستاذ على أدهم : « وقصد ابن عمار مرسية ومعه صديقه الجديد (أى ابن رشيق) الذى أولاه ثقة كبيرة لم يكن الرجل أهلاً لها واقتروب الجيش من مدينة

« مولا » فحاصرها ولم يطل حصارها لأنها ما عتمت أن سلمت ، وكانت مدينة مرسية تعتمد فى تموينها على منطقة حول « مُولا » ولذلك كان تسليم « مولا » ضربة قاضية على مرسية ، وأبلغ ابن عمار المعتمد أن المدينة موشكة على السقوط ، وقد أصاب ذلك فإن أبواب مرسية فتحت لابن رشيق بطريق الخيانة وألقى بابن طاهر فى السجن ، وأخذت البيعة للمعتمد ، ثم رجع ابن عمار من لدى المعتمد بالهدايا والألطاف إلى مرسية ، لتوزيعها على الخونة الذين مالأوه ضد ابن طاهر ، وما زال بها حتى تكشفت نيَّاته للمعتمد ، حينما بلغه أنه قد اتخذ من الأبَّهة والصولجان ما لم يتخذه سيده لنفسه ، فأرسل إليه المعتمد بهذين البيتين :

تغيَّر لى فيمن تغيَّرُ حارثُ … وكلُّ خليل غيَّرته الحوادثُ

أحارثُ إن شوركْتُ فيكَ فطالما … نعِمنا وما بينى وبينك ثالثُ

فأجابه ابن عمار بقصيدة يقول فيها :

لك المثل الأعلى وما أنا حارثُ … ولا أنا ممَّن غيرته الحوادِثُ

ولا شاركَتهُ الشمس فيَّ وإنَّه … لينأى بحظِّى منك ثانٍ وثالثُ

فديتك ما للبِشْر لم يسْرِ بَرْقُه … ولا نفحت تلك السجايا الدمائثُ

أظنُّ الذى بينى وبينك أذهَبت … حلاوتَه عنِّى الرجال الخبائثُ

ثم حدث أن حاول ابن عمار استرضاء ابن طاهر وشراء مودته بعد اعتقاله إلاَّ أنه رد رسوله خائبًا وسمع ابن عمار عبارة ذكرته بأيامه السولف ، حينما جاء ابن طاهر رث الثياب ، لا يملك سوى جبَّة وقُلنسوة وأثناء هذه المسيرة لاقى العناء الطويل ، فكان هذا الرد إيذانًا بتشديد النكير عليه وتعذيبه على يد زبانيته ، ولما ترامت الأخبار إلى ابن عبد العزيز صاحب بلنسية وكان صديقًا حميمًا لابن طاهر ، عزَّ عليه ذُلَّ هذا الأمير على يد ابن عمار ، فأعمل فِكره على تخليصه من الأسر وإحاطته برعايته ، وحدَث ذلك حينما هرب ابن طاهر من معقله إلى بلنسية ، فلقيه صاحبها بالبشر والترحاب ، وأراد ابن عمار أن يقتصَّ من حاكم بلنسية لمساعدته غريمه على الفرار ، فأرسل قصيدة إلى أعوانه يحرضهم فيها لإثارة الأهالى ضد حاكمها يقول فيها :

بشَّر بلنسيةَ وكانت جنَّةً ... أن قد تدلَّت فى سواءِ النَّارِ
غدرَتْ وفيًا بالعهود وقلَّما ... عثر الوفىُّ سَعَى إلى الغدارِ
يا أهلَها من غائب أو حاضر ... وقطينَها من راسخٍ أو طارى
جاروا بنى عبد العزيز فإنهم ... جرُّوا عليكم أسوأ الأقدارِ
ثوروا بهم متأولين وقلِّدوا ... ملكًا يقوم على العدوِّ بثارِ

ثم يتحدث عن نفسه فيقول :

كيف التفلُّت بالخديعة من يدَىْ ... رجلِ الحقيقةِ من بنى عمارِ
رجلٍ تطعَّمه الزمانُ فجاءه ... طرفين فى الإحلاء والإمرارِ
كشَّافِ مظلمةٍ وسائس أمَّة ... نفَّاعِ أهل زمانه ضرارِ
شرَّابِ أكواسِ المُدام وتارةً ... شرابِ أكواسِ الدَّم المهدارِ
جرارِ أذيال الفنا ظُنُّوا به ... قد زاركم فى الجحفلِ الجرارِ

وسمع المعتمد بهذه القصيدة وكان قد اشتد غضبه على ابن عمار لعصيانه أمره وإهماله طلبه فنظم الأبيات التالية معرِّضًا بابن عمار وقد تجلت فيها براعة المعتمد فى الهجاء الساخر فبدأها ببيت ابن عمارة .

كيف التفلُّت بالخديعة من يدَىْ ... رجل الحقيقة من بنى عمار

ثم قال :

الأكثرين مسوَّدًا ومملكًا ... ومتوَّجًا فى سالف الأعصارِ
المُكثِرين من البكاء لنارهم ... لا يوقدون بغيره للسارى
والمؤثرين على العيال بزادهم ... والضاربين لهامة الجبَّارِ
إن كُوثروا كانوا الحصى أو فاخروا ... فمن الأكاسر من بنى الأحرارِ
يُضحِي مؤمِّلهم يؤمِّلُ سيْبَه ... ويبيت جارُهمو عزيزَ الجارِ

وقد أدخلت هذه الأبيات على ابن عبد العزيز صاحب بلنسية سرورًا أيما

سرور، وبقدر هذا السرور كان غضب ابن عمار من وقعها فى أذنيه ، وترديدها على شفتيه ، فتغلبت فيه نوازع الشر إلى أن يهجو المعتمد هجاء مقذعًا لا حياءَ فيه ، ولا عرفان بالجميل الذى أسداه له ، بل قلّب له ظهر المجن وجاهره بالمعصية قائلاً :

الاَ حَىٍّ بالقُـرب حـيًـا حـلالا	أناخـوا جِمـالا وحـازوا جَـمـالا
وعـرِّجْ (بيُـومين)[1] أمَّ القُـرى	ونَمْ فـعـسى أن تراها خـيـالا
لتـسـألَ عن سـاكنيـهـا الرَّمـادَ	ولم ترَ للنار فـيـهـا اشـتـعـالا
فـيـا عـامـرَ الخـيل يا زيدَها	مَنَعْتَ القِـرى وأبَحْتَ العـيـالا
أراك توري بحـسـب النسـاء	وقِـدْمًـا عـهِـدتك تهـوَى الرِّجـالا
اتذكُـر أيَّامَنا فى الصِّـبـا	وأنت إذا لُحـت كُنت الهـلالا
أعـانِقُ منك القـضـيبَ الرَّطِيبَ	وأرشف مِنْ فـيـك مـاءَ زُلالا

واستطاع أحد خاصّته من اليهود أن يحصل على هذه القصيدة بخط يده ، ويحملها إلى ابن عبد العزيز ويرسلها ابن عبد العزيز بدوره إلى المعتمد بن عباد ، فتكون هذه القصيدة سببًا لإنهاء حياة ابن عمار ، إذ قطعت الأمل فى عفو المعتمد عما سلَف من ربيبه الذى شقَّ عليه عصا الطاعة ، بعد أن تغمَّده برعايته وعنايته وكما يقول الشاعر العربى :

جراحات السِّنان لها التئامٌ ولا يلتامُ ما جَـرح اللِّسـانُ

فإنه قد صدق على ابن عمار المثل السائر (مقتل الرجل بين فكيه) وساعدت الأقدار على التعجيل بالاقتصاص منه ، إذ ثار عليه الجند طلبًا لأعطياتهم وهددوا بتسليمه إلى المعتمد ، ولم يجد بدًا من الفرار تاركًا الأمر لابن رشيق ، قاصدًا لتوِّه مدينة سرقسطة عند صاحبها المقتدر بن هود أملاً فى استرداد مرسية بمساعدته ثم قصد (لاردة) عند المظفَّر أخى المقتدر ، إلاَّ أنه أصبح منكسر الفؤاد لسوء حالة تلك الولاية وعدم إمكانه تحقيق مطامعه فيها ، فظلَّ فى سرقسطة واستعمله

(١) يُومين : هى القرية التى جاء بنو عباد منها قبل أن يستولوا حكم أشبيلية .

ابن هود على رأس ثلة من الجند للاستيلاء على أحد الحصون المنيعة ، إلاَّ أنَّ أصحابه استطاعوا أن يستدرجوه من حيث لا يحتسب ثم أوثقوه كتافًا وباعوه إلى المعتمد بن عباد ، بعد أن دفع أكبر ثمن عرضه عليه الأمراء لشرائه واقتاده الراضى (ابن المعتمد) إلى قرطبة وهو فى حالة يرثى لها بعد عِزٍّ الملك والأبَّهة (فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسواه على بغل بين عِدْلى تبن ، وقيوده ظاهرة للناس وقد كان المعتمد أمر بإخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا إليه على تلك الحال ، وقد كان قبل ذلك إذا دخل قرطبة اهتزَّت له ، وكان خرج وجوه أهلها وأعيانها ورؤساؤها والسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده » .

وراح ابن عمار كعادة الشعراء المتملقين يستعطف المعتمد آملاً فى الصفح عنه فكتب القصائد المطوَّلة فى مدح سجايا المعتمد وتذكيره بفضله عليه وأصالة محتده ونقاء سريرته إلاَّ أنَّ كل ذلك لم يغفر له جريرته ، فلقى حتفه على يدى المعتمد بعد أن زاد غضبه عليه حينما أرسل رسالة إلى ابنه الرشيد يخبره فيها أن أباه سيطلق سراحه .

خلاصة :

إنَّ المعارك التى خاضها المسلمون فى الأندلس على عهد المعتمد بالله بن عباد ، كانته امتدادًا للمعارك التى خاضها والده لتحقيق وحدة البلاد بعد أن تفككت عراها وأصبحت ولايات متناثرة لا تملك من أسباب القوة ما يؤكد بقاءها . ويمكننا استخلاص النتائج التالية من عرضنا السابق لتلك الفترة :

١ - إأنه قد تزايد الصراع بين الفئات المكوِّنة للشعب الأندلسى وسعَتْ كلُّ طائفة إلى الاستقلال بولاية معينة وتهديد غيرها بالاستيلاء عليها متَّخِذة أخبث الوسائل فى تحقيق مآربها .

٢ - إن الأمراء عنُوا بمجالس اللهو وأدمنوا فى الخمر ومعاقرة النساء واتخذوا لهم بطانة من الولدان والجوارى الحسان إمعانًا فى اللهو والمجون .

٣ - إنهم اهتموا بقرض الشعر أكثر من اهتمامهم بتنظيم شئون الولايات والعمل على توحيدها بطريق سلمى بعيد عن المطامع .

٤ - إنه فى ذلك العصر قويت الإمارات المسيحية الأسبانية ، التى كانت غاية فى الضعف قبل هذا التاريخ ، والتى تحصنت بالجبال والهضاب العالية فى غربىّ الأندلس ، وزادت قوتها حينما توحدت على يدى الفونسو السادس ملك قشتالة وليون .

٥ - فى ذلك العصر أيضاً زادت المطامع الشخصية ، ونسى الحكام سالتهم الإنسانية والدينية ، وراحوا يحيكون المؤامرات ، ويستعينون بالدول الأجنبية لابتلاع الإمارات المتاخمة لحدودهم .

٦ - إن التاريخ فى عصرنا هذا يعيد نفسه ويلعب المستعمرون نفس الدور الذى كانت تقوم به الدول الرجعية ضد الإمارات الإسلامية فى الأندلس ولم تكن حيلة الشطرنج إلا حيلة الضعيف إزاء القوىّ .

■ ● ■ ● ■
■ ● ■
■

الفصل الثالث

معارك العرب فى الأندلس

فى عصرى المرابطين والموحدين

- معركة الزلاقة ٤٧٩هـ (١٠٨٦م)
- معركة أقليش أو (أقليج) ٥٠١هـ (١١٠٨م)
- حروب النصارى الأسبان ضد المسلمين

(من معركة أقليش حتى قيام دولة الموحدين)

- معارك العرب فى أسبانيا

(من معركة إفراغة إلى معركة الأرك)

معركة الزلاقة

٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م)

حركة الاسترداد الأسبانية :

أشرنا آنفًا إلى أن حركة الاسترداد الأسبانية اشتد ساعدها منذ أيام الحاكم العربى المعتضد بالله العبَّادى ملك أشبيلية ، إذ استطاع فرناندو الأول ملك قشتالة وليون محاربة مسلمى الأندلس ، كما استطاع أن يحرز عليهم انتصارات باهرة ، واضطر الولاة الضعاف فى طليطلة وسرقسطة وبطليوس أمام هذا الزحف الجبَّار أن يدفعوا له الجزية عن يدٍ وهم صاغرون .

ثم قوى ساعد هذه الحركة المسيحية على عهد الفونسو السادس الذى استطاع الاستيلاء على ملك أخويه جارسيًا وسانكو ، وإن يوحِّد هذه الإمارات ليوجه بها ضرباته القاضية للإمارات الإسلامية المتاخمة له ، وتمكن هذا الملك من الاستيلاء على طليطلة ، وأرغم أشبيلية على دفع الجزية مضاعفة ، وحذا حذوها جميع الولايات الإسلامية التى كانت أضعف منها شأنًا . وقد اتفق المؤرخون على أن فلول القوط التى فرت أمام الفاتحين العرب قد التجأت إلى هضاب أسبانيا المتشعبة فى (جليقية) التى سميت فيما بعد بصخرة (بلاى) إذ استطاعت فئة قليلة بقيادة هذا الرجل أن تؤسس نواة الحركة المسيحية فى شبه الجزيرة الأسبانية وقد استصغر الحكام الأمويون شأنها ، كما لم يأبه بها ملوك الطوائف من بعدهم حتى أصبحوا خطرًا يهدد كيان المسلمين فى الأندلس .

الاستيلاء على طليطلة من المسلمين فى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) :

استطاع الفونسو ضمَّ أملاك أخويه جارسيًا وسانكو ، وأختيه الدونا أوراكا والدونا البيرا ، وذلك بعد مقتل أخيه جارسيًا على يد أتباع أخته أوراكا وبعد أن زج بأخيه الآخر فى السجن ، وهكذا أصبح هذا الملك ذا السلطان الذى لا يجارى والقوة التى لا تقهر . وتطلَّع إلى بسط سلطانــه على جـميع الـولايات الإسـلامـيـة التى أصبحت لا حول لها ولا قوة ويقول أستاذنا على أدهم : « وكان الفونسو مثل أبيه فرديناند محاربًا جريئًا ولكنه كان ذا شخصية بغيضة منفِّرة ، شديدة الجشع مطبوعة على الإجرام ، نزاعة إلى القسوة والغدر والخيانة ، ولم يقنع بالجزية التى كان يؤدِّيها له ملوك الطوائف ، فأخذ ينذرهم من الحين إلى الحين ، بالويل والثبور ، ويهددهم بالاستيلاء على أملاكهم .. وكان من أضعف ملوك الطوائف الخاضعين لألفونسو القادر ملك طليطلة ، وحفيد المأمون ملكها السابق وكان ألعوبة فى يد خصيان قصره، وأضحوكة جيرانه الذين كانوا يتنافسون فى اقتطاع أجزاء من أملاكه ، والاستخفاف به ، وصفه ابن بسام فى الذخيرة بقوله : « كان آية فى قرب غَوْره إمَّعةَ أمرِه (ضعيف النفس) أجبن من قُبَّرة ، إن حزم لم يعزم وإن سَدَى لم يُلحِم ، وقد ركب هواه وأساء السياسة ، حتى كرهه أهل طليطلة وملُّواحكمه » ، واضطر القادر إلى الفرار أمام غضبة الجماهير التى احتشدت للانقضاض عليه ، ثم حدث فى سنة ٤٧٢ هـ أن آل زمام الحكم فى طليطلة إلى المتوكِّل عمر بن المظفر صاحب بطليوس ، ولم يكن أحسن شأنًا من القادر ، وساعد هذا المصير الذى آلت إليه طليطلة أن يفكر حاكمها المخلوع فى العودة إلى الحكم ، بمساعدة عدوِّ البلاد ألفونسو السادس ملك قشتالة ، فكاتبه فى ذلك الأمر ووجد الفونسو الفرصة سانحة وهى التى كثيرًا ما منَّى بها نفسه قبل هذا الحدث ، وأرسل جنده لمحاصرة طليطلة فهرب المتوكِّل إلى بطليوس بعد أن تركها بين ظفر وناب ، وأصبحت المدينة لقمة سائغة فى يد عدوِّها الجبَّار ، فلم يرقُبْ فى أهلها إلاًّ ولاذمة ، وآلى على نفسه عدم مبارحتها حتى يقدِّم له القادر أموالاً طائلة مكافأة له على هذا التأييد . وقد أوردت كتب التاريخ والأدب العربى عمَّا حدث فى تلك المأساة المروعة ، وممَّا يحزُّ فى النفوس أن ملوك الطوائف كانوا يساعدون جيش الطاغية الفونسو وهو يحاصرها ،

كما ورد فى الذخيرة لابن بسام ويصف ذلك الموقف الرهيب[1] أستاذنا على أدهم فيقول : « وطفق أهل طليطلة يستغيثون بمن حولهم ويستصرخونهم دون أن يعبأ بهم أحد من ملوك شبه الجزيرة وأمرائها وبعد انتهاء الشتاء اشتد بهم ضيق الحصار وتعطُّل المرافق وقعود إخوانهم المسلمين عن مناصرتهم وتفريج كربهم فرأوا مداخلة الفونسو فخرج وفد منهم إلى مضربه للمفاوضة وكان أمل هذا الوفد أن يتقرَّب إليه بالمال لرفع الحصار » . ثم مَثَلُ أمامه جميع الوفود فأهانهم إهانة شنيعة وركل بقدميه كلَّ كل ما قدموه له من هدايا وألطاف ، ولم يرضَ بغير التنكيل والتمثيل بالأبرياء بديلاً فاستولى عليها فى عام ٤٧٨ هـ الموافق ١٠٨٥ م ، وهى أول مدينة عربية استردها الأسبان فكان استردادها فرحة وترحة فرحة للأسبانيين بعودة العاصمة العتيقة إلى حوزتهم ، وترحة للمسلمين بسقوط كعبة العلم والأدب ومنارة الحضارة الإسلامية فى شبه الجزيرة الأسبانية ، وعاصمتهم الثانية بعد قرطبة منذ أن فتحها المسلمون .

وقد عبَّر عن شعور المسلمين بهذه الفاجعة شاعرهم المفلق عبد الله بن فرج اليحصبى بقوله :

يا أهلَ أندلسٍ حُثُّوا مطيَّكُم	فما المقام بها إلاَّ من الغلَطِ
الثوبُ ينسلُ من أطرافه وأرى	ثوبَ الجزيرة منسلاً من الوسطِ
ونحن بين عدوٍّ لا يفارقنا	كيف الحياة مع الأعداء فى سفطِ

معركة الزلاقة : رجب ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) :

مهدت فاجعة استيلاء الفونسو السادس على طليطلة لتوغله فى أجزاء مترامية من الإمارات الإسلامية الأخرى ، كما جعله هذا الفتح العظيم فى مقام السيد الغالب على أمره ، وقد حدا به كبرياؤه ، أن يرغم الأمراء الضعفاء أن يقدموا الجزية أضعافًا مضاعفة ، ووصل به التحدى والتبجُّح إلى حدِّ الاستهانة بالأماكن المقدسة ، فطلب من المعتمد بالله أن يسمح لامرأته (القمطيجة) بأن تلد فى مسجد قرطبة الجامع زعمًا منه أنه مكان مقدس ، لأنه بُنى على أنقاض كنيسة عتيقة ، الأمر الذى

(١) المعتمد بن عباد للأستاذ على أدهم .

جعل المعتمد يرفض هذا الطلب رفضًا باتًا . ثم وصل التحدى بأتباعه إلى أن يهينوا المسلمين فى عقر دارهم . وهم وافدون عليهم لأخذ الجزية من مملكة المعتمد ابن عباد ، وكان على رأس هذا الوفد ابن شاليب اليهودى الذى تشدد مع حراس القصر وأساء إلى شرف البلاد فلم يسع الأمير إلاَّ أن يقبض عليه ويسقيه كأس الحِمام ، ثم أمر بصلبه على أبواب المدينة ، وزج بمن كان معه من الوفد فى غياهب السجن .

وكانت هذه الحادثة بمثابة الشرارة الأولى لإشعال نار الحرب بين الفونسو وملوك الطوائف قاطبة ، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد فلما وصل الخبر إليه هاج وماج وانذر وتوعد ، واقسم بالله ليطأنَّ أشبيلية وما حولها بسنابك خيله . وليُعملنَّ سيوفه فى رقاب المسلمين ، لا يرحم منهم شيخًا ، ولا طفلاً ولا والدة ، ولا مولودًا . ولا حاملاً ، ولا محمولاً ، ولا مرضعة ، ولا رضيعًا . وبرَّ بقسمه هذا حينما جمع جيوشًا لا قبل للمسلمين بها ، ووجَّه كل قائد إلى جهة معينة للاستيلاء عليها ففرقة وجَّهها إلى حصن لبيط المنيع ، وأخرى إلى مرسيَّة ، وثالثة إلى غرناطة وسرقسطة . ويقول الأستاذ على أدهم : « واستولى الخوف على النفوس[1] ، وبدا لأهل الأندلس أنه ليس هناك سبيل للخلاص سوى أحد طريقين ، وكلاهما شر من الآخر وهما الرحيل من الأندلس وهو طريق يصعب احتماله واختيار مر، أو الخضوع لألفونسو وهو يُفقدهم كل شىء ، ويتركهم أذلاء محتقرين ، وقد ينتهى بإجلائهم عن البلاد أو يقتلهم لأن الفونسو لم يكن الرجل الذى يُطمأنُّ إلى وعده » .

وقد اجتمع أهل الرأى والمشورة فى قرطبة ، لطرح أحوال البلاد على بساط البحث أمام كل ذى رأى حصيف ، ليقرروا ماذا يفعلون أمام زحف الفرنجة وليعقدوا العزم على رأى سديد ، لخلاص البلاد من تلك الحال التى تحوَّلت من سيىء إلى أسوأ ، واستقر رأيهم على استدعاء يوسف بن تاشفين ملك المرابطين بأفريقية ، ليقف معهم ضد العدو المشترك رغم تخوفهم من أطماع الدولة المرابطية . ولما قدم عليهم المعتمد بن عباد أطلعوه على قرارهم الأخير ، فاستحسن ذلك منهم وطلب من القاضى عبد الله بن محمد بن أدهم أن يكون رسوله إلى يوسف بن تاشفين .

---

(١) المرجع السابق

وقبل أن يصل الفونسو خبـر ذلك المؤتمر كتب إلى ابن عباد يقول له : (كَثُر بطول مقامى فى مجلسى الذباب واشتدَّ عليَّ الحرُّ فأتحفنى من قصرك بمروحة أروِّح بها على نفسى وأطرد بها الذباب عن وجهى) ويعنى بهذه العبارة أنِّى قاب قوسين أو أدنى من عرش الملك القابع بأشبيلية ، والذى كثر فيه الخدم والحشم ويروِّحون عن المعتمد فى الغدوِّ والآصال ، لشدة وجله وذعره من الجيش الذى يطوِّق مدينته. فكتب إليه الرد فى ظهر الرقعة التى وصلته « قرأت كتابك وعلمت خيلاءك وإعجابك ، وسأنظر لك فى مراوح من الجلود اللمطية تروِّح منك لا تروِّح عليك إن شاء الله تعالى » ويقول المؤرخون إن هذا الرد قد أثَّر على الفونسو تأثيرًا واضحًا وجعله يُطرق إطراقَ من لم يخطر له على بال مثل هذا الرد .

وقرر ابن عباد وغيره من علِّية القوم السماح بجواز المرابطين لمشاركتهم فى دفع الخطر المحدق بهم ، رغم تخوف معظم ملوك الطوائف ومن بينهم ابنه الرشيد ، فقال له أبوه قولته المشهورة « رَعْيُ الجمال خير من رعى الخنازير » ويعنى بها إننا نفضِّل أن نكون أسرى المرابطين فنرعى لهم الجمال ولا نرضى أن يستذلنا الفونسو فنصبح رعاة الخنازير . وتناسى المعتمد ما بين البربر وعرب الأندلس من عداء قديم، وأغضى عما سلف من مشاحنات واشتباكات حدثت بينهما ، منذ أن تواجد فى شبه الجزيرة الأسبانية ، وقد ندم المعتمد فى وقت لا ينفع الندم ، على ما سلفَ منه من تركه ابن عمار يتعاقد مع الفونسو ويتفق معه سرًا لمساعدة المعتمد ، ضد أعدائه من المسلمين نظير إغضائه الطرف عن استيلاء الفونسو على طليطلة ، بل وصل به الأمر إلى مساعدته ، ويروى صاحب نفح الطيب أن يوسف بن تاشفين بعد أن آل إليه زمام الحكم فى دولة المرابطين ، وأطاعته البربر رغم غلظتها وبداوتها وقوة شكيمتها ، تاقت نفسه إلى عبور المضيق والاستيلاء على ممالك الطوائف ، ولهذا الأمر أخذ فى إعداد المراكب والسفن ليعبر بها ، ولما فطن ملوك الطوائف إلى ما عقد العزم عليه أعدُّوا للأمر عدته ، إلاَّ أنهم لم يشعلوا نار الحرب ضده خوفًا من أن يكونوا بين نارين .

وكانت صيغة الكتاب الذى بعث به المعتمد باسم ملوك الطوائف إلى أمير

المسلمين بأفريقيا ، كما يلى « أما بعد فإنك إن أعرضت عنّا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز ، وإن أجبنا داعيك نُسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن ، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا ، فاختر لنفسك أكرم نسبتيك ، فإنك بالمحل الذى لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة ، وإن فى استبقائك ذوى البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوته والسلام » ويذكر أستاذنا على أدهم أن يوسف بن تاشفين لم يكن ملمًا باللغة العربية ولا يفقه منها إلاَّ النذر اليسير ، إلاَّ أنه كان سريع الفهم ذكيَّ الطبع وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية ، فسردَ عليه فحوى الكتاب الذى أُلقِيَ إليه من لدن عاهل أشبيلية ، باسم ملوك الطوائف ، وأخبره أنهم يعظِّمونه ويجلونه ويجعلون أنفسهم طوع أمره ورهن إشارته ، على ألاَّ يجعلهم فى منزلة الأعادى ، فإنهم مسلمون مثله وذوو بيوتات أصيلة فلا تكون دعوتهم لقدومه وبالاً عليهم ، وشرًا مستطيرًا سيجثو على صدورهم ، لأنهم لم يدعوه إلاَّ لنصرة الإسلام وتخليصه من يد أعدائه المغيرين . فقال له يوسف : « فما ترى أنت ؟ فأجابه بالموافقة على القدوم إليهم ، وتولِّى أمرهم ونصرة قضيتهم ، فإن وقوفه بجانبهم سيرفع شأنه ويخلد ذكره ، ويجعله محمود السيرة أثير الكلمة سديد الرأى . فقال للكاتب : أجب القوم واكتب بما يجب فى ذلك واقرأ علىَّ كتابك » .

فكتب كاتبه فأحسن الرد على كتاب المعتمد بن عباد وملوك الطوائف ، فأثلج صدورهم وبعث الأمل فى قلوبهم ، وعاد اليقين بعد الشك فى خلاصهم من قبضة أعدائهم ، ويذكر المؤرخ الألمانى يوسف أشباخ فى كتابه (تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين - ترجمة الأستاذ عبد الله عنان) أن يوسف قد أبدى عدم استطاعته العبور إلى أسبانيا ، إلا إذا أُعطِيَ له حصن الجزيرة ، وقد رضى المعتمد بهذا الشرط رغم معارضة ابنه الرشيد ، ويقول : « ثم رأى المعتمد أن يسعى إلى اجتذاب زعيم المرابطين إليه خاصة ، وأن يحمله على التعجيل بقدومه إلى أسبانيا إلى زيارته بالعُدوة خفية ، فألفاه فى مكان يبعد عن سبتة بثلاثة أيام يقوم بأهبات عسكرية عظيمة ، ولم يكشف المعتمد عن شخصه ، حتى جاز إلى قصر الأمير ، ثم طلب إلى رجال القصر أن يخطروا أمير المسلمين بأن ابن عباد يقف ببابه ، فذعر

ابن تاشفين وظنّ أن المعتمد قدم فى جيشه ، ولكنه أدرك فى الحال خطأه واستقبل المعتمد بودّ وترحاب ، وسرعان ما أشار إليه أن يعود إلى أسبانيا ليقوم بإعداد المؤن اللازمة للجيش الذى يعده للعبور إلى الأندلس ، فعاد ابن عباد إلى أشبيلية مستاء لخيبته فى المسعى الذى قصده ، وهو أن يحمل يوسف على أن يختاره نائبًا من قبَله لأسبانيا المسلمة ، وعلى إثر ذلك أمر يوسف بعبور جيشه من سبته إلى الجزيرة .

ويعلق الأستاذ عبد الله عنان على هذه الرواية بقوله : « فى هذه الرواية بعض الغموض فالمتفق عليه ، أن ابن عباد عبر إلى المغرب لزيارة يوسف بن تاشفين ، ولكن المختلف عليه هو ما إذا كانت هذه الزيارة قد حدثت من قبل أو بعد موقعة الزلاقة ، والرواية الثانية أرجح وهو أن ابن عباد عبر إلى المغرب بعد الزلاقة » .

وفى شهر ربيع الآخر من سنة أربعمائة وتسع وسبعين من الهجرة الموافق أغسطس سنة ١٠٨٦ م ، تحركت السفن التى حشدت فيها جيوش المرابطين من سبتة تجاه بر الأندلس ، ويروى المؤرخون أن يوسف كان ورعًا تقيًا لم يجرؤ على أمرٍ إلاَّ ناجى ربه ، أن يأخذ بناصره إن كان فيه خيره ، وألاَّ يبلغه غايته إن كان فيها شره ، ولم يقدم على أمر إلاَّ استشار فيه الفقهاء والأتقياء ، فكان يناجى ربه أثناء جوازه الأول إلى بر الأندلس مستمدًا عونه راجيًا تأييده مقسمًا به أنه لم يعبر إليها إلا لنصرة الإسلام وردع أعدائه وتأديبهم ..

ولما عبر يوسف إلى الأندلس ، صلَّى مفتتحًا عمله باسم الله ، ثم تسلَّم قلعة الجزيرة الخضراء ، التى تعهد المعتمد بتسليمها له ، وقد لقيه أهل الأندلس بالبشر والترحاب ، حتى أن المعتمد هم بالترجُّل عن صهوة جواده ليقبل يد يوسف ، فمنعه عن ذلك وأنبأه أنه ما جاء ليحتفى به ويلتفوا حوله كما تلتف الأتباع حول ملوكهم وأباطرتهم ، وإنما جاء لخوض غمار الحرب ضد أعداء الدين ومغتصبى بلاد المسلمين .

وبعد أن حصَّن الجزيرة الخضراء غادرها فى بعض جيشه إلى أشبيلية ، ولبث بها ثمانية أيام ، ومن أشبيلية بعث برسله إلى جميع الأمراء الأندلسيين ، يحثهم

بالمبادرة فى تقوية الجيوش التى ستخوض الحرب ضد الفونسو عما قريب ، ولم يلبث كل أمير أن بعث بالرجال المدججين بالسلاح ، لينضموا إلى جيوش المرابطين وجيش أشبيلية ، كما ساهموا بالمؤن والعتاد الحربى كلٌ قدر استطاعته ، ويقول المؤرخ الألمانى يوسف أشباخ : « ثم غادر الجيش أشبيلية مخترقًا أراضى بطليوس . وكان أخوه المستنصر قد عنى بجمع الجند والخيل والدواب . ورتب القوات على النظام الآتى ؟ سار فى الطليعة فرسان المرابطين وعدتهم عشرة آلاف ، يقودهم أبو سليمان داود بن عائشة ، وتلتهم قوات الأندلس يقودها المعتمد أمير أشبيلية ، وكانت وحدات الأندلس تؤلف وحدها جيشًا خاصًا ، منفصلاً عن جيش المرابطين المؤلف من جند أفريقيا ، وسار بعدهم بيوم جيش المرابطين يقوده يوسف بن تاشفين، وكان ينزل فى المساء فى المحلة (المعسكر) التى يغادرها أمير أشبيلية فى الصباح ، ووصلت الجيوش على هذا النحو إلى (أرطوشة) على مقربة من بطليوس ولبثت هناك ثلاثة أيام » .

وعندما ترامت الأخبار بوصول المرابطين إلى مسامع القشتاليين ، وكانوا آنئذ يحاصرون سرقسطة ، عدلوا عن محاصرتها إلى التجمع والاستعداد للمعركة مع المسلمين . فسعى الفونسو إلى التحالف مع ملك أراجون ، والكونت ريموند ملك برشلونة ، وكان أولهما يحاصر طرطوشة ، بينما كان ريموند يحاصر بلنسيَّة ، ففكا حصارهما عن تلك المدينتين ولبَّيا دعوة ملك قشتالة وليون وكونوا جيوشًا ناهزت مائة وخمسين ألف رجلٍ وفارس على أصحِّ الروايات ، هذا وقد انضمت فرق من ولايات فرنسا الجنوبية ، لتقاتل فى صف جنود الولايات الأسبانية ، ضد العرب الأندلسيين والبربر الأفريقيين . وقد تجمع من جنود المسلمين ما يناهز ثمانين ألف مقاتل وما يَربُو علَى خمسين ألف فارس . وعسكر الجيشان على مسافة غير بعيدة من بطليوس ، فى سهل تتخلَّله الوديان والأحراش ، سمِّى حسب الروايات العربية (بالزلاَّقة) *أمَّا الروايات النصرانية فتسميه بسهل (سكَّر إلياس)* وكان يفصل بينهما نهر حجير . وذكر صاحب نفح الطِّيب أن يوسف بن تاشفين ، عجب من أمر الفونسو الذى بعث إليه يخبره فيه أنه سيكفيه عناء الجواز إلى بر الأندلس ، وأنه

سيأتيه من حيث لا يحتسب فردّ عليه بقوله : « بلغنا يا أدفنش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا وتمنَّيت أن تكون لك سفن تعبر فيها البحر إلينا ، فقد عبرنا إليك وقد جمع الله بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك وما دعاء الكافرين إلاّ فى ضلال » .

وأعقب هذه الرسالة رسالة أخرى من يوسف إلى الفونسو يدعوه فيها إلى الإسلام أو الجزية ، فعظُمَ هذا الأمر على الفونسو وكَبُر عليه مطلب ابن تاشفين هذا ، وهو السلطان الذى لا يقهر ، والذى تدفع الولايات الإسلامية له الجزية مضاعفة ، لشدة بطشه وصلابة عوده ، فكيف لهذا الغازى الأفريقى أن يطلب منه دفع الجزية ، ولما فطن إلى قوة الجيش الإسلامى وشدة بأسه ، فكر فى حيلةٍ نكراء وخدعة بلهاء ، وهو أن يفاجئهم فى وقت يكونون مطمئنين ، قد ألقوا أسلحتهم وأمنوا جانب عدوهم .

فبعث إلى المعتمد برسالة فى يوم الخميس يخبره فيها إن غدًا يوم الجمعة عيد المسلمين ، وبعده السبت عيد اليهود ، ويتلوهما الأحد وهو عيد النصارى ، ولهذا فإنه يحيطهم علمًا بأن موعد النزال هو يوم الإثنين ، وهو يضمر فى سريرة نفسه ، كما أخبر جنوده أنه سيوجه الضربة الأولى لمعسكر المسلمين فى صبيحة الجمعة ١٢ من رجب سنة ٤٧٩ هـ الموافق ٢٣ من أكتوبر سنة ١٠٨٦ م ولما وصل كتابه إلى المعتمد ابن عباد بهذا المضمون ، علِمَ علْمَ اليقين أن الفونسو سيباغتهم صبيحة الجمعة فأرسل على التوّ لجميع القواد ، أن يكون على استعداد فى تلك اللحظة ، لأن عدوهم يريد أن يخدعهم بحيلته النكراء .

ويقول المؤرخ يوسف أشباخ : « ولكن الفونسو كان يرى وفقًا لمبدإٍ ذميم أنه يحق له أن يلجأ فى الحرب إلى كل خدعة ، وأن ينكث بالعهد المقطوع فسيقاتل قبل اليوم المضروب ليفاجىء العدو وليتمكن بعد ذلك من هزيمته ، ومن ثم فقد اعتزم أن يلجأ إلى مثل هذه الخديعة وأن يختار للقتال يوم الجمعة وهو يوم المسلمين ، وفى صبيحة يوم الجمعة انقضَّ الجيش المسيحى بقيادة الكونت جارسيا والكونت رودريك بمنتهى الصلَّف على معسكر الأندلسيين بقيادة المعتمد بن عبَّاد » ، ويقول المؤرخ المذكور :

« وأمل الفونسو أن يبعث بذلك الهجوم المفاجىء الروع والاضطراب فى صفوف العدو ، ولكن شدَّ ما دَهِش النصارى إذْ رأوا أمامهم قبل أن يصلوا إلى المعسكر الأندلسى ، جيشًا من المرابطين قوامه عشرة آلاف فارسًا بقيادة داود بن عائشة ، وهو من أشجع قادة يوسف وأقدرهم ، أجل لم يكن فى وسعه أم يصمد لكثرة النصارى وعنف هجومهم ، وذلك بالرغم من اعتماده على قوة كبيرة من رماة السهام والنبال ، ولكنه استطاع على الأقل بوقفته الباسلة أن يحطِّم من عنف هجمة النصارى ، وأن يرغمهم بذلك على الارتداد إلى خط دفاعهم الثانى » .

أما الفونسو فقد داهم بجيشه جيش المعتمد بن عبَّاد ، وثبت المعتمد ثباتًا منقطع النظير ، ثم كرَّ الفونسو عليه بجموع هائلة وأحاطوه من كلٍّ جانب واستحرَّ القتال فلم تثبط عزيمته ، وإنَّما قاتل قتال المستميت وأبطأ يوسف فى نجدته حتى ظنَّ أنه قد تُرك وحده يلاقى ضربات الأعداء ولم يسع بعضُ أصحابه إلاَّ الفرار من حوله ، ويقول المؤرخون إنَّه قد عُقرت من تحته ثلاثة أفراس وأنه أصيب فى رأسه بضربة سيف فلقت هامته إلى صدغيه وكادت أن تقضى عليه ، وجرحت يده اليمنى، ولكن العناية الإلهية شاءت له البقاء ، وكان يتلقى ضربات أعدائه ويكيل لهم أعنف منها ، وهو يترنم بهذين البيتين مخاطبًا ابنه الصغير ، الذى تخيَّله أمامه فى ثبج المعمعة ، وهو الذى تركه عليلاً بأشبيلية :

أبا هاشم هشَّمتنى الشفارْ ... ولله صَبْرى لذاك الأوارْ

ذكَرْتُ شُخَيصكَ تحت العَجاج ... فلمَ يثْنِنِى ذِكْرُهُ للفِرارْ

وهذه المعركة لا تقل شأنًا عن معركة تور (بلاط الشهداء) التى أوردنا ذكرها آنفًا ، بل تزيد عليها فى كثرة القتلى حتى أصبح ميدانها بِركًا من الدماء، وكثر فيها الضجيج العجيج والهرج والمرج ، وثار النقع حتى بلغ عَنان السماء، وسقط فيها آلاف مؤلفة من الجانبين . ولم يلبث داود بن عائشة أن انضمَّ بجيشه إلى المعتمد فحمى ظهره ووضع عنه وزره وحمل عنه مهمة الصمود ، فتحول من الصمود إلى الهجوم ، ثم وافاهما يوسف بن تاشفين بجيش غاية فى البسالة فلقى العدوَّ على حين غفلة منه، بعد أن كان يمنِّى نفسه بالنصر فزُلزِلَت الأرض من تحت قدميه ، واحمَّرت

السماء في عينيه ، وكأنه في بحر لجيّ من فوقه موج من فوقه سحاب إذا أخرج منه يده لم يكد يراها ظلمات بعضها فوق بعض ، فلم يسعهُ إلا الفرار إبقاء على من بقِيَ من جنوده ، ولم يذَرْه المعتمد يفلت من قبضته ، دون أن يكيل له ضرباته ، الصارمة فأسخنه ضربًا وأورده مورد الحمام وكان يتابع فلوله المنهزمة وهو يخوض في برك من الدماء ، حتى لم يبقَ منهم سوى بضع مئات لاذوا بالفرار مع قائدهم الذى أصيب بضربة سيف في فخذه نزف منها دمًا مدرارًا ، لولا أن حمله أصحابه تحت جنح الظلام إلى ربوة عالية ، فعالجوه حتى قوى على السير فتابعوا الفرار إلى جهة نائية . ويقول الأستاذ على أدهم : « وأقبل المعتمد على يوسف فصافحه وهنأه وشكره وأثنى عليه ، وشكر يوسف مقامه وحسن بلائه وجميل صبره ، ولما انحاز الفونسو بشرذمته ، جعل ابن عباد يحرض على أتباعه ومطاردته وقطع دابره ، ولكن يوسف خالفه في ذلك وقال له لو اتبعناه اليوم لقى في طريقه أصحابنا المنهزمين راجعين إلينا منصرفين ، فيهلكهم ، بل نصبر بقية يومنا حتى يرجع إلينا أصحابنا ، ويجتمعوا بنا ثم نرجع إليه ونحسم داءه .

وهكذا انتصر المسلمون في موقعة الزلاَّقة انتصارًا باهرًا ، وسجل لهم التاريخ من الثبات والإقدام والجرأة ما شهد به الأعداء أنفسهم ، وقد تجلى في هذه المعركة إنكار الذات والتفاني في سبيل النصر ، أو الفوز بالاستشهاد دفاعًا عن الإسلام ، الذى كاد أن يحتضر في شبه الجزيرة الأسبانية . ويذكر المؤرخ الألماني يوسف أشباخ، أن المرابطين قاتلوا عدوَّهم بشجاعة نادرة ، وكانوا يضطرمون شوقًا إلى الاستشهاد ، وأنهم كانوا يجِدُّون في طلب الموت ، ليفوزوا بنعيم الخلد ، ويذكر المؤرخ أن النصارى قاتلوا في ذلك اليوم العصيب بإخلاص يضطرم للدين والوطن . وهذا الوصف الذى أوردته كتب التاريخ والأدب لهذه المعركة يؤكد لنا أنها كانت معركة دينية ، ويزيد على كونها معركة دينية بالنسبة للمسلمين ، أنَّها كانت معركة مصير أى أنها مسألة حياة أو موت .

وأقامت عساكر المسلمين بعد الفوز المبين أربعة أيام بأرض المعركة ، تجمع أثناءها الغنائم وتقتسمها فيما بينها ، ثم تواردت الأخبار على يوسف من أفريقيا

بوفاة ابنه الأكبر أبى بكر سِير الذى خلفه نائبًا عنه أثناء جوازه إلى الأندلس ، فحزن عليه حزنًا شديدًا ، وسارع بالعودة إلى بَرِّ العُدوة تاركًا معظم جيشه بالأندلس يقوده قائده سِير بن أبى بكر .

ولما عاد المعتمد ظافرًا إلى أشبيلية هزته نشوة النصر فنظم قصيدة عصماء ، يفتخر فيها بشجاعة جُنده وجنود المرابطين فى الحرب ، ويصف التحوُّل العجيب فى سير المعركة ، وكيف استطاع الجيش المرابطى الظافر الانقضاض على الأعداء ، وتشتيت شملهم وإبادة ضراغمهم فى وقت وجيز . ثم جلس ليستمع إلى قصائد الشعراء الذين جاءوا من كلِّ حدب ينسلون ، أقبلوا مهنِّئين مادحين ، مبايعين له بيعة صادقة على مواصلة القتال حتى يستأصل شأفة الأعداء عن آخرهم .

وهذا ابن حمديس يقول من قصيدة طويلة موجِّهًا خطابه إلى المعتمد :

ليهنىءْ بنى الإسلام أنْ أُبْتَ سالِمًا ... وغادرْتَ أَنْفَ الكُفر بالذُلِّ راغما

كشَفْتَ كُروبًا عن قلوبٍ كأنَّما ... وضَعْتَ عليْها من هَواكَ خواتِما

صبَرْتَ لحَرِّ الطَّعنِ والضَّربِ ذائدًا ... عن الدِّينِ واستصغَرْتَ فيه العظائِمَا

رحِمْنَاكَ من وقْعِ الصوارمِ والقَنَا ... فكان لنَا فى حفظك اللهُ راحمَا

وكم شجَّةٍ فى حُرِّ وجهك لمْ يزَلْ ... لك الحُسْنُ فيها بالشجاعةِ واسِمَا

ويشير ألى يوسف والجنود المرابطين بقوله :

نقِمْتَ على(*) من آسفوكَ بيوسفٍ ... (وانت علَى) من خالفَ الحقَّ ناقِمَا

وآذنْتَ عُمَّارَ القفار بحربِهم ... فيا قُرب من شقّوا إليك الخضارما

بَنُو الحرب غذَّتهم لبان ثديها ... ولم يستطيعوا منه ؤلاً العلاقما

يحثُّون للهيجاء جُردًا سلاهبًا ... وينضُون فى البيداءِ بُزْلاً صلادما

ويقول الشاعر محمد بن عُبادة المعروف بابن القزاز موجِّهًا خطابه إلى المعتمد :

(*) أى صببت نقمتك على أعدائك بيوسف بن تاشفين .

جَلَبْتَ على الأعادى أُسْدَ غابٍ بـرائنُهـا الأسنَّةُ والصِّفاحُ

وقفْتَ وموقفُ الهيجاءِ ضَنْكٌ وفيه لباعِكَ الرَّحبِ انفساحُ

والسنةُ الأسنَّةِ قائلاتٌ إذا ظهر المؤيَّد لا يراحُ

وقالوا كفُّه جُرحتْ فقُلنا أعاديهِ توافقها الجِراحُ

أمَّا الشاعر عبد الجليل بن وهبون فيشير إلى يوسف وحسنُ بلائه فى قصيدته الميمية الرائعة كما يشيد بالمعتمد وحسن مجادلته للأعادى فيقول فيها :

أظنُّ خطوبها قالت سلامُ فلم يعبث لها منك ابتسامُ

وثارَ إلى الطِّعان حليفُ صدقٍ تثور به الحفيظةُ والذِّمامُ

نَمَا فى حِمْيَرٍ ونمتْكَ لخْمٌ وتلك وشائجٌ فيها التحامُ

نهَجْنَ لسُبلهِ نهجًا فوافَى وفى آذيِّهِ الطَّامى عَرامُ

فهِيلَ به كثيبُ الكُفرِ هيلاً وكل رقيقةٍ منها رُكامُ

ثم يقول للمعتمد :

وانت النِّعمَةُ البيضاءُ فاسلمْ لنا وليطَّرِدْ فيكَ التئامُ

دروس وعبر :

تلكم هى معركة الزلاَّقة التى أعقبت سقوط طليطلة معقل الإسلام فى يد الفونسو السادس ، وقد كان لهذه المعركة صدى بالغُ الأثر فى العالم الإسلامى ، فغدا المسلمون مبتهجين أشد الابتهاج بهذا النبأ الذى أنساهم تلك الفاجعة العظمى، التى سبقته ، وهى سقوط طليطلة فى يد أعدائهم وتهديد المسلمين بالإبادة .

ويمكننا تحديد بعض العوامل التى ساعدت المسلمين فى الأندلس على إحراز النصر فيما يلى :

١ - إنهم نسوا الأحقاد والضغائن والحزازات التى مبعثها التعصب الأعمى لفئة ضد أخرى ، فألفينا عرب الأندلس يسارعون فى استدعاء بربر أفريقيا لتحقيق

هدف أسمى وهو الصمود أمام العدو المشترك الذى يهدد بلاد المسلمين وينذرهم بالذل والثبور .

٢ - إنهم وضعوا نُصب أعينهم مبدأ الاتحاد قوة والتفرق ضعف مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا ﴾ . ولذا بادرت جميع الإمارات المستضعفة فى أسبانيا المسلمة بالمساهمة فى إعداد جيش قوى لسحق عدوهم الجبار ، الذى حرمهم النوم وأحال حياتهم إلى جحيم لا يطاق .

٣ - إن استشعار المسلمين بالخوف من الله تعالى ، إذا امتُهنت حرمة الدين جعلهم يسارعون فى تلبية إخوانهم فى الدين لدرء الخطر الذى كان يتهددهم ، ولذلك رأينا يوسف بن تاشفين يعبر بجيش عرموم صلد إلى الجزيرة الخضراء تلبية لهذا النداء ، ناسيًا مطامعه الشخصية وتطلعه إلى بسط نفوذه على الممالك والإمارات الأندلسية التى أضعفها تفرقها ، وانشغال أمرائها لإرضاء نفوسهم الجشعة عن مصالح الشعب .

٤ - إن الحرب التى كان يخوضها المسلمون فى الأندلس كما أسلفنا ، كانت حرب حياة أو موت ولذا أبْدَوا من البسالة ما يعجز القلم عن وصفه ، وأنهم كانوا يقاتلون وهم يضطرمون شوقًا إلى الاستشهاد فكانوا تطبيقًا علميًا لقول أبى بكر الصديق (احرص على الموت توهب لك الحياة) .

٥ - لقد قيل قديمًا (إن الحرب خدعة) ولذا رأينا الفونسو يبعث برسالة يخدع فيها المسلمين ، حتى يمكنه الانقضاض عليهم انقضاض الوحش الكاسر على فريسته ، إلاَّ أنهم كانوا أشدَّ منه فطنةً وأبعدَ منه نظرًا فأعدُّوا للأمر عدته رغم أنهم تظاهروا بتصديقه وترحيبهم بدعوته .

وقد خُدِعنا فى بداية معركة سيناء التى بدأها العدو بالضربة الأولى فى صبيحة اليوم الخامس من شهر يونيو ١٩٦٧ بعد أن أوعز إلى أنصاره بترويج الادعاءات الكاذبة بأننا سنكون المعتدين عليهم وذلك تمويهًا لما عقدوا العزم عليه .

ماذا أعقب موقعة الزلاقة :

إن معركة الزلاقة لم تكن المعركة الفاصلة بين العرب المسلمين والأسبان المسيحيين رغم عظمها وكثرة القتلى فى الجانبين لأن رجوع يوسف بن تاشفين إلى مراكش كان ضربة قاضية لأمراء الأندلس إذ استطاع عدوهم الذى بلغت خسارته من الجنود المقاتلة ما يربو على ثلاثين ألفًا استطاع أن يسترد قوته ، وأن يجند أعدادًا هائلة فى وقت وجيز ، بينما لم يستطع المعتمد وغيره من الأمراء تعويض ما فقدوه فى معركة الزلاقة وذلك راجع إلى الأسباب الآتية :

١ - استرداد أمراء الولايات التابعين لأشبيلية سلطانهم واستقلالهم عنها وعدم إمكان المعتمد محاربتهم أو بسط نفوذه عليهم سلميًا .

٢ - مُنيت أشبيلية بخسارة فائقة فى جندها وعتادها ، لم تستطع تعويضه بعد انتهاء الحرب .

٣ - ظهرت نيَّات المرابطين فى إسقاط حكومات البلاد الأندلسية والاستيلاء على عواصمها عَنوة ، ممَّا جعل الأمراء يلجأون إلى التحالف مع العدو الأجنبى لمحاربتهم وإجلائهم عن البلاد .

٤ - عدم موافقة يوسف بن تاشفين على ما طلبه منه المعتمد بجعله قائدًا لجنود المرابطين حتى يمكنه استرداد قوته ومحاربة أعداء البلاد .

٥ - تأليب العامة وفقهاء الأندلس قادة المرابطين على الملوك والأمراء الأندلسيين لوضع حد للفساد الناتج عن استغراقهم فى النعيم وترك مصالح الشعب جانبًا .

محاولة الاستيلاء على حصن لبيط المنيع :

أشرنا - إلى أن يوسف عاد إلى أفريقيا وهو يحمل الكثير عن أحوال البلاد الأندلسية ، وكان يمنِّى نفسه بآمال كبار فى بسط نفوذه عليها ، إلاَّ أنه كان يتظاهر لأمرائها بالورع والتقوى والزهد فى الدنيا ، والتنزه عما فى بلاطهم من النعيم . وقد

هاله فى قرارة نفسه ما فى قصورهم من بذخ وإسراف ، وشدّ ما كانت دهشته حين شاهد ما عليه المعتمد بن عباد من دَعةٍ وترف ، وما يحفُّه من سندس وديباج ، وما يسامره من عازفات وما يطربه من قيان وندماء ، وما يهزه من شِعر ، وما يحوطه من شعراء . حتى إذا واتته الفرصة السانحة كشف عن نياته التى كثيرًا ما منَّى بها نفسه ، فأشعلها حربًا ضروسًا بينه وبين من استدعوه لنجدتهم ، فمزَّقهم شرَّ ممزَّق، وقتل من قتل منهم ، وحمل من حمل أسرى إلى أغمات وغيرها من بلاد الشاطىء الأفريقى .

وقبل أن نورد ما حدث بين يوسف والأمراء الأندلسيين نذكر شيئًا عن جوازه الثانى إلى بَرّ الأندلس وكان ذلك فى شهر ربيع الأول لسنة ٤٨١ هـ الموافق لشهر يونية من عام ١٠٨٨ م ، وذلك حينما تواترت الأخبار بانتعاش قوى النصارى ، وتهديدهم بلاد المسلمين واستغاثة المعتمد بن عبَّاد به ، والذى خسر فى موقعة الزلاَّقة زَهرة جنده وفقد سلطانه على كثيرًا من الولايات التى كانت تابعة له قبل تلك المعركة ، فلم يسعه إلاَّ أن يسير إلى أفريقيا طالبًا مساعدة يوسف له على أعدائه من الجانبين . وأن يعهد إليه بقيادة جيوش المرابطين فى الأندلس ، حتى يتأتَّى له تحقيق ذلك الهدف ، ويقول المؤرخ الألمانى يوسف أشباخ : « وشد ما كانت دهشة المعتمد حينما علم بأن يوسف بدلاً من أن يجيبه إلى طلبه رأى لكى يعوض ما خسر الإسلام فى الزلاَّقة ويحقق له ظفرًا جديدًا ، أن يعبر فى جيش جديد إلى الأندلس وأن يتولى بنفسه تدبير كل شىء ، وهكذا عاد المعتمد إلى أشبيلية وهو عالم بهذا العزم » .

وبعد أن جاوز يوسف المضيق إلى الجزيرة الخضراء بجيشه الضخم ، وجد المعتمد بن عباد فى استقباله ثم توجها تلقاء مالقة ثم إلى مرسية ، حيث طلب يوسف من الأمراء أن يوافوه بجيوشهم التى ستحاصر حصن لبيط المنيع ، « فخف الأمراء إلى تلبية دعوته وفى مقدمتهم المعتمد وتميم بن بُلُّكين والى مالقة وأخوه عبد الله بن بُلُّكين والى غرناطة ، وولاَّه بيَّاسة وجيَّان ولوقة ومرسية ، وكانوا يعتبرون أنفسهم من الأمراء المستقلين لا من أتباع المعتمد (يوسف أشباخ) .

ويذكر المؤرخون أن تلك القوى الإسلامية التى تجمعت للاستيلاء على ذلك الحصن ، عانت عناءً شديدًا دون جدوى من جرَّاء انقضاض الأعداء المحصورين عليهم فجأة من حين إلى حين ، ورأوا أنه من العبث تشديد الحصار على هذه القلعة المنيعة . ففكوا الحصار عنها لئلا يداهمهم ألفونسو بجيوش هائلة وهم منشغلون بمحاصرة الحصن .

هذا وقد ظهرت فى أعقاب هذا الحصار بداية الانشقاق بين صفوف المسلمين، أذ تذمر كثير من الأمراء المتاخمة حدود إماراتهم لحصن لبيط على ما قرره يوسف والمعتمد ، وذلك لأنهم سيكونون فى مهب الريح الجارفة التى ستجتاح بلاد المسلمين، فثاروا ثورة هوجاء وامتشقوا الحسام ضد هذين العاهلين ، ومن أبرزهم عبد العزيز ابن رشيق والى مرسية بعد ابن عمار ، فشهر سيفة للبطش بالمعتمد ، لولا أنه قبض عليه وشدد فى اعتقاله ، إلاَّ أن جنوده استطاعوا أن ينقذوه من المصير الذى كان ينتظره ، ففرُّوا به إلى مرسية ، وقطعوا عن الجيش المرابطى المعونة ، وكان هذا دافعًا لأن يتفرق الجنود الآخرون فى الميدان ، تاركين جنود المرابطين بغير زاد وقليل من العتاد ، ولم تكن جنود أشبيلية بأحسن حال من المرابطين ، فانحلَّت عزائمهم فتركوا عدوهم يجدد هجماته ويظفر بالغنائم والأسلاب ، وينقذ من بقى بحصن لبيط ثم يحطم أسواره ويتركه خرابًا يبابًا .

خضوع أسبانيا الجنوبية لسلطان المرابطين :

إن انتصار يوسف بن تاشفين يوم الزلاَّقة رفع شأنه فى العالم الإسلامى قاطبة، وفى الإمارات الأندلسية خاصة ، وزاد تعلق الفقهاء والعامة به ، ثم تقشفه وحبُّه للأئمة وتوقيرهم ، وأخذ مشورتهم وحَدَبُه على الضعفاء والمساكين . كل هذا دفعهم إلى أن يؤمنوا به أميرًا للمسلمين ومحررًا للبلاد من الغزاة والأمراء والسادة المتحكمين ، فقوى سلطانه وزادت هيبته فى أعين الجميع ، وأصبح ذكره على كل لسان ، ولعل هذه الثقة دفعته إلى أن يطلب من الأمراء معاونته المادية لمدافعة الأسبان ، فكتب إلى صاحب المريَّة يطلب منه تقديم المعونة لهذا الأمر ، ذاكرًا أن

عمر بن الخطاب سبقه فى أخذ المال من المسلمين إلى بيت المال ، فكتب صاحبها إليه « أما بعد فما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخُّرى عن ذلك وبأن أبا الوليد الباجى وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس ، أفتوا بأن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه اقتضاها ، وكان صاحب رسول الله وضجيعه فى قبره ، لا يشك فى عدله ، فليس أمير المؤمنين بصاحب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، ولا بضجيعه فى قبره ، ولا ممَّن لا يُشكُّ فى عدله » .

وهذا التحدِّى الذى لاقاه يوسف من الأمراء ، جعله يفكر فى تحقيق أطماعه التى كثيرًا ما ساورته ، والتى لم يكشف القناع عنها آنفًا ، فعبر إلى أسبانيا متظاهرًا أنه قد اعتزم مجاهدة النصارى ، وهو الجواز الثالث إلى بر الأندلس (فى أوائل ٤٨٣ هـ) ويقول المؤرخ يوسف أشباخ : « وسيَّر قواته الضخمة التى عبرت من سبتة ، ولم يطلب هذه المرة من الأمراء المسلمين جنودًا لمعونته ، ولم يعرضوا عليه هم معونتهم ، وقد كانوا يومئذ يرقبون حركات المرابطين جزعين أشد الجزع على سلامتهم ، وسار يوسف على رأس جيشه العام إلى طليطلة ، وبعد أن عاث فيها ونفَذَ منها حتى ظاهر عاصمة قشتالة ، ارتد فجأة نحو الأندلس ، وسيَّر فرقًا من جيشه إلى مختلف المدن وسار بنفسه إلى غرناطة » .

وبعد استيلاء يوسف على غرناطة (فى رجب سنة ٤٨٣ هـ - أغسطس ١٠٩٠ م) بعث بصاحبها عبد الله بن بُلُّكين مكبلاً بالأغلال إلى أغمات بالشاطىء الأفريقى ، وادعى أنه كان متحالفًا مع الفونسو عدو البلاد ، ثم أتبعه بأخيه تميم أمير مالقة . وأرسل أميرا أشبيلية وبطليوس سفيريهما إلى غرناطة لاستجلاء حقيقة الأمر ، وقد ذهبا متظاهرين بتقديم التهنئة ليوسف بالفتح ، إلاَّ أنه أعرض عنهما وجعلهما فى موضع حرج أمام جنوده « فعادا إلى أميريهما يضطرمان جزعًا وسخطًا » .

نهاية دولة بنى عباد أعظم ملوك الطوائف فى الأندلس :

وأعقب استيلاء يوسف على غرناطة عبوره إلى سبتة تاركًا لقائده سِيَر بن أبى بكر مهمة القضاء على أمراء الأندلس ، وكان عبوره يستهدف إمداد الجيش

المرابطى بما يحتاجه من العَدد والعُدد . وكان قد أمر بتسيير أربعة جيوش فى وقت واحد للقضاء على الإمارات الأندلسية وبسط نفوذه عليها ، وكان أقوى هذه الجيوش الأربعة بقيادة سِير بن أبى بكر ، ليتجه إلى أشبيلية وبعد ذلك إلى بطليوس .

أما الجيش الثانى فكان بقيادة عبد الله بن الحاج ، وقد أصدرت له الأوامر بالتوجه تلقاء قرطبة وكان واليها الفتح الناصر أحد أبناء المعتمد بن عباد . وكان الجيش الثالث بقيادة جرور اللمتونى يزحف نحو أرض رُندة ، وكان يلى آمرها آنئذ الراضى بالله الابن الثانى للمعتمد . وزحف الجيش الرابع بقيادة أبى زكريا بن غانية واستولى على المريَّة (فى رمضان سنة ٤٨٤هـ) وكان أميرها المعتصم بن صمادح صديق المعتمد الحميم ، ولم يمضِ عام واحد حتى استطاع المرابطون تصفية ملوك الطوائف فى الأندلس ، فقتلوا منهم من قتلوا ، واقتادوا منهم كثيرًا من الأسرى إلى بر العدوة بالشاطىء الأفريقى .

أما الجيش الذى اتجه نحو أشبيلية فكان أقوى الجيوش الأربعة عددًا وعدَّة ، حيث زحف للقاء جيوش المعتمد دون أن يعلن قائده عن نية المرابطين ، فتأهب المعتمد للصمود أمامهم واشتبك معهم فى عدة معارك ، إلاَّ أنه كان أقلَّ منهم عددًا وأضعف منهم عدة ، وقد شتتوا مجهود رجاله ليقاتلوهم فى عدة معارك فى آن واحد ، مما عجَّل بالقضاء على قوى الجيش الأشبيلى ، فاستسلمت جيَّان ثم انضم سِيَر إلى القائد جرور اللمتونى الذى كان يحاصر قرطبة آنئذ ، فتماثلت المدينة للتسليم (سنة ٤٨٤هـ) بعد أن وعدها جرور بعدم المسام بالنفس والمال والولد والعرض ، وما إن استسلمت حتى نكث بعهده ، ومثَّل بمن فيها أبشع تمثيل ، وقد زاد عمَّا فعله القائد الأفريقى هانيبال إزاء الرومان من قبل . (كما يقول المؤرخ الألمانى يوسف أشباخ) فقتل من قتل ، وأمعن الغزاة فيها نهبًا وسلبًا ، وكان بين القتلى ولد المعتمد الباسل الفتح المأمون ، وقتل فى نفس الوقت ولد آخر للمعتمد هو يزيد الراضى بالله والى رُندة ، وكان مقتلهما عقب أخذهما انتهاكًا لكل ذمام وإنسانية .

وقد انحصر سلطان المعتمد على مدينتى أشبيلية وقرمونة ، وفى نفس الوقت الذى كان يحصِّن فيه هاتين المدينتين ، كان المرابطون قد استولوا على قلعة رباح ،

وتوغلوا فى أجزاء شاسعة من الدولة القشتالية النصرانية . وعندئذ استغاث المعتمد بالفونسو للتحالف معه ضد المرابطين ونسىَ كلٌّ منهما ما كان بينهما من عداوة ومشاحنات وحروب طاحنة . ثم سقطت قرمونة فى يد المرابطين ، ولم يبقَ للمعتمد من أمل سوى نجدة النصارى له ، فاشتبكت الجنود التى سيَّرها الفونسو مع المرابطين على مقربة من قرطبة ، ثم نشبت بينهما معركة دموية رهيبة انتهت بانتصارات المرابطين الماحقة عليهم ، وهذا الأمر عجل بمحاصرتهم لأشبيلية وجعلها تحت رحمتهم .

وتختلف الروايات فى (الكيفية) التى استسلمت بها أشبيلية ، فبعضها يقول بأنها استسلمت للمرابطين ، وبعضها يقول بأنهم دخلوها عَنوة ، والأرجح هو القول الأول ، وذلك بعد أن - قطع المرابطون عهودًا على أنفسهم بتأمين المعتمد وآله وشعبه فى النفس والمال والولد ، وكان سقوطها فى رجب سنة ٤٨٤هـ الموافق سبتمبر ١٠٩١م ، ويصف المراكشى فى كتابه[1] المعجب ذلك الموقف الضنك الذى وقفه المعتمد بقوله « فبرز المعتمد من قصره وسيفه بيده ، وغلالته ترفُّ على جسده لا درقة له ولا درع عليه ، فلقى على باب من أبواب المدينة يسمى باب الدرج فارسًا من الداخلين شاكىَ السلاح فرماه الفارس برمح قصيرِ أنابيب القناة ، طويل شَفْرة السنان فالتوى الرمح بغلالته وخرج من تحت إبطه ، وعصمه الله منه ، ودفعه بفضلةٍ عنه ، وصب هو سيفه على عاتق الفارس فشقه إلى أضلاعه فخر صريعًا ، والتأمت الحال أيامًا يسيرة إلى أن ورد الأمير سيَر بعساكر متظاهرة ، وحشود من الرعية وافرة ، والناس فى خلال هذه الأيام خامرهم الجزع ، وخالط قلوبهم الهلع ، يقطعون السبل سياحة ويعبرون النهر سباحة ، ويترامون من شرفات الأسوار حرصًا على الحياة ، والموفون بالعهد المقيمون على صريح الود ، ثابتون إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة من رجب من السنة المذكورة (٤٨٤هـ) وهذا هو يوم الكائنة العظمى والطامة الكبرى فيه حسم الأمر الواقع ، واتسع الخرق على الراقع ، ودخل البلد من واديه ، وأصيب حاضره وباديه » .

(١) نقلاً عن تاريخ المرابطين والموحّدين للمؤرخ الألمانى يوسف أشباخ .

ويصف الفتح[١] بن خاقان في كتابه قلائد العقيان ذلك اليوم الرهيب الذى سقطت فيه أشبيلية . وما أعقبه من انتشار الدعر في المدينة وما حدث من أعمال السلب والنهب التى قام بها رجال البربر المدججون بالسلاح . وكيف استولوا على قصر المعتمد بما فيه من نفائس . ثم يصف وقفة المعتمد البطولية التى كان يدافع أثناءها أعدادًا هائلة من جنود البربر بمفرده . فيقول « وما زال يوالى عليهم الكرَّ حتى أوردهم النهر وما بهم من جواد . وأودعهم حشاه كأنه لهم فؤاد ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاب ماله . وهاب ملكه وارتحاله . وعاد إلى قصره واستمسك به يومه وليلته سانحًا لحوزته ، دافعًا للذل عن عزته . وقد عرم على أفظع أمر ، وقال بيدى لا بيد عمرو ، ثم صرفه تُقاه عمًّا كان نواه فنرل من القصر بالقسر إلى قبة الأسر. فقُيِّد للحين ، ولاح له يوم شر ما ظن أنه سيحين . ولما قيدت قدماه وبعد عنه رقة الكبل ورحماه قال يخاطب آسره

إليكَ فلو كانت قيودُك أُسعِرت ... تضرَم منها كلُّ كفٍّ ومعصم

مخافة منْ كان الرجال بسيبه ... ومن سيفه فى جنةٍ أو جهنم

وهكذا انتهت دولة بنى عباد إلى هذه النهاية المحزنة . . فحمل المعتمد وآله أسرى إلى أغمات بالمغرب ، وهم يرسفون فى الأغلال ويذوقون من العذاب والحرمان ، ما لم يَدُرْ بِخَلَدِهم قبل ذلك المآل . ونهبت قصورهم التى ملئت بالنفائس من كل الألوان ، ومن التحف ما يعجز عن وصفه اللسان ، وهنا جاشت عاطفته ووافته قريحته فانفجر شعرًا راثيًا حاله

لما تماسكتِ الدمُوعْ[٢] ... تنهنَه القلبُ الصَّريعْ

قالوا : الخضوعُ سياسة ... فليبْدُ منك لهم خُضوعْ

وألذُّ من طعم الخضوع ... على فمِى السُّمُ النقيعْ

إنْ تَستَلِبْ مِنِّى الدُّنَا ... مُلكِى ويسلمنى الجموعْ

---

(١) نقلاً عن تاريخ المرابطين والموحدين للمؤرخ الألمانى يوسف أشباخ

(٢) مختارات من الشعر الأندلسى لـ أ د./ نيكل

لم أستَلَبْ شرفَ الطِّباعِ ويُسلَبُ الشرفُ الرفيعْ
قد رُمتُ يوم نزالِهم ألاَّ تُحصِّنَنِى الدُّروعْ
ما سِرتُ قطُّ إلى القتالِ وكان من أملِى الرُّجوعْ
شِيَمُ الأُلَى أنَا منهمُو والأصلُ تتبعُهُ الفُروعْ

وقد وفَّى للمعتمد شعراؤه المخلصون فبكوا زوال دولته . ورثوا لحاله وحال أسرته ، وأرسلِ شعرُهم على كلِّ لسان فتناقلته الأجيال على مر الزمان ، يحكى قصة الفجيعة العظمى التى حلَّت بهذه الأسرة ، التى كانت كعبة الشعراء والأدباء والفقهاء، ومنارة الجود والمرؤات العربية ، ومنبت الشعر والفن وقد كانوا ملوكًا عظماء ، يحبون رعاياهم ويجلُّون علماءهم ، ويُوفون بالعهد لمن عاهدهم من أعدائهم .

ومن الشعراء الذين بَكَواْ زوال بنى عباد الشاعر القدير أبو بكر الدَّانى المعروف بابن اللَّبانة والذى رثاهم فى قصيدته الشهيرة التى يقول فيها :

تبكِى السماءُ بمُزنٍ رائحٍ غادِى على البهاليلِ مِن ابناءِ عبَّادِ
على الجبالِ التى هُدَّت قواعدُها وكانتِ الأرضُ منهم ذاتَ أوتادِ
عَريسةٌ دخلتْها النائباتُ علَى أساودٍ لهم فيها وآسادِ
وكعبةٌ كانت الآمالُ تخدمُها فاليومَ لا عاكفٌ فيها ولا بَادِ
يا ضيفُ أقفرَ بيتُ المَكْرُمات فخُذْ فى لمِّ رحلك واجمعْ فَضلةَ الزَّادِ
ويا مؤمِّلَ واديهم ليسكنَه خفَّ القطينُ وجفَّ الزرعُ بالوادِى
وانتَ يا فارسَ الخيلِ التى جعَلَتْ تختالُ فى عُدَدٍ منها وأعدَادِ
ألقِ السِّلاح وخلِّ المشرفِيَّ فقد اصبحْتُ فى لهواتِ الضيغمِ العادِى
لمَّا دنَا الوقتُ لم تُخلَفْ له عِدَةٌ وكلُّ شىءٍ لميقاتٍ وميعادِ
إنْ يُخلَعُوا فبنُو العبَّاسِ(*) قد خُلِعوا وقد خلَتْ قبلَ حمصٍ أرضُ بغدادِ
سِيقوا علَى نسَقٍ فى حبلِ مُقتَادِ

(*) يقصد تغلب العنصر الفارسى والتركى على خلفاء العباسيين .

حمُوا حريمَهُمو حتى إذا غُلِبُوا فُويقَ دُهْمٍ لتلكَ الخيلِ أنداد
وأُنزِلوا فى مُتون الشُّهب واحتُمِلوا وصارخٍ من مفداةٍ ومنْ فادى
حانَ الوَداعُ فضجَّت كلُّ صارخةٍ كأنَّها إبلٌ يحدُو بها الحَادى
سارَتْ سفائنُهم والنَّوحُ يصحبُها

ويمر ابن اللبانة بعد النكبة بأحد أبناء المعتمد الملقَّب بفخر الدولة ، وهو الذى كان يُعدُّه والده للحكم من بعده ، يمرُّ عليه ابن اللبانة وهو يعمل بدكان صائغ فى أغمات بالمغرب فيهُوله ما صار أمره إليه ، وتسودُّ الدنيا فى عينيه ، فيرسل زفراته شعرًا مؤثرًا يقول فيه :

أذكَى القلوبَ أىَ أبكَى القلوبَ دمَا خطبٌ وجدنَاك فيه تُشبهُ العَدَما
افراد عِقْد المُنَى منَّا قد انتَثَرَتْ وعِقْدُ عُروتنا الوُثْقَى قد انفصَمَا
شَكَاتُنا فيكَ يا فخرَ الهُدَى عظمَتْ والرُّزْءُ يعظُم فيمَنْ قدْرُه عظُمَا
طُوِّقْتَ من نائباتِ الدَّهرِ مُخنَقَةً ضاقَتْ عليك وكم طوَّقْتنَا نِعَما
وعادَ كَونُك فى دُكَّانِ قارعةٍ منْ بعدِ ما كُنْتَ فى قصرٍ حكَى إرمَا
صَرفْتَ فى آلةِ الصَّوَّاغِ أنملةً لم تدرِ إلاَّ النَّدَى والسيفَ والقَلَمَا
يدٌ عهدتُك للتقبيلِ تبسُطُها فتستقلُّ الثُّريَّا انْ تكُونَ فَمَا
ما حطَّكَ الدَّهرُ لمَّا حطَّ من شرَفٍ ولا تحيَّفَ منْ أخلاقِكَ الكَرَمَا

■●■●■
■●■
■

معركة أقليش أو (أقليج)

(٥٠١هـ - ١١٠٨م)

يعتبر كثير من المؤرخين المسلمين جواز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس إنقاذاً للإسلام الذى كان يحتضر فى شبه جزيرة أيبريا ، كما يعتبرون تغلُّبه على ملوك الطوائف وبسط سلطانه على ممالكهم تجديداً لجذوة الإسلام فى تلك البلاد . ويوسف بن تاشفين هو أحد الرجال الأفذاذ الذين اصطفتهم يد القدرة لتغيير سير الحوادث فى التاريخ ، فجمع شمل بربر أفريقية الذين كانوا ممزقين شر ممزّق ، وكوَّن منهم مملكة عظيمة مترامية الأطراف ، وأضاف بحروبه فى أسبانيا ضد المسلمين والنصارى (ومن أجلّها معركة الزلاَّقة) أضاف إلى رقعة مملكته ممالك أخرى جعلتها تمتد من المحيط الأطلنطى غرباً إلى مصر شرقاً وفى أسبانيا من نهر أيبرو إلى مصب نهر الوادى الكبير وفى أفريقيا من شاطئ البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنطى شمالاً إلى نهر النيجر وساحل العاج جنوباً .

وبعد أن آل أمر الأندلس إلى المرابطين واستتب لهم الأمر ، جاز يوسف المضيق إليها حاملاً بين طياته كثيراً من المخططات التى ستوطد حكمه لتلك البلاد وكان ذلك فى سنة ٤٩٦هـ (١١٠٣م) أى بعد استرداده بلنسيَّة من الأسبانيين ، فلم يكن عبوره استعداداً للحرب والنزال ، وإنما كان يستهدف إدارة شئون البلاد المفتوحة إدارة حسنة ، واصطحب معه ابنيه أبا الطاهر وعليا أبا الحسن ، وكان يؤثر ابنه الأصغر علياً لا عتقاده أنه هو الأحق بالرعاية والعناية ، لِما كان يتوسم فيه من المواهب والخلال النتى تؤهله لولاية الأمر بعد والده .

وما إن عبر يوسف المضيق حتى اتجه تلقاء قرطبة حيث جمع العلماء والفقهاء ووجهاء القوم ، وأعلن فيهم أنه عهد بالإمارة من بعده إلى ابنه على ، فبايعوه على

ما عقد العزم عليه ، وكتبوا بهذه المبايعة وثيقة توضح شرح النقط الأساسية المتعلقة بولى العهد ، وما يسند إليه من الأمور .

وبعد أن أقسم الأمير أمام الجماعة لوالده بالتزام الشروط التى بويع بمقتضاها ، وضع الكاتب وثيقة أخرى جاء فيها أن الجماعة كلها أقرت هذا ، وشهد على ذلك الحاضرون بالأصالة عن أنفسم وبالنيابة عن الغائبين وبعد أن أقر الأمير الشروط الموضوعة لولاية العهد وقبلها ، أمضى له الكاتب إشهادًا بذلك ، وكان إعلان هذه البيعة فى شهر ذى الحجة سنة ٤٩٦هـ (١١٠٣م) وقد اتخذ يوسف كل الاحتياطات التى من شأنها أن توطد لابنه من بعده قدميه ، وأن تقوى عضده إزاء كل عقبة تعترضه ، شأن كل سلطان محنك لا يريد أن يفارق الدنيا من غير أن يورِّث من بعده خلفًا يرفع ذكره ، ويثبِّت دعائم أسرته فى الحكم . ولما انتهى يوسف من تنظيم شئون الأندلس عاد إلى أفريقية ، حيث بقى فى الحكم بضعة أعوام ولكن داء الشيخوخة تغلب عليه ففاضت روحه إلى بارئها « فتوفى فى قصره بمراكش فى المحرم سنة خمسمائة (سبتمبر/ ١١٠٦م) وقد بلغ من العمر نحو مائة عام بعد حياة طويلة وحكم حافل بجلائل الأعمال » .

وبعد وفاة يوسف نُودِى بابنه علىٍّ أميرًا للمسلمين ودُعِىَ له فى الصلاة فى سائر مساجد أفريقية والأندلس ، ولم يتخلف عن البيعة سوى أهل فاس الذين كان يلى أمرهم ابن أخيه يحيى بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين ، فسار إليهم وقاتلهم حتى أذعنوا لسلطانه راغمين . ولم يكن الأمير على جاوز الثانية والعشرين من عمره حين ولى الأمر بعد وفاة والده . إلاّ أنه كان فتى جريئًا مغامرًا أنوفًا ، وقد سار على نهج والده فى الاستعانة برجال الدين وأخذ مشورتهم عندما يشكل عليه أمر من الأمور . فيقول المؤرخون فى حقه إنه كان ذا صفات حميدة وخلال نبيلة وسعة أفق ورقة طبع .

وعبر علىٌّ إلى أسبانيا عدة مرات كان أولها لاستتباب الأمن وترسيخ قواعد حكمه للبلاد الأندلسية ، وتجديد البيعة له فى أنحائها . وفى عام ٥٠١ هـ (أواخر

عام ١١٠٧م أى مشارف عام ١١٠٨م) عبر إلى شبه الجزيرة مرة أخرى ، ويقول المؤرخ يوسف أشباخ « بيد أنه كان ينوى عندئذ أن يشهر الحرب على النصارى الأسبان ، بكل ما وهب من عزم وقوة ، وعهد بالقيادة العليا إلى أخيه الأكبر تميم أبى الطاهر الذى عيّنه واليًا لأشبيلية ، فخرج تميم من غرناطة على رأس جيش ضخم متجهًا إلى حدود النصارى ، وكان يضطرم رغبة فى أن يدلّل فى الحرب على أنه لم يكن أقل صلاحية لولاية العرش من أخيه لو شاء ذلك أبوه ، وحالت دون تقدمه فى قلب قشتالة قلعة أقليش (أو أقليج) المنيعة فضرب حولها الحصار فى الحال » .

وفى هذا الوقت بلغ الملك الفونسو السادس أرذل العمر ، فحالت الشيخوخة بينه وبين مدافعة أعدائه عن البلاد فرأى نزولاً على رأى بطانته ، أن يرسل إلى الميدان ابنه الوحيد سانشو ، ويذكر المؤرخ يوسف أشباخ أن سانشو لم يكن قد جاوز الحادية عشرة من عمره آنئذ ، وقد أرسل معه من الرجال الذين يثق فيهم ليكونوا عونًا له فى حلّه وترحاله .

ولما - تراءت الفئتان تردد أبو الطاهر فى منازلة أعدائه وأراد أن يرتدَّ رافعًا الحصار عن القلعة الحصينة ، حتى لا يورط جيشه فى معركة لا يعرف مداها ، إلا أن المرابطين ألحُّوا عليه بعدم الارتداد ، ونصحوه بأن يخوض معهم معركة حياة أو موت ، لأن ارتداده سيتيح لأعدائه اصطلام جيشه عن آخره ، ولأنه قد سُدَّت أمامه جميع السبل إلى الفرار ، ويصف لنا المؤرخ المذكور تلك الموقعة بقوله « وعند الفجر هجم المسلمون على القشتاليين فى فيض من الشجاعة والعنف ، ولم يستطع النصارى أن يصمدوا لهجوم يحدوه اليأس ، فاضطروا إلى الارتداد ، رغم شجاعتهم ورباطة جأشهم ومن سوء الطالع أن ازدلف الأمير الفتى شانسو فى قلب المعمعة فبادر إليه الأعداء متحمسين ، وتقدم الكونت غرسيه ملكه يدرأ عنه الخطر بدرعه ، ويحاول إنقاذه ما وسعه الجهد ، فلم يغن دفاعه شيئًا وسقط الكونت ضحية واجبه ، وسقط إلى جانبه وريث مملكة قشتالة وما كاد يذاع بين النصارى أن شانسو قد

سقط حتى ركنوا إلى الفرار أشتاتًا وقتل الظافرون منهم مقتلة عظيمة وانتهزوا فرصة الروع السائد فاستولوا على إقليش وسقط فى ميدان الحرب عشرون ألفًا من النصارى وسبعة من كونتات قشتالة »

دروس وعــبر :

هذا هو الوصف الموجز لأحداث معركة أقليش التى انتصر فيها المرابطون فى عام ٥٠١هـ وهو اليوم التاسع والعشرون من شهر مايو ١١٠٨م . وقد اعتبر المؤرخون هذه المعركة ذروة انتصار المرابطين فى أسبانيا ، إذ بدا نجمهم بعد هذه المعركة يأخذ فى الأفول شيئًا فشيئًا ، حيث أخذت الثورات تمزق هذه الأمبراطورية فى أنحائها الشاسعة حتى انتهى سلطانهم تمامًا وقامت بعدهم دولة الموحدين .

ومن هذه المعركة يمكننا أن نستخلص النتائج التالية

١ - إن أيلولة الأمر إلى يوسف بن تاشفين فى الأندلس وشمال أفريقية جعل من دولته دولة قوية الجانب . يهابها الأعداء ويخشون بأسها وذلك راجع إلى كياسته وحزمه وعزمه

٢ - إنه قد أحسن اختيار خلفه من بعده وأمكنه أن يترك من يسد الثغرة التى ستنشق بعد وفاته وقد سقاه من المعين الذى شرب منه ودربه على جميع المسئوليات التى كانت منوطة به .

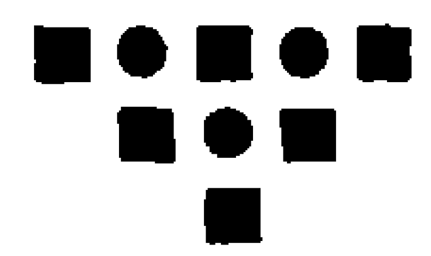
٣ - إن انتصار المرابطين فى معركة أقليش كان من أسبابه ما يأتى :

(أ) قوة العزيمة الصادقة والشعور بالثأر ممن عاشوا فى بلاد المسلمين وأحالوها إلى أنقاض ومثَّلوا بمن فيها أبشع تمثيل .

(ب) انتهاء نوازع الفرقة والشحناء بينهم وذلك بالقضاء على ملوك الطوائف ومحو الأسباب التى كانت تشعل الفتنة بين العرب والبربر فى الأندلس .

(جـ) إن معركة أقليش كانت معركة انتحارية بالنسبة للمسلمين لأنهم كانوا قد كدهم النزاع شهوراً طوالاً ، وأجهدهم الجهاد ، ووقوفهم أمام تلك القلعة فى حالة استعداد دائم ، وتأهب مستمر لدخولها ، وعدم إمكانهم الحصول على الإمدادات ، ولم تكن المؤن طوع إرادتهم كل هذا دفعهم إلى أن يستميتوا فى القتال ، سيما وأنهم قد جابههم عدوهم من حيث لم يحتسبوا ولم يتح لهم فرصة للفرار .

(د) إن الأمير على قد أحسن اختيار القائد الذى أمكنه قيادة الجند وتحقيق انتصار ساحق على الأعداء وذلك بدافع إبراز الذات والتدليل على أحقيته (أى أبى الطاهر) بأنه أهل لمسئوليات أجل من مسئولية خوض معركة فقط .



حروب النصارى الأسبان ضد المسلمين
من معركة أقليش حتى قيام دولة الموحّدين

الحروب الصليبية فى أسبانيا :

بعد وفاة الملك الفونسو السادس لم يظهر فى أسبانيا المسيحية ملك يضاهيه سوى الفونسو الأرجونى أو الفونسو المحارب ، وهو الذى خلف أخاه (بيدرو) على عرش أراجون سنة ١١٠٥م ، ولا يعتبره المؤرخون نِداً لألفونسو السادس فحسب بل يزعم بعض المؤرخين الأوربيين أنه أقوى شخصية ظهرت على مسرح الأحداث ، فى تلك الحقبة من التاريخ منذ عهد (بلايو) مؤسس أول إمارة مسيحية فى أسبانيا عقب فتح العرب لها .

وقد سبق هذا الملك سلفه بيدرو الذى عاهد البابا وملوك أوربا الآخرين على إشعال نار حرب صليبية ضد المسلمين فى أسبانيا المسلمة ، فى الوقت الذى كانت حملات الصليبيين تتجه صوب المشرق العربى لأول مرة ، فحاصر سرقسطة وأراد الاستيلاء على بلنسيّة إلاّ أنه أخفق فى ذلك المأرب . وقد تُوِّج ألفونسو الأراجونى بعد وفاة أخيه باعتباره الوارث الشرعى الوحيد من بعده ، وعمل منذ تولِّيه الحكم على تحقيق ما أخفق فيه سلفه ، وهو الاستيلاء على سرقسطة ، وزحفت قواته تجاه تطيلة فاستولت عليها فى سنة ١١١٠م (رجب ٥٠٣ هـ) بعد أن أبلى أهلوها بلاءً حسنًا ، بقيادة المستعين بالله بن هود أمير سرقسطة الذى سقط شهيدًا بعد جهاد جهيد وصبر عنيد . إلا أن خلفه عماد الدولة استطاع استعادة هذه المدينة بمساعدة المرابطين الذين بثوا الرعب فى قلب أسبانيا النصرانية وهددوا عاصمتها طليطلة ، واستولوا على كثير من المعاقل الحربية وعلى مدن مجريط مدريد ووادى الحجارة وطلبيرة وغيرها . وفى نفس الوقت الذى كان على بن تاشفين يزحف تجاه طليطلة ، كان المرابطون بقيادة الأمير سيَر بن أبى بكر يقاتلون فى البرتغال أميرها الكونت

هنرى ، وافتتحوا عدة مدن بها وهددوا قلمرِّية العاصمة . وفى نفس الوقت أيضًا كان جيش ثالث بقيادة والى مرسية قد حاصر برشلونة مدى عشرين يومًا ، ولم يرفع المسلمون الحصار عنها إلاَّ بعد أن فوجئوا بالفونسو فى جيش زاخر ، فاشتبكوا معه وأثخن كل منهما فى الآخر دون أن يحرز أىٌّ منهما انتصارًا على عدوه ، فغادرها المسلمون بعد أن عاثوا فيها .

وهكذا استمرت الحرب سجالاً بين الفريقين فهى بين مدٌّ وجزر دائمين . وكان كل من الأسبانيين والمرابطين يحاول أن ينتهز الفرصة السانحة للقضاء على خصمه. ويسجل التاريخ أن الأعداد العسكرية كانت ترد إلى أسبانيا المسيحية من جميع دول أوربا الأخرى ، طمعًا فى نيل ثواب الجهاد ضد المسلمين وأملاً فى جمع الغنائم ، بعد أن يعيثوا فى كل مدينة يستولون عليها ، ويأتون على ما فيها ومن فيها فلا يتركون فيها أخضر ولا يابسًا . ويقول المؤرخ يوسف أشباخ « وفى سنة ١١١٤م ٥٠٨ هـ سار الكونت برش إلى تطيلة فى قوة من الفرسان الفرنسيين والإنجليز ، وكان هؤلاء يهرعون إلى مقاتلة المسلمين لبواعث دينية ، ولتحقيق المغانم الدنيوية ، واستولى عليها بالخديعة وأقطعه الملك إياها على جزية ، ورغب النصارى فى سكناها بمنحهم بعض الامتيازات ، فوفد عليها كثير منهم فى وقت قصير » .

سقوط سرقسطة ثانى معاقل المسلمين فى الأندلس بعد طليطلة :

كان الفونسو الأراجونى يمنِّى نفسه دائمًا بالاستيلاء على سرقسطة ، كما كان سلفه الفونسو السادس يتطلع إلى الاستيلاء على طليطلة من قبل . لأن سرقسطة ذات موقع استراتيجى هام ، ولأنها كانت تعتبر مفتاح البلاد الإسلامية الأخرى ، لا سيما وأنها واقعة على نهر إيبرو الذى لا يستطيع الفونسو الاستغناء عنه فى الملاحة، وقد عجل الخلاف الذى دب بين أميرها عبد الملك بن هود وأمير المرابطين فى الأندلس أبو محمد عبد الله بن مزدلى ، عجل بتحقيق أمنية الفونسو ، إذ انسحب ابن هود إلى قلعة روطة ، على أثر الخلاف الذى نشب بينهما وتحالف مع أعدائه ضد المرابطين، فاستولى الأسبانيون على سرقسطة ولا ردة فى سنة ٥١٢ هـ، ١١١٧م، وطبقًا للاتفاق المعقود بين ابن هود والفونسو سُلِّمت المدينة لابن هود بعد أن

أمنًا جانب عدوهما المشترك ، ولكن سرعان ما دبَّ الخلاف بين الحليفين فاشتعلت نيران الحرب بين الفريقين ، وحاصر الفونسو سرقسطة بقوة هائلة من الجند ، حتى إذا استيأس أهلها وظنوا أنهم لا محالة واقعون فى قبضة عدو لا يرحم ، فاوضوه فى أمر التسليم على أن يؤمِّنهم على أرواحهم وأموالهم ، فقبل ذلك منهم فدخلها وعاث فيها وضرب بالعهد عرض الحائط ، ففر مَن فرَّ وبقى من بَقِى ، انتظارًا لمصيره المؤلم . وهكذا انهار ثانى معاقل المسلمين فى أسبانيا ، بعد أن لبث فى قبضتهم أربعمائة عام ، وحُوِّل مسجد سرقسطة الجامع إلى كنيسة ، وجعل منها مركزًا للأسقفية واتخذت عاصمة لملكة أراجون . وكانت قد نشبت بين المسلمين والأسبان معركة دموية رهيبة عند قلعة أيوب ، تغلب فيها الذعر على اليقين والثبات، فاستسلم المسلمون لأعدائهم بعد أن ترامت إلى أسماعهم أنباء الفاجعة العظمى ألاّ وهى سقوط سرقسطة فى قبضة الفونسو .

ويقول يوسف أشباخ « وجاز على بن تاشفين بنفسه إلى أسبانيا فى سنة ١١٢١م وهو يضطرم ألمًا لهذه المحن ، وغزا أراضى طليطلة والبرتغال وأثخن فيها ، واستولى على قلعة قلمرِّية الهامة وأتى على جميع سكانها النصارى قتلاً وأسرًا ، وهى واقعة لم تشر إليها الرواية النصرانية ، بيد أن ذلك كله لم يكن إلا تعويضًا زهيدًا لما أصاب الإسلام » ويذكر المؤرخ المذكور أنه منذ ذلك الحين بدأ طالع المرابطين يغرب شيئًا فشيئًا .

ظهور أبو عبد الله بن تومرت (المهدى) مؤسس دولة الموحّدين :

هو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن تومرت ، ينتسب إلى قبيلة مصمودة من قبائل المغرب العربية وقد ظهر هذا الرجل فى عهد على بن يوسف بن تاشفين ، وقد تتلمذ على يدى الإمام أبى حامد الغزالى (حجة الإسلام) وروَّى ظمأه من ينابيع علمه الغزير ، وحمَل رسالته من بغداد إلى المغرب الأقصى ، حملها بلسانه أولاً ثم حملها بسيفه ثانيًا ، انتصافًا ممّن أساءوا إلى إمامه الأشهر ، فقد سعى العلماء والفقهاء لدى الأمير علىّ وأكدوا له أن كتاب الإمام الغزالى (إحياء علوم الدين) ناشز عن السنة المحمدية ، فأمر بإحراقه أينما وجد ، وقد تأثر الإمام

الغزالي رحمه الله حين بلغه ذلك الخبر ، فرفع يديه إلى السماء وهو يقول (اللهم مزِّق ملكهم كما مزقوه . وأذهب دولتهم كما أحرقوه) ويقال أن ابن تومرت رجا الإمام أن يدعو الله أن تتحقق هذه الدعوة المستجابة على يديه ففعل .

ولما عاد أبو عبد الله إلى مراكش ، التفت حول دروسه جمهرة المصلين ، في كل مسجد يحل به ، وكان لا يخشى غضب ولي الأمر فيما يوجهه إليه وإلى أتباعه من نقدات ، حتى إنه لم يأبه بقدوم الأمير إلى المسجد لأداء الصلاة ، ولما حاول سدنة المسجد أن يلفتوا نظره إلى التأهب للقائه غض بصره ، كأن الأمر لا يعنيه وقرأ قوله تعالى ﴿ وأنَّ المساجدَ لله فلا تَدْعُوا مع اللهِ أحداً ﴾ وأخذ يشرح هذه الآية في ثبات ورباطة جأش ، وقوة عقيدة ورسوخ إيمان . ولما أن هم الأمير بالخروج لم يسرع إلى تقبيل يديه ، وإنَّما دعاه بلغة عنيفة أن يرفع الظلم عن المظلومين ويقضي حوائج المعدمين . وأن يزيل الحجاب بينه وبين الرعية وحسبَ الأمير أن هذا ولي من الأولياء الصالحين ، لا ينبغي مؤاخذته فيما يقول .

ولكنه بعد أوبته إلى قصره اهتم بأمره أيّما اهتمام ، حتى أصبح شغله الشاغل لما زاد تعلق الناس به في المساجد وفي الميادين العامة ، حيث كان يحمل حملة شعواء على البدع والملاذ الدنيوية وبعد الناس عن أوامر الدين ، ونواهيه وعدم اهتمام الأمراء برعيتهم ، فاستشار مستشاريه في أمر هذا الرجل فنصحوه بأن يزج به في غياهب السجن ، قبل أن يستفحل شأنه ويأتي اليوم الذي يستطيع فيه قيادة الجماهير ضده ، ولكن الوزير عثمان بن عمر عارض هذا الرأي ، وكان أثير الكلمة عنده ، وكان يرى عدم الاهتمام بأمره لأنه كان يعتبره رجلاً حقيرًا يؤلب العامة على الأغنياء ، ورأى أن دعوته لا تلبث أن تخمد جذوتُها ، ولا خوف على الإمارة أو ولي الأمر منه ، إلاَّ أن الأمير رأى إبعاده عن مراكش اتقاء لشره ، ولكن إلى حين ثم عاد الأمير إلى تشديد النكير على هذا الداعية ، وواجهه بالعلماء والفقهاء الذين يجالسونه ويستفتيهم في شتى الأمور ، وحاول أن يتغلب عليه بالحجة بعد أن أخفق في التغلب عليه بالنفي والمطاردة ، إلاَّ أنه لم يجد بدًا من العودة إلى السبيل الأولى ، وهي استعمال أقصى أنواع القهر والحرمان والتشريد ، ويقول المؤرخ يوسف أشباخ

« وما إن بدأت مطاردة أبى عبد الله بن تومرت على هذا النحو حتى كُتب النجاح لقضيته ، ذلك أنه سار برفقة عبد المؤمن وزيره وأخلص تلاميذه إلى موضع منعزل ، بقرب مراكش وابتنى له كوخًا بين القبور ، فهُرِعت إليه جموع غفيرة من الناس ، تطلب الاستماع إليه ، والتقى حوله ألف وخمسمائة رجل ، كانوا على استعداد دائم لأن يعملوا كل شيئ ، وأن يحتملوا كل شيئ فى سبيل أستاذهم وسيدهم » ومنذ ذلك الحين أخذت جذوة الثورة التى أشعلها ابن تومرت تزداد شيئًا فشيئًا . ولما أحسّ الأمير علىّ بهذا الخطر الداهم ، أصدر أوامره بالقبض عليه وإعدامه قبل أن يستشرى داؤه فى البلاد ، غير أن أبا عبد الله فطن إلى ما اعتزمه الأمير ففر هاربًا تلقاء مدينة تينمل ، حيث تحصَّن بها وأعلن أنه المهدى المنتظر ، الذى ورد اسمه فى الحديث الشريف وأنه منقذ الإنسانية من جور الحكام وفساد حكمهم ، وبايعه على أداء رسالته عشرة من تلاميذه الأصفياء ، تحت شجرة خرنوب تيمنا ببيعة الأنصار والمهاجرين للنبى صلَّى الله عليه وسلَّم ، تحت الشجرة التى ورد ذكرها فى سورة الفتح . ثم بايعه من الدرجة الثانية خمسون رجلاً ، ومن الدرجة الثالثة سبعون رجلاً وكوَّن حكومة لها نظامها الخاص .

وولَّى العشرة المصطفَيْنَ مقاليد الحكم فى دولته وأوكل إليهم الأمور الجسام ، وقد تكاثر أشياعه وزادوا على عشرين ألف رجل ، وقد تخيَّر منهم للحرب عشرة آلاف رجل ، واتخذ له راية بيضاء وهى على عكس راية المرابطين . وكان على ابن تاشفين فى الأندلس يحارب النصارى آنئذ ، وقد بلغه ما وصلت إليه دعوة ابن تومرت من الانتعاش والازدهار ، وساءه ما اعتزمه خصمه وهو الإطاحة بسلطان المرابطين وتمزيق عُرَى دولتهم . فلم يجد بدًا من منازلته والقضاء عليه . غير أن الموحِّدين (وهم الذين اتحدوا من أجل إعلاء كلمة الله) استطاعوا أن يقضوا قضاء مبرمًا على الجيوش الثلاثة التى أُرسلت لمحاربتهم (سنة ٥٢٤ هـ) وكان الجيش الأول بقيادة ابن أمير المرابطين ويدعى الأمير أبو بكر ، وقد استولى الذعر على أفراد هذا الجيش قبل الاشتباك مع خصمهم ، ثم ولوا من الميدان مدبرين . أما الجيش الثانى الذى أرسله المرابطون فقد هزم هزيمة نكراء على يد القائد

أبى محمد البشير قائد الموحِّدين ، وهنا وجد الأمير علىّ أنه لا مناص من استدعاء القائد المظفر أبى الطاهر تميم وهو شقيقه الذى قاد جيوشه ضد النصارى فى حروب طاحنة أسفرت عن انتصارات ساحقة للمرابطين على أعدائهم ، غير أن هذا الجيش لم يكن بأحسن حظًا من الجيشين السالفين فى الثبات والإقدام - أمام الموحدين - فركن أفراده إلى الفرار بأرواحهم ، بعد أن هلك كثير منهم فى المفاوز والقفار ظمأ وجوعًا .

وقد شجعت هذه الانتصارات التى أحرزها الموحدون على أعدائهم ، شجعتهم على التأهب لغزو مراكش عاصمة المرابطين ، ولما علم بهم الأمير علىّ سيَّر إليهم قوة ضاربة قوامها مائة ألف مقاتل ، بينما كان رجال الموحدين لا يزيدون على أربعين ألفًا ، ورغم هذه القلة فى العدد والمعدات ، استطاعوا أن يكسروا شوكة أعدائهم فهزتهم نشوة الانتصار وتقدموا لمحاصرة مراكش ، والاستيلاء عليها عنوة ، غير أنهم مُنوا بهزيمة مروِّعة ، وقتل قائدهم أبو محمد البشير وخمسة من الأصفياء والمقرَّبين لدى المهدى الذى كان طريح الفراش آنئذ ، وقد قال قولة مشهورة عندما رجعت فلول الموحِّدين مولِّية الأدبار (ما دام عبد المؤمن حيًا فإن لنا الغلبة إن شاء الله) .

ولما فرغ الأمير علىّ من قتال الموحدين وأمِن جانبهم ، اتجه بقواته صوب الأندلس لقتال الفونسو الأراجونى ، وهو الذى لُقِّب بالفونسو المحارب لكثرة الحروب التى خاضها ضد العرب ، وكان آنئذ قد ضرب الحصار حول غرناطة للاستيلاء عليها فعمل المرابطون على تغريب النصارى المعاهدين من الأندلس إلى مجاهل أفريقية ، حتى لا يكونوا حربة تطعنهم من الظهر ، وهم يخوضون الحرب ضد الأسبانيين الغزاة .

حروب عبد المؤمن بن علىّ قائد الموحدين ضد ملوك المرابطين :

لم ييأس المهدى من النصر وهو على فراش الموت حينما بلغه خبر الهزيمة الساحقة التى مُنِىَ بها الموحِّدين ، وإنما طمأن أصحابه بأن الغلبة لهم ما دام على قيد الحياة رجال يحسنون القيادة من بعده ، وخص منهم عبد المؤمن بن على ،

وسرعان ما أرسله على رأس جيش تعداده ثلاثون ألف رجل ثم عادت سلطته على معظم القبائل التى تنكرت له قبلاً ، فشجعه ذلك على لقاء المرابطين الذين بلغت جيوشهم مائة ألف رجل ، ونشبت بين الفريقين معارك عديدة استطاع الموحدون فى نهايتها أن يهزموا عدوهم ، ويجبروه على الفرار ، وطاردوا فلولهم المنهزمة حتى أسوار مراكش ، وضربوا الحصار حولها فى الحال إلاّ أن عبد المؤمن اعتبر بنتيجة الحصار الأول لمراكش ، فشد رحاله إلى (تينمل) عاصمة الموحِّدين فلقى سيده يحتضر على فراشه حيث ألقى عليه آخر نظرة وودعه الوداع الأخير فى رمضان ٥٢٤ هـ .

وبعد وفاة المهدى اجتمع الأئمة الأربعة من الأصفياء العشرة وجماعة الخمسين وجماعة السبعين لاختيار زعيم آخر خلفًا للمهدى ، وقد اجتمعت كلمتهم على تولية عبد المؤمن قائدًا لهم ، ولم يتخلف عن البيعة أحد منهم . فلقِّب بالخليفة وأمير المؤمنين ، ويذكر بعض المؤرخين أن عبد المؤمن أخفى وفاة المهدى على أصحابه وتولّى شئون الدولة باسمه ثلاثة أعوام ، وكان فى خلال هذه الأعوام الثلاثة قد أعد شبِلاً روَّضة على الجلوس معه ، وعصفورًا دربه على النطق بالعربية ، وما زال يتعهد هذا العصفور وذلك الشبل حتى أصبحا ملازمين له أينما حل . وفى اليوم الذى صدع فيه بوفاة المهدى كان قد أعد العصفور لينطق بجملة يدخل بها الروع فى قلوب معارضيه فى ولاية الأمر ، كما درب الشبل على مجابهة الجالسين ومهاجمتهم كما لو كان فى غابة ، وذلك ليؤكد لهم أنه مؤيَّد بقوى خارقة تجعل الحيوان الكاسر ينصاع لها ، فأخبرهم بوفاة المهدى وقبل أن يطلب منهم مبايعتة فتح باب الشبل على مصراعيه فخرج فاغرًا فاه يريد أن ينقض على كل من بالمجلس ، ولكنه سرعان ما ربِّت على رقبته واقتاده إلى مثواه ثانية ، وفى نفس الوقت فوجئ القاعدون بالعصفور ينطق بلهجة عربية فصيحة (النصر والتمكين للخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين سند المملكة وناصرها) وفى هذا المعنى قال شاعر الموحِّدين أبو على :

أنِسَ الشبلُ ابتهاجًا بالأسدْ ... ورأى شِبهَ أبيه فقصدْ

ودعا الطائر بالنّصر لكم ... فقضَى حقَّكمو لما وفَدْ

انطق الخالقُ مخلوقاتِه بالشهادات فكلٌّ قد شهِدْ
أنك القائمُ بالأمر لهُ بعد ما طالَ على النَّاسِ أمدْ

ومنذ أن وطَّد عبد المؤمن دعائم حكمه فى البلاد قاد رجاله فى معارك حامية الوطيس ضد المرابطين ، وأحرز عليهم انتصارات ساحقة ، جعلته يتقدم بخطوات سريعة نحو احتلال أراضى الامبراطورية المنهارة ، حتى أمكنه محاصرة مراكش عاصمتهم للمرة الثالثة ، وفى هذا الموقف الراهن دعا علىٌّ ابنَه تاشفين من الأندلس لمناصرته ضد الموحِّدين وقد كان تاشفين قائدًا مغوارًا ، أحرز انتصارات عديدة على الأسبانيين فاصطحب معه فرقًا ضخمة من الجنود المرابطة ومن النصارى المعاهدين، ليمكنه تخليص مملكة أبيه من الانهيار بفعل الثورة العارمة التى قادها الموحِّدون ، والتى توشك أن تقضى على البقية الباقية من سلطانهم فى أفريقية . ولكن الأمل الكبير الذى كان يعلقه الأمير على تلك الجيوش لم يتحقَّق ، إذ باءت بالفشل الذريع أمام ضربات عبد المؤمن ورجاله ، الذين كانوا يقاتلون بضراوة منقطعة النظير . وهنالك خابت مساعى الأمير الشيخ علىّ بن تاشفين كما خابت آماله باستعادة سلطانه فاشتد حزنه إلى أن مات حرَضًا ، حيث لفظ أنفاسه الأخيرة فى رجب سنة ٥٣٧ هـ وكان قد ناهز التاسعة والخمسين من العمر .

فخلفه من بعْده ابنه تاشفين وبايعه على الطاعة والولاء كبراء مملكته وبعث إلى زعماء الأندلس يخبرهم بأيلولة الأمر إليه ، طالبًا منهم سرعة مبايعته وإعلان الولاء له فبادروا إلى تلبية طلبه ، وعلى رأسهم أبو زكريا يحيى بن غانية وعثمان بن أضحى وعمه على بن أبى بكر . وقد حارب تاشفين الموحِّدين ببسالة وشجاعة نادرة وهزمهم هزائم متلاحقة فى مستهل إمارته ، فكان يخرج بقواته إلى البسائط المحيطة بمراكش فيلتقى بهم فيها ، فيكيل لهم ضربات صارمة إلاَّ أن هذه الانتصارات لم تكتمل بنصر مؤزَّر ساحق على أعدائه ، إذ استطاعوا أن يستفيدوا من وعورة الجبال وخبرتهم فى ارتيادها ، كما استفادوا من خبرتهم بالعيش فى الكهوف المجهولة ، وتخزينهم المؤن التى يقاتلون بها طيلة فترة الشتاء القارص ، بينما يتعرض أعداؤهم لبرودته الشديدة وعدم إمكانهم الولوج إلى تلك الكهوف .

ولما استنفد المرابطون ما معهم من مؤن وذخيرة كر عليهم الموحِّدون كرة ظافرة، فأنزلوا بهم خسائر فادحة وفرَّت جموعهم صوب قلعة تلمسان وبعضها تشتت فى القفار القاحلة ، ومات الكثيرون منهم وهم يتضوَّرون جوعًا وظمأ ، ولم ييأس تاشفين من النصر وإنما بعث إلى ابنه أبى إسحاق إبراهيم يستدعيه من الأندلس لنجدته ، فوافاه بقوات ضارية ولكن المرابطين فى هذه الجولة رغم ضخامتهم عددًا وعُدَّة لم يستطيعوا الصمود أمام عدوهم فولوا مدبرين .

واستطاع الموحِّدون عقب انتصاراتهم الباهرة أن يستولوا على تلمسان ثم على وهران بعد أن سقط تاشفين ميتًا ، وهو يحاول الهرب إلى الأندلس فى نهاية عام ٥٣٩ هـ ثم بويع بالإمارة من بعده ابنه إبراهيم ، وثار عليه عمُّه إسحاق بن على فوجهت لقواته ضربات من جانبين ، مما عجل بسقوط دولة المرابطين فى أفريقية ثم فى الأندلس .

وقد أُهرقت أنهار من الدماء فى الحروب التى خاضها المرابطون ضد الموحدين، ومُثِّل بالسكان الآمنين أبشع تمثيل ويذكر المؤرخ يوسف أشباخ : أن قوات عبد المؤمن بن على قد أزهقت أرواح مائة ألف نسمة من سكان تلمسان ، عقب استيلائه عليها ، كما أنه قد قتل معظم سكان مدينة فاس العاصمة الثانية للمرابطين بعد مراكش ، ثم لما أن ضرب عبد المؤمن الحصار حول مراكش للمرة الرابعة كانت تزخر بأكبر عدد مقارنًا بالسكان الذين يقطنون أىَّ مدينة تجاورها ، فأتى حصاره لتلك المدينة بالويل والثبور لسكانها الآمنين ، فمات أكثرهم وهم يتعطشون لقطرة ماء ويتضورون جوعًا ، وأكثرهم مات هلعًا وفزعًا .

ويقول « علَى أنَّ مراكش نظرًا لضخامة سكانها لم تلبث أن شعرت بنقص الأقوات ، واشتدَّ الأمر حتى أكلت الأطعمة الفاسدة والرديئة ، بل أكلت الجثث البشرية وأكل السجناء بعضهم بعضًا ، واقتضى الجوع والضيق والأمراض التى ترتبت على شنيع الأطعمة إلى موت كثير من السكان ، خصوصًا من الشباب والأطفال ، حتى فَنِى منهم فى وقت قصير حسبما تؤكد الرواية العربية زهاء مائتى

ألف نفس ، وكان الأحياء يطوفون بين الموتى كالأشباح وقد خارت عزائمهم وقواهم ، وساد على المدينة التى كانت بالأمس آهلة زاخرة سكون مروّع ، كالسكون الذى يسبق العاصفة ، ففى تلك الآونة العصيبة عمد الفرسان النّصارى الأندلسيون - حسبما قيل وكانوا من أبرع فرسان إبراهيم ومن خاصّة حرسه - إلى مداخلة الأعداء لتسليمهم المدينة بالخيانة وفى ساعة معينة فتحوا أبواب المدينة التى كانت فى عُهدتهم للموحِّدين فدخلوها دخول الذئاب إلى حظيرة الأغنام » .

وهكذا انتهت الدولة المرابطية فى أفريقية بعد أن قُضِىَ على آخر خلفائهم ، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن تاشفين الذى أغتيل على يد الموحِّدين ، بعد أن دخلوا مراكش على جثث ذويها ، وبعد أن عاثوا فيها وقتلوا من سكانها ستين ألفًا حسبما ورد فى كتب التاريخ ، وهكذا انتهت الدولة المرابطية ولم يستكمل تاريخها مائة عام (٤٥٠ - ٥٤٠ هـ) وقد استطاعت هذه الدولة الأفريقية المنشأ أن تؤخر انهيار لواء الإسلام من شبه جزيرة أيبريا إلى حين بعد أن كان مائلاً للسقوط .

خلاصة :

نخلص من هذا العرض السريع للأحداث التى أعقبت معركة أقليش إلى أن العرب فى الأندلس مُنوا بحروب أهلية طاحنة كانت نتيجة حتمية للصراع الذى شب بين المرابطين والموحِّدين ، كما أسهمت الحروب التى خاضها المرابطون ضد الثورات التى نشبت فى البلاد الأندلسية أسهمت بنصيب فى إنهاك قوى المسلمين فى تلك الحقبة من التاريخ ، ولا يغيب عنا أن المرابطين وغيرهم من الأمراء قد استعانوا بأعدائهم الأجانب فى حروبهم الأهلية مما عجل بانزواء لواء الإسلام عن شبه الجزيرة الأسبانية ، وأن الحرب التى أزهقت مئات الألوف من أهل شمال أفريقية والأندلس نتيجة الصراع بين المرابطين والموحدين ، قد تركت تأثيرًا عميقًا فى أجيال هذه الأمة وكسرت شوكة المسلمين أمام أعدائهم الذين انتعشت قواهم واستردوا شبه جزيرة إيبريه كلّها فيما بعد .

معارك العَرب فى أسبانيا
من معركة إفراغة إلى معركة الأرك

المرابطون يسحقون جيوش القيصر فى معركة إفراغة :

خاض الفونسو الأراجونى (أو الفونسو بن رُدمير) حروبًا طاحنة ضد العرب فى أسبانيا كان له الظفر فى بعضها ، وكان ينحدر فى أغلبها ، وكان يتطلع إلى ما تطلع إليه قبله الفونسو السادس ، وقد لقب بالقيصر تيمنا بقياصرة الرومان الذين كان لهم الحول والطول والجبروت ، ولكن مطامعه هذه لم تتحقق ، كما كان يمنِّى نفسه بها من قبل .

ولما كان يحلم بأن يكون له منفذ على البحر الأبيض المتوسط ، لذا عهد إلى تأمين الملاحة فى نهر أيبرو ، الذى يمكنه من الوصول إلى بغيته ، كما فكر فى أهمية فتح ثغر طرطوشة وأخذه عَنوة من يد المسلمين ، ولذا أعد العدّة لمهاجمته من البر والبحر ، مستعينًا بالفرسان الذين قدموا تلبية لنداء دعاة الحرب الصليبية فى أسبانيا . وكان يتعين عليهم الاستيلاء على عدة مدن أخرى ، تمهيدًا للاستيلاء على ذلك الثغر ، منها مدن مكنسة ولاردة وإفراغة وكانت إفراغة أشدها منعة وصلابة ، فقد كانت تقع على آكام عالية وعرة المسالك .

ولما حوصرت هذه المدينة أبدى الأهالى بها شجاعة نادرة ، ومقاومة عنيفة ، وقد خفَّ لمعونتهم يحيى بن غانية قائد المرابطين بالأندلس ، على رأس جيش ضخم من أهل بلنسية ومرسية لنجدة المدينة المحاصرة كما بادرت قوى أخرى من جنوب أسبانيا للاشتراك فى الدفاع عن هذه القلعة الحصينة . وهذه هى صحوة الموت الأخير للمرابطين الذين انهارت دولتهم على يد الموحِّدين ، فأثبت لهم التاريخ هذه الوقفة الشجاعة فى معركة إفراغة فى رمضان عام ٥٢٨هـ .

ولما وصلت الأنباء إلى القيصر بمقدم الجيوش الإسلامية لنجدة المحاصرين ، لم يتراجع حقنًا لدماء من معه من الجنود ، وإنما ركب رأسه ، وآلى على نفسه أن يصمد حتى يفتتحها ، أو يموت فى حلبة الصراع بينه وبين المسلمين . ثم أمر بأن

يأتوه برفات القديسين إلى المعسكر ، وأن يقود الفرقة الانتحارية من جنده الصفوة من الرهبان والقساوسة ، وعلى أثر ذلك التحم الجيشان فى معركة طاحنة ، وفى الجولتين الأوليين هُزِم المسلمون القادمون لنجدة إخوانهم ، وفرَّ أكثرهم من الميدان هربًا بأرواحهم ، حتى يئس المحاصَرون ، وفاوضوا القيصر على التسليم ولكنه رفض كل عرض ، وحاول أن يفتتحها عَنوة وهنا فاجأه المرابطون على حين غفلة منه ، فأوقعوه فى كمين جذبوه إليه بطريقة فنية عجيبة ، ثم انقضوا عليه انقضاض العقاب على فريسته ، فأثخنوا فيه وهلك كثير من فرسانه ، وأجمعت الروايات العربية وبعض الروايات الأفرنجية على أن الفونسو سقط فى هذه المعركة متأثرًا بجراحه ، بعد أن هلك معظم جيشه ، ويروى مؤرخ قطلونى أنه بعد حدوث معركة إفراغة فرَّ القيصر بصحبةِ فارسين من جيشه ولجأوا إلى دير القديس (خوان دى لابنيا) فى سرقسطة وهنالك توفى غمًا ويأسًا ، لثمانية أيام فقط من الموقعة وذلك فى رمضان ٥٢٨ هـ(*) (١١٣٤م) ويزعم معظم المؤرخين أنه لم يعثر لهذا القيصر على جثة عقب سقوطه فى تلك المعركة .

جواز الموحدين إلى الأندلس وسيادتهم عليها :

كانت معركة إفراغة فى حكم الأمير المرابطى على بن يوسف بن تاشفين ، ولما توفى على فى سنة ٥٢٧ هـ تولى الحكم بعده ابنه تاشفين ، وعهد بولاية مدن الأندلس إلى بعض القواد المشهورين مثل يحيى بن غانية على قرطبة ، وبعد وفاة الأمير المرابطى تاشفين فى رمضان سنة ٥٣٩ هـ تولى الحكم ابنه أبو إسحاق إبراهيم وهو غلام حدث وقد قتل بعد تولية الحكم بعامين فقط . وفى عهده قويت شركة الموحدين ، وتعرَّض المرابطون فى البر الأفريقى لهزائم متلاحقة على يد الموحدين الذين كان يقودهم عبد المؤمن بن على خليفة أبى عبد الله بن تومرت ، وأعقب أفول نجم المرابطين فى البر الأفريقى أفول نجمهم فى بلاد الأندلس ، مما جعل قوى الأسبان والبرتغاليين ومن يناصرونهما تنتعش وتفتك بالمسلمين فتكًا ذريعًا . وفى الوقت الذى كان عبد المؤمن بن على يحاصر مراكش عاصمة المرابطين فى

(*) ليست هذه الموقعة هى الوحيدة التى انتصر فيها المرابطون على أعدائهم المسيحيين فى أسبانيا فى ذلك التاريخ بل انتصروا فى السنة ذاتها على جيش ملك قشتالة أدفونش بن رمند فى مكان قريب من سهل الزلاقة وانتصروا عليهم مرة زخرى بقيادة تاشفين بن على على شمال قرطبة وهزمهم تاشفين بعدها فى عدة مواقع .

أفريقيا ، كان هناك حلفاء ينتظرون معونته لهم فى الأندلس للقضاء على سلطان المرابطين ومن أبرزهم أحمد بن قُسَىّ والى الغرب (من قبل الموحدين) ، فسيَّر القائد أبا عمران موسى بن سعيد فى جيش عدته عشرة آلاف فارس فجاز إلى شبه الجزيرة فى أوائل ٥٤٠ هـ (١١٤٦م) ثم أمكنه بمساعدة ابن قسى الاستيلاء على حصن الجزيرة ، وتركتها الحامية المرابطية إلى أشبيلية ثم سارت الجيوش إلى جبل طارق وشريش ففتحتا أبوابهما طوعًا واختيارًا ، ثم سارت الجيوش المتحالفة تجاه أشبيلية وكان يتحصن بها ابن حمدين ، فلم يستطع المقاومة لفترة طويلة ، فاستسلم للحلفاء فى شعبان ٥٤١ هـ ولم يجد المرابطون مفرًا لهم سوى قرمونة التى تحصنوا بها بعد انسحابهم من أشبيلية « ودُعِىَ لعبد المؤمن بن على - كما يقول المؤرخ يوسف أشباخ - سلطان الموحِّدين فى الصلاة فى مساجد أشبيلية ثم دُعِىَ له بعد ذلك بقليل فى مالقة » وقد أورد لنا الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى فى كتابه قصة الأدب فى الأندلس ، قصيدة للشاعر أبى عبد الله محمد بن غالب البلنسى المعروف بالرصافى يمدح فيها زعيم الموحدين عبد المؤمن بن على بعد عبوره المضيق ، وقدومه مالقة التى كان يقيم بها الشاعر نقتطف منها الأبيات التالية :

لو جئتَ نارَ الهُدى من جانب الطور ... قبَستَ ما شئتَ من علمٍ ومن نُورِ

من كلِّ زهراءَ لم ترفع ذُؤابتَها ... ليلاً لسارٍ ولم تشبُبْ لمقرورِ

فضيَّةِ القَدحِ من نور النبوَّةِ أو ... نورِ الهدايةِ تجلو ظلمةَ الدورِ

ما زال يقضمها التقوى بموقدها ... صوَّامُ هاجرةٍ قوَّامُ ديجورِ

حتى أضاء من الإيمان عن قبسٍ ... قد كان تحت دماءِ الكُفرِ مكفورِ

نورٌ طوى الله زَنْدَ الكون منه على ... سقْطٍ إلى زمنِ المهدىِّ مذخورِ

مواطئٌ مِنْ نبىٍّ طالما وصلَتْ ... فيها الخُطَى بين تسبيح وتكبيرِ

حيث استقلت به نعلاه بوركتا ... فطاب كلٌّ كموطوءٍ ومعبورِ

وحيث قامت قناة الدين ترفل فى ... لواء نصرٍ على البحرين منشورِ

فى كفِّ منشمرِ البُردين ذِى وَرَعٍ ... على التُّقى وصفاءِ القلب مفطورِ

تسنَّمَ الفلك من سُخطِ المرار وقد ... نُودين باخير أفلاك العلا سيرى

فـســرن يحــملن أمــر الله من مَلِكٍ ... بـالله مــســتنصــر في الله منصــور
يُومِي له بســجــودٍ كلُّ تحــركــةٍ ... منهــا ويُوليــه حــمــداً كلَّ تصــرير
لما تســابقن في بحــر الزُّقــاق به ... تركن شطّيــه في شكٍّ وتحــيــيــر
أهزَّ مِنْ مــوجــهِ أثناءَ مــســرور ... أم خـاض من لُجُـهِ أحشـاءَ مـذعـور
كــأنّـه ســــالكٌ منـه على وشلٍ ... في الأرض من لهَجِ الأسـيـاف مقطور
ذو المنشــآتِ الجــواري في أجــرّتهــا ... شكل الغـدائر في سـدلٍ وتضـفـيــر
أهدَىَ الميــاه وأنفــاسَ الرياح لهــا ... مــا في ســجــاياهُ من لينٍ وتعطيــر

وقد رسخت أقدام الموحدين في الأندلس بعد وقت وجيز قضوه في معارك متواصلة مع المرابطين ، ومن يحالفهم من ملوك أسبانيا المسيحيين . إلاّ أن سخط الأندلسيين على المرابطين ، ساعد على انكماش سلطانهم والقضاء عليهم ، ثم حدث أن استسلمت مراكش وقُضيَ على آخر سلاطين المرابطين إبراهيم بن تاشفين ، فوجه الموحِّدون قواتهم تجاه الأندلس لفتح ما بقي من ولاياتها التي كانت حجرَ عثرة في سبيل تقدمهم .

وقد استطاعوا القضاء على الثورة التي أشعلها محمد بن هود في سلا ، والذي تسمَّى بالهادي ، وكاد ينتزع من الموحِّدين كلَّ الأقاليم والمدن التي كانوا يسيطرون عليها ، خلا فاس ومراكش إلاَّ أنهم استطاعوا بعد ذلك القضاء عليه واسترداد ما سقط في يده من البلاد وبنفس السرعة التي استولى فيها على تلك الأقاليم .

حملات النصارى ضد المريّة وأشبونة وطرطوشة :

في الوقت الذي كان المسلمون منشغلين بحروبهم الأهلية الطاحنة ، وجّه الفونسو السابع (ملك قشتالة) ضربات للولايات المتاخمة لحدود دولته ، لضمها إلى ملكه وادعى أن بعض القراصنة الأندلسيين يغيرون على شواطئ أسبانيا ، وجلباية وبرشلونة والبرتغال وشواطئ فرنسا وإيطاليا الجنوبية ، فوجه ضربته إلى أكبر معقل كان يخشى وجود قراصنة البحر فيه ، وهو ثغر المرِّيَّة . وكان محمد بن سعد بن مردنيش أمير بلنسية ومرسية مشغولاً بحرب المرابطين ، وفي نفس

الوقت كان المرابطون يواجهون زحف الموحدين فى الجنوب فحاصر الفونسو المدينة من البر والبحر ، وقطع المؤن والعتاد عنها ، ويقول المؤرخ يوسف أشباخ نقلاً عن المؤرخ الأسبانى كوندى « حتى أصبح من المتعذر أن يدخلها أحد سوى النسور ، ونفدت المؤن بسرعة ورأى المسلمون أن لا أمل فى النجدة فخرجوا مرارًا لمقاتلة النصارى ، وفقدوا خيرة فرسانهم ، ولما نقص عددهم ، ولم يعد يكفى للدفاع ، بدأوا المفاوضة مع النصارى وسلَّموا المدينة للأدفنش بعد حصار دام ثلاثة أشهر على أن يؤمَّنوا فى أنفسهم وكان ذلك فى أواخر ٥٤٢ هـ » بيد أن الموحدين[١] استعادوا مدينة المرية بعد عشر سنين من سقوطها (أى فى سنة ٥٥٢ هـ) .

وبعد أيام معدودات من سقوط المريَّة حدثت فاجعة أشد وأنكى للمسلمين إذ سقطت أشبونة فى يد الفونسو ملك البرتغال ومن حالفه من الفرسان الصليبيين، بعد أن يئس أن يقتحمها من البر والبحر لمنعتها وقوة دفاعها وصمود رجالها ، إلاَّ أن رسوّ زهاء مائتى سفينة من سفن الصليبيين ، دفعت بهذا الملك أن يستثير حماسهم ضد المسلمين وزيَّن لهم ما سيعود عليهم من الجزاء إن هم ساعدوه فى فتحها ، ويقول المؤرخ المذكور « وسارت سفنهم بقيادة الكونت أرنولف فون أشرت الهولندى إلى مياه أشبونة لمعاونة البرتغاليين على أخذها ، وانتهت جهود البرتغاليين المشتركة بأخذ المدينة المحصورة بالرغم من دفاعها الباسل وسلم المحصورون المدينة، بعد أن نفد كل أمل فى الإغاثة ، ولم يبق أمامهم سوى القتل أو الموت جوعًا ، وحصلوا مقابل ذلك على الرحيل مع ترك أسلحتهم وأموالهم ، واقتسم البرتغاليون والصليبيون ما لَقُوا فى المدينة من غنائم لا تحصى ، وقد استمرَّ (الحصار) مدى أربعة أشهر حتى ٢١ أكتوبر من نفس العام (١١٤٧م) وكان سقوطها بعد أيام قلائل فقط من سقوط المريَّة » .

وكانت ثالثة الأثافى سقوط ثغر طرطوشة الذى يعتبر مفتاح نهر الإيبرو إلى سائر بلاد المسلمين فى الأندلس ، فقد شجع النصر الذى أحرزه الأسبانيون فى المرية الكونت ريموند صاحب برشلونة على معاودة محاصرة هذه القلعة التى

(١) التاريخ الأندلسى للدكتور عبد الرحمن على الحجى .

استعصت عليه آنفًا ، فحشد لها قواته فى البر والبحر وضرب الحصار حولها ستة أشهر وعجز أمير بلنسية محمد بن سعد بن مردنيش عن إرسال المدد إليها ، فسقطت فى قبضة الكونت[1] ريموند فى ١١٤٧/١٢/٣١م (٥٤٢ هـ) .

وأعقب هذه الكوارث تقلُّص نفوذ المسلمين عامة وصاحب بلنسية بصفة خاصة إذ انتزعت منه قلاع مكنسة ولاردة وإفراغة ولم يبق فى يده سوى الحاضرة بلنسية التى غدت تحت رحمة أعدائه .

تحالف ألفونسو السابع مع المرابطين ضد الموحدين :

لم يستطع الموحدون الهيمنة على سائر أسبانيا المسلمة بسهولة ، وإنَّما وجدوا أمامهم عدة عقبات كان ينبغى عليهم تخطيها منها مقاومة البقية الباقية من جيوش المرابطين لهم ، وكان يقودهم أبو زكريا يحيى بن غانية وكان يعتصم فى غرناطة ، ويعقد الأمل الكبير على حامية المرابطين فى قرطب بقيادة واليها يحيى بن على ، والعقبة الثانية هى قيام ثورة أخرى فى سبتة عقب القضاء على ثورة الهادى (فى سلا) وكانت الثورة الثانية بقيادة عياض بن موسى الذى نادى بأبى زكريا قائد المرابطين نكاية فى الموحدين . إلا أنهم استطاعوا القضاء على هذه الثورة فى مهدها وعقبة ثالثة هى الممالك المسيحية التى كانت تتحالف مع المرابطين ، لإيقاف تقدم الموحدين واستئصال شأفتهم من أسبانيا وكانت هذه هى أشد العقبات صعوبة أمامهم .

فحارب الموحِّدون أعداءهم واشتبكوا معهم فى معارك ضارية ، كان لهم الغلبة فى أكثرها ، وتمكنوا من الاستيلاء على قرطبة عاصمة الأندلس ، ثم تقدموا لتطويق غرناطة التى كان يعتصم بها أبو زكريا والذى تحالف مع الكونت المانريش صاحب قشتالة ، ضد جحافل الموحدين ، وقد سقط أبو زكريا فى ميدان الحرب وهو يقاتل أعداءه قتالاً مستميتًا . ويؤخذ عليه أنه استعان بأعدائه ضد بنى جنسه وملته ، وبعد أن كانت له معارك خالدة ضد من استعان بهم ، وهو بطل معركة إفراغة التى سقط فيها ألفونسو المحارب .

(١) ذكر صاحب تاريخ الأندلس نقلاً عن (التكملة لابن الآبار) أن سقوط ثغر طرطوشة كان فى يوم الخميس ١٦ من شوال سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨م) .

ولم يستطع الموحدون الاستيلاء على غرناطة فارجأوا اقتحامها إلى حين ، وسيَّروا قواتهم صوب جيَّان فاستولوا عليها ، ثم عادوا لتهديد المريَّة التى كانت فى يد النصارى ، وغرناطة التى كانت فى يد المرابطين ، فتحالف أدفونش بن رمند مع من بقى من المرابطين ومع غرسيه ملك نافارا فسيّروا قواتهم تجاه قرطبة فحاصروها وعاثوا فيها ، بعد أن هُزِم الموحدون فولوا الأدبار أمامهم ، وقد تواترت الأخبار بجواز عبد المؤمن إلى الأندلس فأدرك الفونسو مغبَّة الاستمرار فى حصار قرطبة ففك الحصار وارتد صوبَ جيَّان فاستولى عليها ووضع حامية قوية من جنده بها ، ثم قفل عائدًا إلى طليطلة .

ولم يلبث عبد المؤمن أن بعث بجيش ضخم إلى شبه الجزيرة بقيادة الشيخ أبى حفص وابن عبد المؤمن أبى سعيد فبدأ القتال بمحاصرة المريَّة ، التى كانت فى يد النصارى ، فتحالفوا مع المرابطين ومع محمد ابن سعد بن مردنيش أمير بلنسية ومرسية ، وحال الحلفاء بين الموحدين والاستيلاء عليها . إلا أن المعارك استمرت بين الجانبين على أشدها وكان النصر للوحدين فاستطاعوا الاستيلاء على المريَّة ، ثم ضربوا الحصار حول غرناطة التى انتزعها ابن سعد منهم من قبل ، وأمر عبد المؤمن بافتتاحها مهما كلفهم الأمر ، وسار القيصر والمرابطون وجنود ابن سعد لفك الحصار عن غرناطة ، واشتبكوا مع الموحدين وطال الاشتباك فارتدوا دون أن يحرز كِلا الطرفين نصرًا على الآخر ، واستولى القيصر على بيَّاسه فى طريق عودته إلى بلاده ، إلا أن الأنباء التى تواترت عليه أزعجته حين علم باستيلاء الموحدين على غرناطة فى عام ٥٥٧هـ (١١٦٢م) واغتيالهم قائد النصارى بها ، وحاميتها جميعًا وأعملوا سيوفهم فى رقاب المرابطين ، فأدبر من بقى منهم على قيد الحياة فرارًا بأرواحهم . فتأثر القيصر بهذه الأنباء فمات مغمومًا مهمومًا .

قيام جماعات الفرسان الدينية فى أسبانيا والبرتغال :

قامت جماعات دينية فى جميع الولايات المسيحية لمناهضة المسلمين وإشعال حرب دينية ضدهم للقضاء عليهم قضاءً مبرمًا ، وكانت هذه الجماعات قد تكونت على نمط الجماعات الدينية التى تكونت فى فلسطين بعد دخول الصليبيين فيها ،

وذلك ليجمع بينهم الدين ضد عدوهم المشترك . ويذكر المؤرخ يوسف أشباخ أن المسلمين سبقوهم إلى تكوين هذه الجماعات ، بأن دربوا فرقًا مثقفة دينيًا تدريبًا عسكريًا راقيًا لحماية الثغور والحدود المتاخمة للعدو سُمُّوا (بالمرابطين أو المرابطة) وهم الذين يرابطون لحماية هذه الحدود من هجمات الأعداء .

والدافع إلبى تكوين هذه الجماعات الدينية فى الولايات المسيحية أن الممالك كانت كثيرًا ما تصطرع فيما بينها ، كما كانت الملوك تتحالف مع المسلمين أحيانًا للقضاء على منافسيهم فى عروشهم . لذا وجدت هذه الجماعات ألاَّ سبيل للقضاء على المسلمين ، إلاَّ أن تتعصب ضدهم غير منحازة إلى سياسة معينة لملك من الملوك .

وهكذا نجد أن الحركات المسيحية اتسعت وزادت اشتعالاً ضد المسلمين ، وبدأوا يستعدون لاستئصال شأفتهم من شبه الجزيرة مستخدميتن أبشع الطرق وأخس الوسائل ، للقضاء عليهم ، وكانت نواة هذه الجماعات قد تكونت فى الوقت الذى كان الموحدون يقاتلون المرابطين ، وجنود ابن سعد ومن حالفهم من الأسبانيين.

الموحّدون فى الأندلس من منذ افتتاح غرناطة حتى معركة الأرك :

(أ) رقعة دولة الموحدين :

اتسعت رقعة دولة الموحدين فى عهد أميرهم عبد المؤمن بن على اتساعًا فاق دولة المرابطين من قبلهم فامتدت حدودها فى أفريقيا من الصحراء الكبرى جنوبًا إلى البحر الأبيض المتوسط شمالاً ومن المحيط الأطلنطى غربًا إلى مصر شرقًا .

أما فى شبه جزيرة أيبريا فكان الموحِّدين يستحوذون على جميع بلاد الأندلس فيما عدا أملاك محمد بن سعد بن مردنيش صاحب بلنسية ومرسية الذى كان حليفًا حميمًا للمالك المسيحية . فكان فى أيديهم أشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة والمرية وهى التى تسمى بمنطقة الوادى الكبير ، أما فى الغرب فكانوا يملكون الضفة اليسرى من وادى آنه كما ملكوا من ضفته اليمنى عدة مدن هامة ، وقد ورث[1]

(١) التاريخ الأندلسى للدكتور الحجى .

الموحـدون - استـيـلاءً - كلّ أمـلاك المرابطين بالمغـرب والأنـدلس ، ووصلت دولة الموحدين إلى مستوى عالٍ من القـوة ، وشيَّدت للفضائل صـروحًا ، وأسهمت فى الاستمـرار بالعلم والمعرفة . وحرست الحضارة الإسلامية فى بقاعها وحمت كيان الإسلام فى الأندلس .

(ب) عبور الموحدين إلى الأندلس :

وكان أول جيش أرسله الموحّدون[١] إلى الأندلس فى سنة٥٤١ هـ ، لإزالة ما بقى فيها للمرابطين من سلطان ، ثم خضعت مناطق أخرى للموحدين . وقد جُعلت غرناطة مركزًا دفاعيًا قويًا حشدت له كل وسائل الدفاع ، كما نُقلت العاصمة من قرطبة إلى أشبيلية فى سنة ٥٥٧ هـ ، حيث اعتُبرت مستقرًا للجيوش الموحدية .

وفى سنة ٥٥٨ هـ توفى عبد المؤن بن على ثانى أمراء الموحدين بعد أبى عبد الله بن تومرت ، بعد حكم دام ثلاثة وثلاثين عامًا ، وأعقبه فى الحكم ابنه أبو يعقوب يوسف الذى بويع بالخلافة فى سلا قرب الرباط ، ثم عاد منها هو وحاشيته إلى مراكش .

وفى عام ٥٦٠ هـ[٢] عبرت جيوش الموحدين للمرة الثانية إلى الأندلس ، وكانت بقيادة أبى يعقوب ، وذلك لتعزيز دفاعات بعض المناطق الأندلسية ضد أسبانيا الشمالية . كما حدث صدام بين الموحدين وبين محمد بن سعد بن مَردنيش صاحب بلنسية ، وكانت له صلات مودة مع ملوك أسبانياالشمالية ، وقد بلغ عدد المرتزقة النصارى فى جيشه - فى لقائه مع الموحدين - ما يقرب من ثلاثة عشر ألف مقاتل ، وقد حارب الموحدون كلا الجيشين متعاهدين على الثبات والاستشهاد فى سبيل الله، حتى تم لهم النصر فى معركة عرفت بمعركة (فحص الجلاَّب) سنة ٥٦٠ هـ .

وعبر أبو يعقوب المنصور إلى الأندلس للمرة الثانية (المرة الثالثة بالنسبة لعبور جيوش الموحدين) فى سنة ٥٦٦ هـ بجنود من الشمال الأفريقى ، للقيام بأعمال الجهاد فى الأندلس ، ثم عاد إلى مراكش فى عام ٥٧١ هـ ، وتلت عودته

---

(١) ، (٢) التاريخ الأندلسى للدكتور الحجى .

هجمات شنها عدد من ملوك أسبانيا النصرانية ، فخاض الموحدون ضدهم عدة معارك أهمها : معركة طلبيرة ، حيث قاد القشتاليين ملكهم الفونسو الثامن فى عام ٥٨٧ هـ . وفى عام ٥٨٠ هـ عبر أبو يعقوب المنصور بجنوده للمرة الثالثة إلى الأندلس، واتجه إلى قلعة شنترين لمحاصرتها والاستيلاء عليها ، إلا أنه لم يستطع فتحها ، ولكنه أصيب فى إحدى معاركها وتوفى فى ذات العام (٥٨٠ هـ) .

وبعد وفاة أبى يعقوب بويع بالخلافة ولىُّ عهده وأكبر أبنائه أبو يوسف يعقوب ، الذى تقلب أيضًا بالمنصور ، وبعد أن استتب له الأمر فى مراكش عبر إلى بر الأندلس للمرة الأولى فى عام ٥٨٦ هـ لمنازلة العدو الصليبى ، حيث أقلقه ملك البرتغال (ابن الرِّيق) ومن بعده ابنه شانجه ، الذى بدأ يشن الغارات على الأندلس منذ عام ٥٨٥ هـ ، انتقامًا لما حدث للصليبيين فى المشرق العربى ، حيث استولى صلاح الدين الأيوبى على بيت المقدس فى عام ٥٨٣ هـ - (١١٨٧م) - فلهذا قام شانجه الأول ملك البرتغال (وهى مملكة حديثة الانفصال عن قشتالة وليون - عاصمتها آنئذ قلمرية) - قام هذا الملك بمحاصرة مدينة شِلْب ، حيث ثبتت أمامه بقوة لمدة ثلاثة أشهر ، ولما قطع عنها الماء وأشرفت على الاستسلام كان حلفاء شانجه يودون الدخول للمدينة عَنوة ، كى يعيثوا فيها ما يشاءون ويسفكوا دم أهلها ، إلا أنه أقنعهم - كما يقول المؤرخ يوسف أشباخ - بالاكتفاء بما فيها من أموال وقصور، وكان دخولهم لها فى عام ٥٨٥ هـ .

(جـ) معركة الأرك :

كان عبور أبى يوسف يعقوب المنصور[1] للمرة الثانية إلى الأندلس فى عام ٥٨٦ هـ ، وكان هدفه استعادة مدينة شلب ، فقام بعدة معارك فى عدة مناطق إلاَّ أنه لم يستطع استرداد المدينة ، فعاد إلى أشبيليَّة للاستعداد وإعادة الكرة على الأعداء ، فخرج بجيش كثيف فى عام ٥٨٧ هـ متجهًا نحو الشمال الغربى حيث استعاد من الصليبيين قصر الفتح (قصر أبى دانس) الذى كان قد استولى عليه ابن الرِّيق

(١) التاريخ الأندلسى ، ص٤٦٣ ، ٤٦٤ .

البرتغالى فى عام ٥٥٥ هـ - ثم استطاع الموحدون استرداد مدينة شلب فى ذات العام (٥٨٧ هـ) .

وكان الموحدون قد عقدوا مع الفونش الثامن ملك قشتالة معاهدة عدم اعتداء لمدة خمس سنوات ، وحين انتهت هذه المعاهدة فى سنة ٥٩٠ هـ بدأ القشتاليون بمهاجمة الأندلس والعيث فيها ، فأعدَّ الموحدون حملة للتوجه إلى الأندلس تمَّ عبورُها فى جمادى الآخرة سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥م) بقيادة الخليفة الموحدى نفسه متجهًا إلى أشبيلية العاصمة ، ثم اتجه للقاء جموع الفونش الثامن القشتالى فى مكان يسمى حصن الأرك ، على بعد حوالى عشرين كيلو مترًا إلى الغرب من قلعة رباح ، على أحد فروع نهر آنه . وهذا الحصن يقع شرقى السهل الذى جرت فيه معركة الزلاقة فى عام ٤٧٩هـ ، وسبب المعركة - كما سبق ذكره - هو نقض القشتاليين لعهدهم الذى أعطوه للموحدين فى عام ٥٨٦ هـ ، فأرسلوا إلى جميع الثغور الإسلامية منذرين أهلها بالاستسلام ، وتظاهروا فى ذات الوقت بطلب تجديد المعاهدة ، ولما كان الفونسو الثامن وأتباعه يكيدون للمسلمين ، فقد كان الله لهم بالمرصاد ، وأعقبهم الله سوء غدرهم ، وحاق بهم وبال مكرهم .

يقول ابن عبد المنعم الحميرى فى الروض[1] المعطار : أنه قد بلغ المنصور يعقوب أن صاحب قشتالة شن الغارات على بلاد المسلمين بالأندلس شرقًا وغربًا فى وقت واحد ، وعمَّ ذلك جهة أشبيلية ونواحيها ، فامتعض من ذلك ثم تحرك من حاضرته مراكش إلى الأندلس واستقر بأشبيلية .

وتفسير ذلك أنه قد توالت أخبار الأندلس على الخليفة الموحدى أبى يوسف يعقوب المنصور ، فأعد جيشًا جهَّزه بأسلحة شتى ، ثم عبر به إلى الأندلس ، وقاده بنفسه للمرة الثانية ، وكان عبور الخليفة بجيش الموحدين إلى طريف بالأندلس فى عام ٥٩١ هـ . ثم توجه إلى أشبيلية العاصمة ، حيث أنفق أسبوعين فى وضع الخطط المحكمة ، ثم رحل إلى قرطبة ، ومنها صوب قلعة رباح ، بينما تجهز الفونش

---

(١) التاريخ الأندلسى ص ٤٨٤ ، ٤٨٥ .

(الثامن)[1] ملك قشتالة للقاء الجيش الإسلامى ، وذلك منذ سمع بعبور الموحدين إلى الأندلس ، وطلب العون من ملكى ليون ونبَّارة (كانتا تابعتين لقشتالة) ثم سار مسرعًا ونزل فى الأرك ، وهى نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس ، بينما نزل الخليفة الموحدى (أبو يوسف يعقوب) قريبًا من المعسكر القشتالى .

وقد مرت أيام لم يقع[2] فيها اشتباك بين الجيشين ، إلا مناوشات خفيفة ألحقت بالجيش القشتالى بعض الخسائر ، وأخذ المنصور يستشير أصحابه الرأى ، ويعقد فيهم مجالس الحرب ، فأشار أحد قواده (وهو أبو عبد الله بن صناديد) بأن تبدأ الجيوش الأندلسية والجيوش غير النظامية القادمة مع الموحدين بالاشتباك مع الأعداء ، ويبقى الخليفة بجيشه من الموحدين فى موضع مستور ، فإن كان النصر للمسلمين فذاك ، وإلاَّ فيبادر الخليفة بقواته للقاء العدو ويحمى ظهور المسلمين . حينئذ تخمد قوة العدو ، فأعجب الخليفة برأيه وقرر الأخذ به .

وأورد الدكتور عبد الرحمن الحجى فى كتابه التاريخ الأندلسى أن جموع القشتاليين بلغت - كما ذكر ابن عميرة الضبِّى فى بغية الملتمس - ما ينيف على خمسة وعشرين ألف فارس ومائتى ألف رجل ، وكان معهم جماعات من تجار اليهود قد وصلوا لشراء أسرى المسلمين وأسلابهم ، وأعدوا أموالاً فهزمهم الله تعالى . ويقول « ويذكر عبد الواحد المراكشى ذلك فى كتابه المعجب فيقول : وكان الأدفنش قد جمع جموعًا لم تجتمع له مثلها قط ، فلما تراءى الجمعان اشتد خوف الموحدين ، وساءت ظنونهم لما رأوا من كثرة عدوهم ، وأمير المؤمنين فى ذلك كله لا مستند له إلا الدعاء والاستعانة بكل من يظن عنده خيرًا من الصالحين « بعد الاستعانة بالله تعالى » .

وذكر صاحب المرجع السابق نقلاً عن ابن عِذَارى صاحب البيان المُغرب : أن الجيوش نظِّمت تنظيمًا جيدًا ، وتولى القيادة العامة أبو يحيى بن أبى محمد ابن أبى حفص ، ويقى الخليفة طبقًا للخطة - بجيشه فى المؤخرة . وخاطب القائد العام جنده وبلغهم بقول الخليفة المنصور ، يقول لكم أمير المؤمنين : اغفروا له - فإن

(١) المرجع السابق ، ص ٤٨٦ .

(٢) ذكر المؤرخ يوسف اشباخ أنه الفونسو التاسع وليس الثامن .

هذا موضع غفران - وتغافروا فيما بينكم ، وطيّبوا نفوسكم ، وأخلصوا لله نياتكم . فبكى الناس وأعظموا ما سمعوه من سلطانهم ، وما جرى له من حسن معاملتهم . ثم قام خطيبٌ وحرض على الجهاد ، وبيَّن فضله ، وتقديمه على غيره ، فاشتدت حميَّة الناس وتنافسوا لبذل أرواحهم انتصارًا للدين والأوطان . وكان الجيش الإسلامى فى سهل الأرَك ، بينما كان القشتاليون فى المرتفع المشرف عليه قرب حصن الأرك . وفى يوم الأربعاء التاسع من شعبان من عام ٥٩١ هـ (الثامن عشر من شهر يولية سنة ١١٩٥م) بدأت المعركة الحاسمة .

رأى القشتاليون الجيش الإسلامى[١] يزحف نحوهم ببطء ، فهبطوا من مركزهم كالليل الدامس والبحر الزاخر ، أسرابًا تتلو أسرابًا ، وأمواجًا تعقب أمواجًا، ليس إلاَّ الصهيل والضجيج والحديد على وقع العجيج .. وما لبث الجيش القشتالى وأنصاره أن مالوا على ميسرة المسلمين فتزحزح قوم من المطوّعة ومن أخلاط الناس، فصعد الغبار إلى عَنان السماء ، وهنا صرخ المنصور فى خاصته ومن طاف به من المسلمين قائلاً : جددوا نياتكم وأحضِروا قلوبكم ثم تحرك وحده وترك ساقته على حالها ، ومر على الصفوف والقبائل وألقى إليهم كلامًا وجيزًا مؤثرًا .

ثم التحم الطرفان فى قتال عنيف ، وكثر القتل فى مقدمة القشتاليين ، ثم التحمت بهم بقية الجيوش الإسلامية ، فاضطر الجيش القشتالى إلى التقهقر والفرار ، كما فرَّ ملك قشتالة صوب طليطلة ، واستمرت المعركة يومًا واحدًا فقط ، أحرز فيه المسلمون بقيادة الموحدين نصرًا مبينًا ، وغنموا مغانم كثيرة ، وافتتحوا حصن الأرك ، وقد تحقق هذا النصر بمدد من الله تعالى للمسلمين رغم الكثرة الكاثرة للفرنجة الذين كانوا قد أعدوا جيشًا عظيمًا ، قال عنه المؤرخ الألمانى يوسف أشباخ إنه تجمع من أقصى أنحاء العالم المسيحى ، ولكن الموحدين بقيادة يعقوب المنصور أنزلوا بهم هزيمة منكرة ، ويقال أنهم خسروا فى تلك الموقعة ١٤٦ ألف رجل بالإضافة إلى ثلاثين ألف أسير ، وفرت فلول الجيش المسيحى إلى كلاترافا واعتصموا بها ، ولكن المسلمين ما لبثوا أن اكتسحوها فهرب الفونسو إلى طليطلة ، حيث حشد جيشًا لجبًا لمقاومة الموحدين ، غير أنه مُنَى مرة أخرى بهزيمة منكرة

(١) يوسف أشباخ (تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموحِّدين) .

وخسائر فادحة ، واستولى الموحدون ثانية على كالاترافا ووادى الحجارة ومدريد وسلمنقة ومدن وحصون أخرى فى أسبانيا والبرتغال ، وأعادوا إلى حوزتهم معاقل كثيرة كانت قد سقطت فى يد الفونسو من قبل .

وفى سنة ١١٩٦م حاصر يعقوب[١] مدينة طليطلة حصارًا شديدًا حتى خرجت أم الفونسو تصحبها زوجاته وبناته ، وتوسلت إلى يعقوب والدموع فى عينيها أن يبقى على المدينة ، فأثَّر توسلها فى نفسه ، ولم يجبها إلى طلبها فحسب ، بل أذِن لها ولمن معها بالإنصراف عليهن الحُلِىّ والهدايا النفيسة الأخرى . ثم أنقذ مدريد من محاصرة أهل أرغونة لها ، وجعلهم يولون الأدبار فرارًا من بأسه ، ثم عاد إلى أشبيلية فأقام بها سنة يبحث شروط الصلح مع سفراء الأمراء المسيحيين الذين وفدوا عليه فأجابهم إلى طلبهم - وبعد عودته إلى أفريقية وافاه الأجل فى عام ٥٩٥ هـ (١١٩٩م) - وكان معاصرًا للسلطان صلاح الدين الأيوبى الذى أرسل إليه سفيره ابن أخى الأمير أسامة طالبًا النجدة ضد الصليبيين . وكان جيش المنصور حسن التنظيم ، وحكمه حازمًا وعادلاً ، ونبغ فى عهده الطبيبان الشهيران ابن زُهر وابن باجه والفيلسوف ابن رشيد .

دروس وعبر عن معركتى أفراغة وحصن الأرك :

١ - وقعت معركة أفراغة فى عام ٥٢٨ هـ فى أواخر عصر المرابطين ، وكان المسلمون فى موقف ضعيف جدًا بالنسبة لعدوهم الفونسو المحارب ملك أراجون ومن يناصرونه من المتطوِّعة الصليبيين ، وفى عهد ذلك الملك قويت حركة الاسترداد المسيحية ، لكل ما فى يد المسلمين من بلاد الأندلس - ورغم مناعة تلك المدينة إلاَّ أنها أوشكت على الاستسلام للأعداء ، لولا أن قيض الله لها المرابطين بقيادة أبى زكريا يحيى بن غانية ، فأحال حزن المحاصَرِين إلى فرحة ، وصلّف الغازين إلى ترحة .

٢ - ووقعت معركة الأرك فى عهد الخليفة الموحدى الرابع أبى يوسف يعقوب المنصور فى عام ٥٩١ هـ ، وفى عهد الفونسو التاسع ملك قشتالة الذى حشد الحشود لمحاربة المسلمين من جميع البلاد الأوربية ، وهى حرب صليبية طاحنة ضد

(١) تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموحدين ، ص ٤٤٠ .

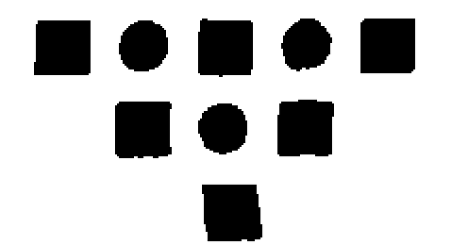
المسلمين والمتأمل لوضع المعسكرين فى ذلك الوقت ، سيرى أن جميع عوامل النصر كانت متوفرة لدى المعسكر المسيحى ، من حيث كثرة العَدد وتوافر العُدَد ، وعِظَم القواد ذوى الكفاءة والدُّربة ، وامتلاكهم للموقع الحصين وهو حصن الأرك . بينما المسلمون كانوا قليلى العدد ، وناقص العدة ، وهم أخلاط شتى وأكثرهم غير مدربين على فنون القتال ، وكان معسكرهم فى سهل منبسط معرض لنبال الأعداء ورماحهم - ولكن الله من عليهم بالنصر لجزعهم إليه ، واستدرارهم رحمته ورضوانه، وورع الخليفة ، وطلبه الصفح ممن أساء إليه ، وهكذا اجتمعت عوامل روحانية تغلبت على كل ما تباهى به الأعداء من قوة وأعداد وعدَّة ومنعة .

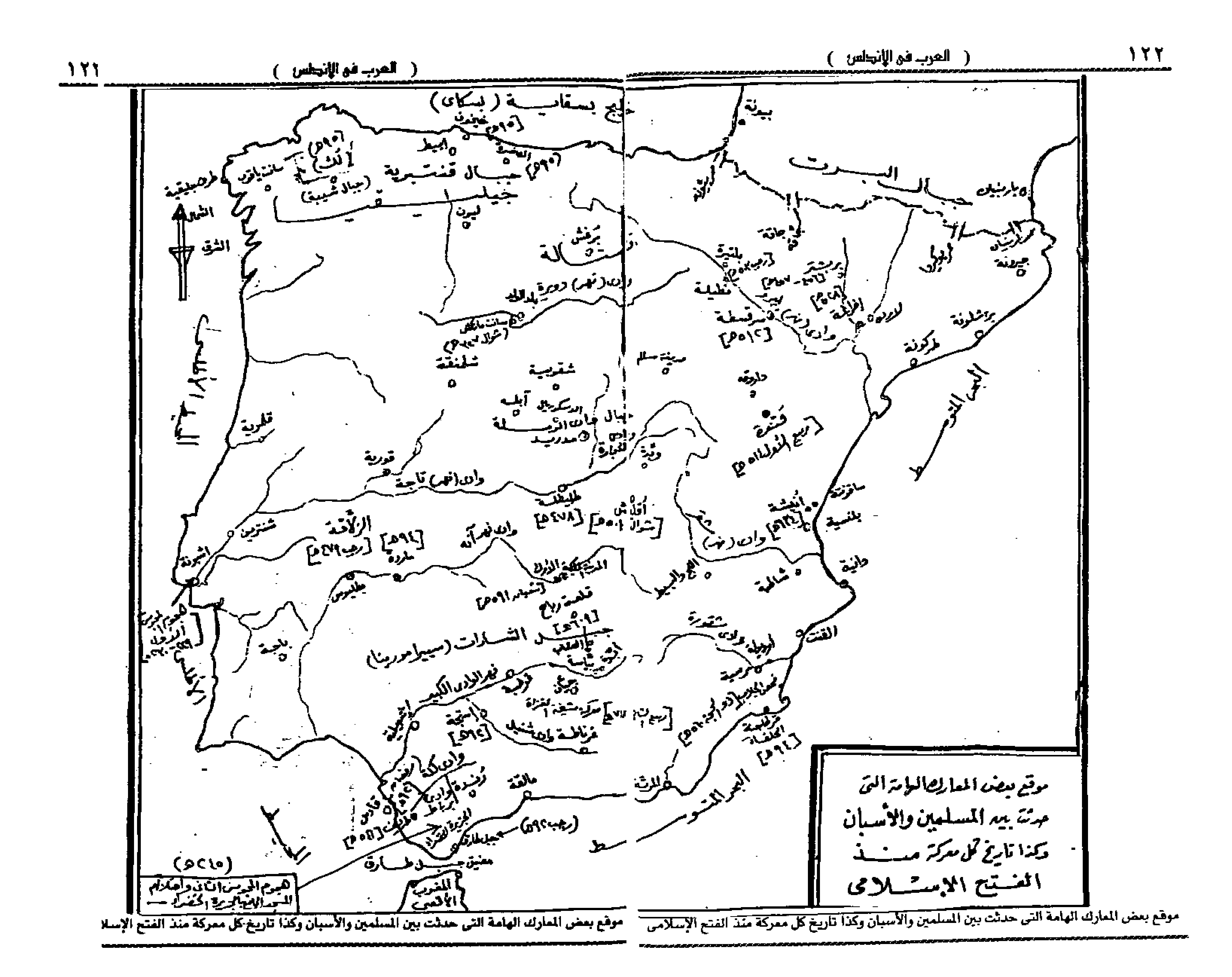
٣ - مما يجدر ذكره أن المسلمين بعد هاتين المعركتين لم يدركوا حق الإدراك لماذا تم لهم النصر فى كلا المعركتين . ولم يفطنوا إلى أن النصر لا يلبث أن ينقلب إلى هزائم متلاحقة بسبب الاستغراق فى الملذات ، والتشاحن ومناصرة الأعداء ، والتفتت إلى فرق ودويلات .

٤ - كذلك لم يقدروا ما هم فيه من موقف عصيب وحرج منذ سقوط طليطلة فى عام ٤٧٨هـ - ولم يستطيعوا استردادها رغم انتصارهم على الفرنجة فى معركة الزلاقة بعد عام من تلك الكارثة ، وإنَّما أعقب ذلك سقوط كثير من المعاقل الإسلامية فى يد المسيحيين الأسبان تباعًا .

٥ - إن الصراع الرهيب بين الموحدين والمرابطين فى الشمال الأفريقى وفى الأندلس ، وسقوط الآلاف المؤلفة من الجانبين أضعف من قوة المسلمين ، كما أضعفهم من قبل المذابح التى ارتكبها المرابطون ضد الأهالى فى الأندلس بغية القضاء على ملوك الطوائف .

٦ - إن قيام الثورات وحركات الاستقلال ضد الموحدين ، فت فى عضد الدولة الموحدية وأضعف كيانها فى أفريقية والأندلس ، كما أضعف المرابطين من قبل وانتهوا بذات النهاية التى انتهى إليها أسلافهم .





موقع بعض المعارك الهامة التى حدثت بين المسلمين والأسبان وكذا تاريخ كل معركة منذ الفتح الإسلامى

موقع بعض المعارك الهامة التى حدثت بين المسلمين والأسبان وكذا تاريخ كل معركة منذ الفتح الإسلا

الفصل الرابع

الجهاد الأخير للمسلمين فى الأندلس

• الجهاد الأخير للمسلمين فى أسبانيا

(معركتا حصن العقاب وأنيشة وما تلاهما)

ثم جلاء المسلمين عن آخر معاقلهم فى غرناطة

الجهاد الأخير للمسلمين فى أسبانيا
(معركتا حصن العقاب وأنيشة وما تلاهما)
ثم جلاء المسلمين عن آخر معاقلهم فى غرناطة

ماذا بعد وفاة الخليفة يعقوب المنصور :

لما تُوفِىَ الخليفة الموحِّدى يعقوب المنصور[1] (بطل معركة الأرك) خلفه ابنُه محمد ، الذى لُقِّب بعبد الرحمن الناصر لدين الله (أو بأبى عبد الله الناصر) وكان يختلف عن أبيه خلقًا ومقدرة ، واهتم باللهو والترف ، ولذلك كان السبب الرئيسى فى خراب امبراطورية الموحِّدين ، وبالتالى ضياع قضية المسلمين فى أسبانيا . كما كانت وفاة يعقوب المنصور إيذانًا للمسيحيين باستئناف هجماتهم على الأندلس ، فقد غمر الفونسو التاسع ملك قشتالة (الأدفنش) البلاد الواقعة حول أشبيلية وقرطبة بجنوده ، وأعمل فيها الحديد والنار حتى صارت يبابًا ، إزاء هذه الأحداث المؤلمة عبر الناصر إلى الأندلس للانتقام من المسيحيين ، وأول شيىء فعله هو إعدام قائده يوسف بن قادس حاكم قلعة رباح عقابًا له على تسليمها للمسيحيين، وقد أثار هذا الفعل ثائرة الأندلسيين وقاموا بثورة جارفة ضد الناصر لهذا العمل . وقد عمَّ السخط والاستياء جميع المدن الإسلامية فى الأندلس ، وكان له رد فعل سلبى فى حميَّة الجند إذا أدَّى إلى اختلال صفوفهم فى ساحة القتال ، وكانت أنباء استعدادات الناصر قد أثارت الشعوب المسيحية ، وقد هُرِع إلى أسبانيا جميع المغامرين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الصليبيين ، بعد أن طردتهم جيوش صلاح الدين المظفرة فى المشرق الإسلامى ، فأعلن البابا أنوسنت الثالث حربًا صليبية على المسلمين فى الأندلس ، وذهب رودركيو أسقف طليطلة إلى روما يلتمس المعونة من البابا ، داعيًا فى كل مكان إلى خوض حرب مقدسة ضد المسلمين .

---

(١) مختصر تاريخ العرب - سيد أمير على ، ص ٤٤١ .

الصراع بين الموحدين وبين بقايا المرابطين على السلطة والحكم :

يذكر المؤرخ الألمانى يوسف أشباخ أن خليفة المنصور وهو الناصر[١] محمد كان ذا كفاية ودراية ، إلاَّ أنه مع كفايته ودرايته وثقافته لم يكن يحسن اختيار وزرائه وقادته ، فكان كثيرًا ما يعهد بأهم شئون الدولة إلى رجال عاجزين يوليهم كل ثقته .

وكانت قد اشتعلت ضد الموحِّدين ثورة عارمة ، وثورات أخرى قام بها المرابطون فى الجزائر الشرقية (جزر البليار) ثم انضموا بعد ذلك تحت لواء محمد بن سعد بن مردنيش أمير بلنسية ، وبعد قتال عنيف مع الموحدين اعترفوا بهم فى عام ٥٦٧هـ ، بيد أنهم عملوا فى الخلاء على استدعاء أنصارهم تباعًا إلى ميورقة ، ولما شغل الناصر محمد بإخماد الثورة التى قامت ضده فى فاس ، رأى المرابطون الفرصة سانحة ليجربوا طالعهم فى الحرب مرة أخرى ، وحاولوا أن يجذبوا البربر إلى جانبهم ، ونهض المرابطون بزعامة يحيى بن إسحق الميورقى[٢] ، وهو من عقب يوسف بن تاشفين ، وساروا إلى أفريقية واستولوا على عدَّة مدن فى أحواز قرطاجَنة القديمة (تونس) . واضطر الناصر أن يحشد جيوشه ليحول دون تقدم الثوار ، ذلك أن زعيم الثوار كان قائدًا وافر الخبرة بفنون الحرب ، ولكن المرابطين لم يوفَّقوا إلى استرداد سلطانهم ، ذلك أنهم تحصنوا من الموحدين بأسوار المهدية ، ولكن المدينة اضطرت برغم حصانتها وبسالة يحيى الميورقى أن تذعن أمام ضربات الموحِّدين العنيفة ، حيث رميت بالمنجنيقات العظيمة - وقد استسلمت المدينة للناصر فى سنة ٦٠١هـ (١٢٠٥م) وعفا عن أهلها بعد الاستسلام وكذا عن يحيى الميورقى عفو الكرام .

ولكن تسامح[٣] سلطان الموحدين (الناصر محمد) لم يكن له من أثر إلاَّ أن يشجع المرابطين على الثورة من جديد ، فلم تمضِ ثلاثة أعوام حتى تزعم يحيى

---

(١) تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموحدين - يوسف أشباخ ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(٢) المرجع السابق .   (٣) المرجع السابق .

ابن إسحاق جموع الثوار مرة أخرى ، وقد قويت شوكته بانضمام عدد كبير من الناقمين من قبيلة زناتة إلى الثورة . ولكن المرابطين هُزِموا للمرة الثانية فى موقعة دموية ، وكاد أن يُسحق جيشهم عن آخره ، وفرَّ يحيى ناجيًا بنفسه ، ورأى الناصر أن يعمل على استئصال شأفة هذا الحزب نهائيًا ، فأمر بإرسال حملة بحرية إلى جزيرة ميورقة ، حيث كان عبد الله أخو يحيى فى الجزيرة ، وحاصرت الحملة الجزيرة واستولت عليها عَنوة ، وأُسِر عبد الله واحتزَّت رأسه ، وأُرسل محنَّطًا إلى مراكش ، وعلقت جثته على بعض جدران المدينة .

ولم تُبدِ الجزيرتان ميورقة ويابسة أية مقاومة ، بل خضعتا للفاتحين فى سنة ٦٠٤هـ (١٢٠٨م) وهكذا انهارت الأنقاض الأخيرة لسيادة المرابطين . وعندئذ استطاع سلطان الموحِّدين أن يوجِّه عنايته إلى شبه الجزيرة الأسبانية ، لكى يرفع فيها راية الإسلام على النصرانية ، وبعد أن أقام فى مختلف المدن المغربية أبنية عظيمة فخمة يخلِّد بها ذكره ، اعتزم أن يبزَّ أسلافه بأعمال الحرب الضخمة فى شبه جزيرة أيبريا .

الأعمال البشعة التى ارتكبها القشتاليون قبل لقائهم بالموحّدين :

ذكر المؤرخ الألمانى يوسف أشباخ[١] بعض الأعمال البشعة التى ارتكبها الفونسو القشتالى فى المسلمين قبل معركة حصن العقاب فقال « ولم يكن القشتاليون الظمأى إلى الحرب يستطيعون البقاء دون حرب ، فبعد أن قاموا بمعاونة الفرنسيين على الإنجليز فى جويان (وهى حرب قليلة الأهمية وقعت سنة ١٢٠٤م) وبعد أن عقدوا الصلح مع جيرانهم النصارى بسبب تدخل البابا ، أخذ ملك قشتالة الفونسو النبيل يتأهب لمحاربة المسلمين بكل ما وسعه من قوى ، وكانوا قد ركنوا إلى السكينة بعد وفاة يعقوب المنصور .

ثم ذكر أنه بعد أن حصَّن ألفونسو قلعة مورة الواقعة على الحدود تحصينًا قويًا سنة ١٢٠٩م ، سار فى جيش من القشتاليين وفرسان قلعة رباح إلى الأندلس ،

(١) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين - يوسف أشباخ ، ص ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

فانتسف الحقول ، ونهب القرى ، وقتل السكان ، وسبى منهم جموعًا كبيرة ، ثم عاد إلى قشتالة ولقيَ ملكى نافارا وأراجون ، ووثق معهما عهود الصلح ، وحصل منهم على وعد بتأييده ، وإمداده بالجند حين الخطر لمحاربة العدو المشترك ، واعتزم بعد ذلك أن يعمل لمحو وصمة هزيمة الأرك بإحراز نصر باهر على الموحدين ، وفى العام التالى سار مرة أخرى إلى الأندلس وخرّب أراضى جيَّان وبيَّاسة واندوجار ، ووصل إلى أحواز مرسية ، ثم عاد إلى طليطلة مثقلاً بالغنائم .

تأهب الموحدين لمحاربة القشتاليين :

ولما وقف الناصر محمد على اعتداءات النصارى المتكررة على الأندلس ، أعلن الجهاد مؤمّلاً أنه يستطيع بقواته الضخمة التى يرسلها من المغرب إلى أسبانيا أن يسحق الممالك النصرانية بلا مراء . وحشد فى جنوبى شبه الجزيرة خمسة جيوش ضخمة ، سيكون أولها من القبائل البربرية ، والثانى من الجنود المغربية ، والثالث من الجنود الأندلسية ، والرابع من الجنود الموحِّدية أو الجنود النظامية التى تحشد وفقًا لنظام عسكرى موحد . ويتكون الخامس من المتطوعة من جميع أنحاء المملكة ، ويضم وحده مائة وستين ألف مقاتل من الفرسان والمشاة . يقول المؤرخ « وأنه من[1] الممكن أن نقدِّر الجيش الذى حشده محمد الناصر لمحاربة أسبانيا النصرانية بنحو نصف مليون مقاتل » . وفى ٢٥ من ذى القعدة سنة ٦٠٧هـ (أوائل مايو سنة ١٢١١م) جاز سلطان الموحدين بنفسه إلى الأندلس ونهزل فى جزيرة طريف ثم غادرها بعد أيام قلائل إلى أشبيلية .

وقد ارتكب الناصر خطأ فادحًا بتوجيه خيرة جنده للاستيلاء على حصن سريطرة الجبلى المنيع ، بناء على رأى حاجبه أبى سعيد بن جامع الذى كان يثق فيه ، ويشك الموحِّدون فى صدق نياته ، واستمر الحصار طيلة فصل الصيف حتى دخول الشتاء ، وعانى المغاربة فى هذه الجبال الوعرة من قسوة الطقس ما لا يحصى ، ومرض منهم الكثيرون ، وحاول الفونسو رفع الحصار إلاَّ أنه لم يفلح . وسقطت قلعة سريطرة بفعل الجوع والمعاناة - سقطت أخيرًا فى يد الموحدين ، ولكن مقاومتها الطويلة - كما يقول يوسف أشباخ - كانت سببًا فى إنقاذ أسبانيا النصرانية .

---

(١) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين - يوسف أشباخ ، ص ٢٥٦ .

تأهب القشتاليين لملاقاة الموحدين وحشدهم قوى أوربا لمعركة المصير :

وكان ملك قشتالة الفونسو النبيل قد أرسل جِرْهارد[١] أسقف شقوبية إلى البابا أنوسان يرجوه أن يرسل الصيحة إلى أمم أوربا النصرانية ، لكى تنظم حملة صليبية ضد المسلمين فى الأندلس ، وأرسل رودريك مطران طليطلة (المؤرخ المشهور) وعدداً آخر من الأحبار إلى فرنسا وإلى الأمم الواقعة فى شرقيها ، ليثيروا بذلاقتهم حماسة الشعوب النصرانية من جبال البرنيه ، إلى البحر الأسود ، للمساهمة فى كفاح الصليب المقدس .

وفى الوقت الذى كان البابا ومطران طليطلة يعملان للحصول على معاونة أوربا النصرانية ضد المسلمين ، كان الفونسو النبيل يعمل لجمع كلمة الملوك الأسبان (قشتالة نافارا وليون وأراجون والبرتغال وبرشلونة) ضد الموحدين . ودعا فى سبيل هذه الغاية إلى مؤتمر عقده فى قونقة ، ولم يشهده إلى جانب الفونسو سوى بيدرو ملك أراجون ، ولكن شهده مندوبون من قبل باقى - ملوك النصارى ، ووعدوا بتقديم العون من جند ومال .

وهكذا انقضى عام١٢١١م فى القيام[٢] بأهبات عسكرية عظيمة لمتابعة الحرب، وقبل انتهاء فصل الشتاء اجتمعت فى طليطلة عاصمة قشتالة - التى اتخذت مكاناً لاجتماع الجند - قوات عظيمة ، وفى أوائل العام (١٢١٢م) عاد المطران رودريك الطليطلى ومعه جمع غفير من الفرنسيين ، وتلا ذلك تجمع وفود من مدن أسبانية كثيرة ، وفرسان الولايات القشتالية المختلفة ، وأساتذة فرسان قلعة رباح ، وشننت ياقب والاسبتارية والداوية ، ورؤساؤهم وإخوانهم المحاربون ، واجتمع القوامس والفرسان القشتاليون إلى الملك الفونسو النبيل فى أكمل هيئة وسلاح ، إظهاراً لمكانتهم وإرهاباً لعدوِّهم .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٥٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥٧ .

« ومع أنه وفدت على أسبانيا[1] جموع المحاربين من جميع البلدان الأوربية ليقاتلوا دفاعًا عن النصرانية ، متقلِّدين الصلبان ، فقد كان الفرنسيون أكثر الوافدين عددًا .. وكان الجميع يضطرمون شغفًا للقاء المسلمين .. ووفق أرنولد إلى ما هو أهم من ذلك ، وهو أن يحمل بذلاقته وضراعته ملك نافارا - بعد أن غاضبًا من ملك قشتالة - على أن يؤيِّد قضية أسبانيا بالمال والجند أولاً ، ثم بالأخصّ على التعهد بأن يسير مع فرسانه وأن يشترك بنفسه فى القتال » .

وفى شهر مايو سنة ١٢١٢م - اجتمع فى قشتالة من المحاربين الصليبيين الذين هُرِعوا من جميع أنحاء أوربا لِمعاونة أسبانيا زُهاءَ سبعين ألف مقاتل - وكان فى الطريق قوات أخرى لم تصل إلاَّ فيما بعد ، وفى أول يونية وهو عيد التثليث قدِم بيدرو الثانى ملك أراجون فى جيشه الضخم .. وأخيرًا قدِمَت الإمدادات من ليون وجليقية والبرتغال ، وكانت القوات البرتغالية تتألف من عدد كبير من الفرسان والمشاة البارعين ، يقودهم أمير برتغالى هو بيدرو ثالث أبناء الملك سانشو الأول ، وكان القوات الليونية بقيادة سانشو فرنانديز أخى ملك ليون - وكانت جموع المحاربين من الكثرة بمكان بحيث تعذر أن تضمهم مدينة طليطلة فانتشروا فيما حولها من القرى والمزارع والبرارى .

وليس أدلَّ على الأهمية التى كان يعلِّقها الغرب يومئذ على هذه الحملة الصليبية ضد مسلمى الأندلس ، من اشتراك الجموع فيها بصورة فعلية ، وكَوْن آلاف منهم يتقلدون الصليب ، كذلك لا ريب فى أن مقادير عظيمة من المال والسلاح والمؤن أُرسلت إلى ملك قشتالة من فرنسا وإيطاليا - وكان ذلك مما مكَّن الملك الفونسو النبيل من أن يمدَّ جيش الوافدين الذى بلغ فى أوائل يونية سنة ١٢١٢م أكثر من عشرة آلاف فارس ومائة ألف من المشاة فضلاً عن المؤن ورواتب مالية مُجزية ، وفى رومة أمر البابا أنوسان الثالث بالصوم ثلاثة أيام والاكتفاء بالخبز والماء ، التماسًا لانتصار الجيوش النصرانية ، وأقيمت الصلوات العامة ، وعمد رجال الدين

(١) المرجع السابق ، ص ٣٥٨ .

والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة ، وسارت المواكب فى الطرقات خاشعة متمهلة من كنيسة إلى أخرى .

وتأهب الجيش النصرانى بالسير إلى لقاء العدو فى ٢٠ من يونية سنة ١٢١٢م- ونظمت القوات فى ثلاثة جيوش حتى لا يصاب الجند أثناء السير بنقص المؤن - وسار فى الطليعة جيش الوافدين ، وقد قدَّرته بعضُ الروايات بستين ألف محارب على الأقل . وقدَّره بعضهم بمائة ألف وكان تحت إمرة القائد القشتالى ديجو لوبيث دى هارو .. وكان يقود الجيش الثانى الملك بيدرو الثانى ، وهو مؤلف فقط من الأرجونيين والقطلونيين وفرسان الداوية ، أما الجيش الثالث وهو أضخم الجيوش الثلاثة ويتألف من جنود قشتالة وليون والبرتغال وفرسان قلعة رباح وسنت ياقب والأسبتارية وقوات الأمير الليونى سانشو فرناديز والأمير البرتغالى بيدرو ، وررودريك مطران طليطلة ، وخمسة أساقفة آخرين ، وتقدر الرواية عدد الفرسان فى هذا الجيش بثلاثين ألفًا ، ولكنها لم تحدثنا عن عدد المشاة .

هذا هو الوصف الذى أورده المؤرخ الألمانى يوسف أشباخ للحشود الهائلة التى حشدتها أوربا لمحاربة المسلمين واقتلاعهم من الأندلس ، وقد سقناه للقارىء الكريم بإيجاز - لكى يتبين مدى الحشد والاستنفار لهذه المعركة الصليبية المصيرية محكاةً على لسان شاهد من أهلها - ويتبين لنا أن هذه الجيوش النصرانية المستنفرة للحرب لا تقل عددًا عن جيوش الموحِّدين ، فقد أورد المؤرخ أن عدد جيش الوافدين بلغ مائة ألف محارب فى أحد الروايات ، والجيش الثانى المكَّون من الأرجوانيين والقطلونيين يزيد عنه عددًا وأهمية فيمكن تقديره بمائة وخمسين ألف مقاتل ، والجيش الثالث وهو أهمها جميعًا والذى يقوده الفونسو النبيل قد ضم جيوش ممالك عديدة بالإضافة للجيش القشتالى ، كما ضم فرسان القلاع وفرسان الأسبتارية وهم النازحون من الحرب الصليبية فى المشرق العربى ، وضم فرقًا يقودها المطارنة والأساقفة .. وقدر المؤرخ عدد الفرسان فقط فى هذا الجيش بثلاثين ألفًا ، فيمكن القول بأن العدد الإجمالى لهذا الجيش لا يقل عن مائة وثمانين

ألفًا – أى أن إجمالى هذه الجيوش الثلاثة لا يقل عن أربعمائة وثلاثين ألف مقاتل – هذا عدًا ما توافر لهذه الجيوش من الإمدادات وحسن التنظيم ، وتهيئة الظروف الملائمة للسير والراحة ، واختيار القواد ذوى الكفاية والدراية العالية ، والتعبئة الروحية الفائقة .

معركة حصن العقاب : (الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩هـ/١٦ من يولية ١٢١٢م)

وفى اليوم الخامس من بدء السير[١] من طليطلة أى فى الرابع والعشرين من شهر يونية ، هاجم المحاربون الوافدون حصن مجلون وقتلوا جميع من فيه ، ولكن المؤن أخذت فى النقص ، وفكَّر كثير منهم فى العودة ، وكان حماستهم قد خبت على أثر هذا المجهود الأول . وفكر كثير منهم فى العودة إلى أوطانهم ، ولما قدم ملك قشتالة إلى مجلون هدأ روع المتطوعة بتوزيع المؤن عليهم ، واستطاع أن يقنعهم بالسير معه إلى قلعة رباح ، وكانت بها حامية قوية من الموحدين ، ولقىَ النصارى عناء شديدًا فى عبور نهر آنه بسبب الصنانير والخوازيق التى نشرها المسلمون على جانبيه ، وهاجمت الجيوش الثلاثة قلعة رباح من جميع الجهات ، ولكنهم ردوا أكثر من مرة لمناعتها وقوة حاميتها ، وخشُوا أن يطول الحصار ، وذكر المؤرخ يوسف أشباخ أن المسلمين كانوا يرابطون فى نهاية مقاطعة لامنشا بين جيَّان وقرطبة ، ولما شدَّد المهاجمون الحصار على القلعة بعث الناصر قائده يوسف بن قادس سرًا وتحت جنح الظلام ليفاوض ملك قشتالة على ترك حامية القلعة تخرج بسلاحها ويعِدُه بتحف عظيمة وبتسليم القلعة ، وكان ملك قشتالة يميل إلى هذا الطلب لكى يستولى على القلعة بسرعة ، ولكن الأرجوانيين والمحاربين الوافدين أبوا الإصغاء إلى أية تسوية تُحقن بها دماء الحامية ، بيد أنه لما أبدى المسلمون عزمهم على المقاومة إلى آخر رمق ، وافق النصارى أخيرًا على أن تنسحب الحامية دون سلاحها ، مع تعهد الفونسو وبيدرو والفرسان على حمايتهم أثناء الانسحاب ، وحاول الصليبيون

---

(١) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين (يوسف أشباخ) ص ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

الآخرون الفتك بهم ، ولكنّ الله أنجاهم منهم . وذكر المؤرخ أنّ الناصر حينما وقف على أمرِ ابن قادس وتسليمه القلعة للأعداء ، أمر بقتله جهارًا نزولاً على نصيحة وزيره أبى سعيد بن جامع ، وكان رجلاً كثير الدس ، يبغض كل الزعماء الأندلسيين.

لقد تعمَّدْتُ أن أورد فيما سبق كيف تأهبت أوربا للحرب المقدسة ضد المسلمين فى شبه جزيرة أيبريا نقلاً عن مؤرخ ألمانى مسيحى ، حتى يكون وصفًا محايدًا - إن لم يكن فى صالح بنى جنسه وملته - ثم بعد ذلك أقتطف هذه الفقرة من كتاب التاريخ الأندلسى للدكتور/ عبد الرحمن الحجى « كان البابا - لهذا الوقت- أنوصان الثالث الذى يتمتع بروح صليبية عالية ، بعث هذا البابا إلى الأساقفة فى جنوب فرنسا بأن يعظِوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة ، وأنه- إى البابا - يمنح من لبَّى هذه الدعوة الغفران التام . ذكر عدد[1] من مصادرنا هذا الأمر ، فيقول الحميرى فى الروض المعطار : إن « الأدفونش بن شانجَة لم يقدرِ فى ذلك الوقت على شيىء حتى استغاث بأهل ملته ، وكاتبَ مَنْ قَرُب وبَعُد منهم ، وشكا إليهم ما دهاه من المسلمين ، وحثَّهم على حماية دينهم ونصر ملتهم ، فاستجابوا له وجاؤوه من كل جهة وانثالوا عليه ، فكان من وقيعة العقاب (جمع عَقَبة) على الملك الناصر فى عام ٦٠٩هـ ما هو مذكور فى موضعه « حتى إن ملك ثبَّارة شانجة - شانجو السابع المقلب عندهم بالقوى - الذى كان قد ارتبط مع الموحدين فى حلف وصداقة ، هدَّده البابا إذا لم ينقضه ويعاون ملك قشتالة ففعل ، كان التجمع لهذا اللقاء واسعًا وضخمًا » .

ثم التحم الجيشان فى يوم الاثنين[2] الخامس عشر (أو الرابع عشر) من صفر لسنة ٦٠٩هـ (١٦ من تموز - يولية سنة ١٢١٢م) فى سهل يقع جنوب غربيٍّ حصن العقاب الذى عُرفت المعركة باسمه ، وقد كان الخليفة الناصر يرى النصر حليفه لِما شهده من التفوق العددى لجيشه ، وانتهى اللقاء بعد قتال شديد بين الطرفين بهزيمة

(١) التاريخ الأندلسى (د. عبد الرحمن الحجى) .

(٢) المرجع السابق .

المسلمين الذين كَثُر فيهم القتل . وكانت الخسارة فيهم عظيمة ولها نتائج كبيرة ، ويقول المراكشى « عبأ الأدفونش جيوشه ورتب أصحابه ودهم المسلمين ، وهم على غير أُهبة ، فانهزموا وقتل من الموحِّدين خلق كثير .. » ولعل أمورًا كثيرة انتفع بها ملك قشتالة ومن عاونه من أهل ملته وقد اتَّبع كلَّ وسيلة حتى الغدر والاحتيال . فلما انتهى اللقاء بهزيمة جيش الناصر وتشتت قوة الموحدين ، عاد إلى مراكش حيث توفى[1] فى سنة ٦١٠هـ (١٢١٣م) ربَّما غمًّا وكمدًا من نتيجة معركة العقاب التى كانت نذيرًا بانحلال الدولة الموحِّدية وانهيارها . وقد خلف الناصر ابنه أبو يعقوب يوسف (الثانى) الملقب بالمستنصر بالله ، والذى عقدَ معاهدة سلم مع قشتالة بعد وفاة ملكها الفونش (الثامن) . لكن الأندلس خسرت بهذه المدة بعض القواعد منها *قصر الفتح (قصر أبى دانس) فى شهر ربيع الأول سنة ٦١٤هـ بيد ملك البرتغال* الفونش (الثالث) وبمساعدة أسطول الصليبيين الألمان ، فاستسلمت المدينة بعد مقاومة وقتال مريرين .

دروس وعبر من معركة حصن العقاب :

١ - بادىء ذى بدء نردد قول الله تعالى : ﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ﴾ وهذه الآية الكريمة لا تتعارض مع قوله تعالى ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ فالآية الأولى تنطبق على ما آلت إليه شبه جزيرة أيبريا بعد معركة العقاب الحاسمة ، وهذا الأمر المحزن لا يسىء إلى الإسلام الذى أدَّى رسالته خير أداء فى تلك البقاع ، ولكنه كان نتيجة حتمية لمن حملوا راية الإسلام وهم فى ضعف وتخاذُل رغم كثرتهم العددية وكثرة عتادهم وكانوا يتباهون بكثرتهم ، ونسُوا الله ربهم وناصرهم . والآية الثانية هى البشرى العظيمة للمسلمين إذا صلُح شأنهم بأنهم سيملكون الأرض كما ملكها أسلافهم حينما أخلصوا لله دينهم .

٢ - لقد اجتمعت عوامل كثيرة فى هزيمة المسلمين فى تلك المعركة منها :

---

(١) المرجع السابق .

(أ) تنازعهم وإراقة دماء بعضهم بعضًا بأساليب رهيبة وبشعة تبعدهم عن الإسلام .

(ب) عدم إخلاصهم دينهم لله تعالى وإيثارهم الدنيا على الآخرة .

(جـ) الزهو والإعجاب بكثرتهم - وأن الناصر لم يكن ورعًا كوالده (يعقوب) الذى كان دائم الذكر لله تعالى فى كثير من المواطن ، وكان يستدر عطفه ورحمته .

(د) بطش الناصر بالقادة النبلاء وإصغاؤه لوسائس العملاء .

(هـ) إجهاد جنوده واستنفاد طاقتهم بمحاصرة قلعة سريطرة المنيعة ، وعدم مبارحتها لملاقاة العدو مما فتَّ فى عضد المقاتلين واستنفد الكثير من طاقاتهم والمؤن والعتاد والذخيرة .

٣ - استصراخ الفونسو النبيل والبابا أنوسان الثالث وروردريك الطليطلى جميع ملوك أوربا من جبال البرنيه إلى البحر الأسود للقضاء على المسلمين فى الأندلس ، واستخلاص الأراضى الأسبانية منهم .

٤ - استفادة الجيوش النصرانية بالخطط الحربية التى خاض بها المسلمون معركة الأرك ومنها تقديم فرق المتطوعة على سائر الجيوش النظامية ، وتوفير جميع وسائل الراحة للجنود ، وتوفير المؤونة والعتاد الحربى ، وعدم استنفاد طاقتهم بمحاصرة القلاع المنيعة كقلعة رباح التى رضوا بأن تسلم لهم بالمفاوضة مع المسلمين، وقلعة سريطرة التى تركوها لمنعتها ، كما توفر لجنودهم الإعداد الروحى - وهو ما يسمى بجهاز التوجيه المعنوى حديثًا - مما جعلهم ذوى روح معنوية عالية .

٥ - لم يستخدم الجيش الموحدى أسلوب مباغتة العدو فى الوقت المناسب ، وكان أنسب وقت لمباغته هو فى بداية المعركة وقبل أن يباغتهم العدو .

٦ - لقد كان للمعارك التى خاضها الجيش الموحِّدى ضد الثائرين فى المغرب وفى الأندلس أثره البالغ فى إضعاف قوة الجند واستنفاد معداتهم .

٧ - استخدام النصارى كل أساليب الخداع لإيقاع جيش المسلمين فى شراكهم حتى خالطوهم على غفلة وفرَّ المسلمون فرارًا ما سُمِعَ بمثله .

التدرج من حيث القرابة والترتيب الزمنى لخلفاء عبد المؤمن :

كما سبق القول آنفًا بأن عبد المؤمن بن على هو التلميذ النجيب الذى اصطفاه أبو عبد الله بن تومرت (مؤسس دولة الموحدين) خليفةً من بعده ، فلما تُوفِى أبو عبد الله المهدى فى رمضان من عام ٥٢٤هـ ، نُودِى بعبد المؤمن خليفة للموحِّدين فى أفريقية وفى جميع بلاد الأندلس ، وبوفاة عبد المؤمن بن على فى عام ٥٥٨هـ فى سلا (العاصمة الأولى للموحِّدين) تولى الحكم بعده ابنه يوسف (المكنَّى بأبى يعقوب) وكان أبو يعقوب المنصورا قائدًا مغوارًا حقَّق على الأسبان كثيرًا من الانتصارات ، ووافقته المنية فى عام ٥٨٠هـ ، بعد إصابته فى محاولة الاستيلاء على قلعة شنترين ، ومنذ ذلك العام خلفه ابنه يعقوب (المكنى بأبى يوسف) وهو بطل معركة الأرك التى حدثت فى عام ٥٩١هـ ، ووافاه الأجل ببر العُدوة فى عام ٥٩٥هـ، وقد لُقِّب كلا الخليفتين أبى يعقوب (يوسف) وأبى يوسف (بالمنصور) ، وأعقب يعقوب المنصور ابنه محمد (المكنى بأبى عبد الله) ولقب بالناصر ، وهو الذى هُزِم المسلمون فى عهده هزيمة لم تقم لهم بعدها قائمة فى الأندلس ، وأقصد بذلك معركة العِقاب (جمع عقَبة) التى حدثت فى عام ٦٠٩هـ ، وعاد الناصر إلى مراكش مذمومًا مدحورًا، ومات بها كمدًا فى عام٦١٠هـ ، ثم خلف الناصر ابنه يوسف الثانى (المكنى بأبى يعقوب) ولقب بالمستنصر بالله ، وهو الذى عقد معاهدة سلم مع الفونش ملك قشتالة ، لكن الأندلس خسرت بهذه المعاهدة بعض القواعد منها قصر الفتح (قصر أبى دانس) فى عام ٦١٤هـ - ويقول الدكتور حسين مؤنس عن هذا الخليفة فى مقدمة كتاب الحُلة السِّيَراء لابن الأبَّار « وخلال السنوات العشر التى دامها حكم هذا المستنصر تغيَّرت نفسية أهل البيت الموحِّدى وأشياخ حركتهم ، فلم يعودوا بيتًا متَّحدًا تجمعه معنوية واحدة ، بل أشياخًا اقتعد كل منهم قاعدة من خُوان المُلك الموحِّدى ، أو وظيفة من وظائفه الرئيسية فى مراكش وعينه متجهة إلى عرش الخلافة يمنِّى نفسه بها » . أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجريين باثنين من أبناء يعقوب المنصور هما « أبو محمد عبد الله (وكان يتولى مرسية)

وأبو العلا إدريس (وكان يتولى قرطبة) ، وشاركهما فى هذا الطمع وأربى عليهما ابن عمهما عبد الله بن أبى حفص بن عبد المؤمن (الذى عرف أهل بيته بالبياسيين) وكان يتولى أشبيلية ثم بلنسية ، وناصره والداه عبد الرحمن وعبد الله ، فأولئك النفر من البيت الموحدى كانوا يتقاسمون مُلك ما بقى للإسلام فى الأندلس » .

فلما تولى الخلافة بعد وفاة المستنصر أبو محمد عبد الواحد بن أبى يعقوب المنصور ، نهض ابن أخيه أبو محمد عبد الله بن يعقوب وخلعه فى العام التالى من تولِّية الحكم أى فى عام ٦٢١هـ ، وأعلن نفسه خليفة من بعده ، ولقب بالعادل ، وأيَّده فى ذلك أخوه أبو العلا إدريس (صاحب قرطبة) وابن عمه عبد الله البياس (صاحب أشبيلية) . وحدثت فى أيام العادل (أبى محمد عبد الله) فتن عظمى للإسلام والمسلمين بالأندلس ، وخاصة بعد تنكُّره لمن أيدوه على عمه (عبد الواحد). فانضم العادل إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وسلَّم له عددًا من بلاد المسلمين مثل فيجاطة وباجة ولوشة ، ولم يطُل أمر العادل بعد هذه الأحداث ، لأن خلافًا شديدًا نجم بينه وبين رجال دولته وقادته ، فقبضوا عليه ثم قتلوه فى عام ٦٢٤هـ/١٢٢٧م - وفى ذلك الوقت كان أخوه أبو العلا إدريس قد نادى بنفسه خليفة من أشبيلية وتلقب بالمأمون، وخاض غمار حروب طويلة مع محمد بن يوسف بن هود الذى كان قد نادى بنفسه أميرًا على الأندلس ، فاضطر المأمون بعد أن يئس من النصر إلى العبور إلى مراكش، ولم يتمتع بالأمان يومًا واحدًا حتى أدال الله منه بابنه عبد الواحد الثانى (المكنى بأبى محمد) والذى لقب بالرشيد وذلك فى عام ٦٢٩هـ - واستمر الرشيد فى الحكم حتى عام ٦٤٠هـ .

* * *

ويمكن استيعاب هذا التسلسل فى الوقائع والأشخاص بالرسم المشجَّر التالى :

جدول أمراء الموحدين(*)

الأول : محمد بن تومرت (المهدى) المكنى
بأبى عبد الله توفى فى عام ٥٢٤هـ

↓

الثانى : أبو محمد عبد المؤمن بن على
توفى فى عام ٥٥٨هـ

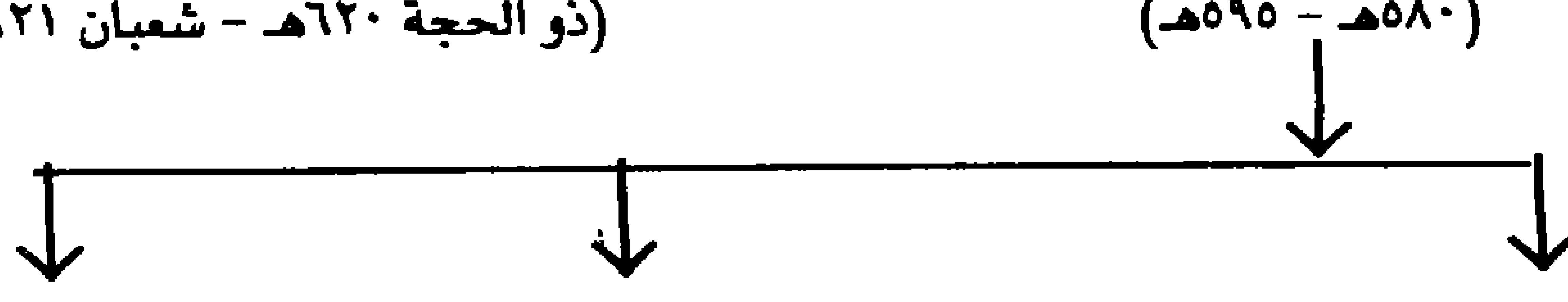
↓

الثالث : أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن
(المنصور) ٥٥٨ - ٥٨٠هـ

↓

الرابع : أبو يوسف يعقوب (المنصور)
(٥٨٠هـ - ٥٩٥هـ)

السابع : أبو محمد عبد الواحد (المخلوع)
(ذو الحجة ٦٢٠هـ - شعبان ٦٢١هـ)



الخامس : أبو عبد الله محمد (الناصر)
(٥٩٥هـ - ٦١٠هـ)

↓

السادس : أبو يعقوب يوسف (المستنصر)
(٦١٠هـ - ٦٢٠هـ)

الثامن : أبو محمد
عبد الله (العادل)
(٦٢١هـ - ٦٢٤هـ)

التاسع : أبو العلا
إدريس (المأمون)
توفى فى عام ٦٢٩هـ

↓

العاشر : أبو محمد
عبد الواحد الثانى
(الرشيد)
توفى فى عام ٦٤٠هـ

(*) التاريخ الأندلسى ، د. عبد الرحمن الحجى ، ص ٤٦٦ .

سقوط بعض القلاع الإسلامية عقب معركة العقاب :

كانت معركة العقاب نذير شؤم على المسلمين فى الأندلس ، وهى المعركة[١] التى فُقد فيها آلاف مؤلَّفة من المسلمين ، بل إنَّها إحدى الكوائن المنذرة بما آل إليه أمر الإسلام فى الأندلس ، وقد سبق الإشارة إلى استسلام مدينة قصر أبى دانس فى عام ٦١٤هـ . فى عصر المستنصر بالله الموحِّدى ، بعد أن جابهها الفونش البرتغالى بجيوش كثيفة ، وأمام ضغط هذه الجيوش عرض أهلها التسليم على أن يُسمح لهم بالخروج بأموالهم ، فرفض النصارى ذلك ، ووافقوا فقط أن يسمح لهم بالخروج أحياء ، دون أن يحملوا شيئًا معهم .. إلا أن النصارى دخلوا المدينة وقتلوا كل من كان بها وبالضياع المجاورة من المسلمين .

وفى يوم الاثنين الرابع عشر من شهر صفر لعام ٦٢٧هـ[٢] (أول كانون الثانى يناير ١٢٣٠م) سقطت إحدى الجزائر الشرقية الثلاث (ميورقة ومنورقة ويابسة) ونعنى بها جزيرة ميورقة - سقطت فى قبضة جيوش متَّحدة ومتحالفة من أرغون بقيادة ملكها الطاغية جايْمِش بن بطره بن جايمش (جاقمة بن بيدرو بن جاقمة) وجيوش من فرنسا وإيطاليا - حيث أمعنوا فى أهلها قتلاً وسفكًا ، رافضين أىّ دعوة للمصالحة أو الاستسلام سلمًا . وقد سمَّى المؤرخون الأندلسيون سقوط ميورقة بالحادثة العظمى من قِبَل الروم على ميورقة ، أو الحادثة الشنعاء على أهل ميورقة - حدثت هذه الفاجعة حينما كان يقتتل الخليفة الموحِّدى الملقب بالمأمون مع محمد ابن يوسف بن هود الذى نادى بنفسه أميرًا على الأندلس ، وتلا سقوط جزيرة ميورقة سقوط جزيرة اليابسة وهى صغرى الجزائر الثلاث . أما جزيرة منورقة فاستمرت فى الكفاح ضد مطامع النصارى ، ولم تسقط[٣] إلا بعد حوالى ستين سنة من سقوط ميورقة (أى فى سنة ٦٨٦هـ - ١٢٨٧م) حيث دخلها الجيش الأرجونى وأجلوا المسلمين عنها ، وغادرها حاكمها أبو عمر حكم بن سعيد بن حكم حاملاً رِمَّة أبيه أبى عثمان متوجِّهًا إلى مدينة سبتة ببِرِّ العُدوة ، بعد أن مكث أيامًا بكل من المريَّة وغرناطة .

---

(١) التاريخ الأندلسى ، ص ٤٦٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

وفى يــوم الأحد الثالث والعشرين من شهــر شـوال لعـام[1] ٦٣٣هـ (١٢٣٦م) سـقطت حـاضـرة الإسـلام الأولى فى الأنـدلـس ، وأعـنـى بهـا مـدينة قـرطبـة فى قبضـة جيوش ملك قشتالة فِرَّانْدَة بن الفونش (هــرَّانده بن الهُنشَه) أى فـرنانـدو الثالث بن ألفونس التـاسع . وقرطبة هى حاضـرة الأندلس الكبرى ، وعاصمـة الغرب الإسلامى ، والتى أفاضت خلال خمسة قرون أو أكثر على من فيها ومن حولها خيرًا كثيـرًا وبركة ونورًا ، وامتـد نورها إلى مـا وراء جبـال البـرنيـه ، وكانت مثوى الفضل ومرتوى للطلبـة والعلمـاء ، وموطنًا من مواطن النجدة والفروسـيـة ، كمـا كـانت ثغر جهاد ورباط دعـوة ، وقد قاومت قرطبة مقـاومة عنيفة ذلك الغازى الجبار (فرناندو الثالث) لكنهـا اضطرت أخيـرًا إلى التسليم ، فـدخلهـا الأدفونش بعـد إخـراج أهلهـا منهـا ، وحوَّل مسـجد قـرطبـة الجـامع إلى كنيسـة ، وغنم مـا فـيهـا من قـصـور وذخـائر وثروات .

معركة أنيشة وسقوط بلنسية :

قبل سـقـوط قـرطبـة عـاصـمـة الإسـلام الأولى فى الأندلس[2] - أصـدر البـابا جريجورى التاسع موسومه بإسباغ الصفة الصليبية على حروب إسقاط بلنسية ، والتى بدأت فى عام ٦٣١هـ (١٢٣٣م) حتى عام ٦٣٥هـ (١٢٣٧م) وبلنسية هى المعقل الإسـلامى الكبيـر الذى سقط بعد سقوط قـرطبـة التى سقطت فى عـام ٦٣٣هـ - وكـان يحكم بلنسيـة آنئذ أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن سعد الجَذامى . وقد وقعت خلال حـروب الاستيلاء على بلنسية - معركة أنيشـة (أنيجـة) فى يوم الخميس الموفَى عشرين من ذى الحجة لعام ٦٣٤هـ (١٢٣٧م) .

وأنيشة حصن يقـع شمـالىَّ مدينة بلنسيـة على بعد سـبـعة أميـال - هـاجـمه الملك الأراجونى وهدمه - وابتنى حصنًا منيعًا يكون مـركزًا لعيثـه وأعماله الحـربية ضد بلنسية . ولما أراد أبو جميل زيَّان انتزاع حصن أنيشة سار بقوة عسكرية اشترك فيهـا كثيـر من علمـاء بلنسيـة ، منهم كبيـر علمـاء الأنـدلس ومحـدثيـهـا : أبو الربيع

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

سليمان بن سالم الكلاعى ، وقد كان - رحمه الله - جنديًا جريئًا خاض عددًا من المعارك ، وخاض معركة أنيشة فى مقدمة المجاهدين ، وكان رحمه الله من ذوى الحزم والجرأة والبسالة والإقدام ، وكان يتولَّى بنفسه القيادة ، ويُبلِى فيها بلاء حسنًا ، وكانت هذه المعركة هى آخر معركة يخوضها ويُستشهد فيها ، حيث حضرها وحرض المسلمين ، ورغَّبهم فى مكافحة العدو[1] ، ولم يزل متقدِّمًا أمام الصفوف زحفًا إلى الكفار ، مقبلاً غير مدبر ، ينادى المنهزمين : أعن الجنَّة تفرُّون ؟ حتى قتل صابرًا محتسبًا غداة يوم الخميس لعشرٍ بقين من ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وستمائة . واستشهد معه علماء فُضلاء ، وقد رثاه ورثاهم معه ابنُ الأبَّار الأندلسى فى قصيدة بلغت المائة بيت وبيت يقول فيها :

مضَوْا فى سبيلِ الله قِدْمًا كأنَّما ... يَطيرون من أقدامهم بقوائم

يرون جوار الله أكبر مغنم ... كذاكَ جِوارُ الله أسمَى المغانم

ألاَ بِأبِى تلكَ الوُجوهُ سَواهِمًا ... وإنْ كنَّ عند الله غيرَ سَواهم

فلاَ يُبعِدِ اللهُ الذين تقرَّبُوا ... إليه بإهداءِ النُّفوس الكرائم

مواقفُ أبرارٍ قَضَوْا مِنْ جهادِهم ... حُقوقًا عليهم كالفُروضِ اللَّوازمِ

أُصِيبُوا وكَانُوا فى العبادة أُسوةً ... شبابًا وشيبًا بالعواشِى الغواشم

سقَى الله أشلاءً بسفحِ أنيشةٍ ... سوافحَ تُزجِيها ثِقالُ الغمائم

وصلَّى عليْهَا انفُسًا طابَ ذِكْرُها ... فطيَّب انفاسَ الرِّياحِ النَّواسِمِ

لقَدْ صَبَرُوا فيها كِرامًا وصَابَرُوا ... فلا غَرْوَ أن فَازُوا بصفْوِ المَكارِمِ

ويَا أيُّها المختومُ بالفوزِ سعْيُهُ ... ألا إنَّما الأعمالُ حسنُ الخواتم

* * *

هكذا وجدنا فى الوقت الذى تغيبُ شمس الإسلام عن الأندلس رجالاً صدقوا ما عاهدُوا الله عليه ، فمنهم مَن قضَىَ نحبَه ومنهم مَن ينتظر ، حدث هذا فى الوقت الذى شدَّ الموحدون رحالهم إلى البَرِّ الأفريقى بعد أن دالت دولتهم عن

(١) المرجع السابق .

الأندلس منذ عـام ٦٣٣هـ . وتركوا خلفهم رعية بلا راع ، ورجالاً بلا سـلاح اللهمَّ إلاَّ سلاح الإيمان ، ولعل المآسى التى وقعت فى عهد الموحِّدين غطَّت على ما حقَّقوه من انتصارات ، ولم يبرز منهم فى ميدان الجهاد ضد العدو الصليبى سوى أميرين بارزين هما : أبو يعقوب المنصور وخَلَفُه أبو يوسف يعقوب المنصور .

على أن معركة أنيشة التى خاضها سكان بلنسية بقيادة أميرهم أبى جميل زيَّـان، ضد الأرجونيين بقيادة ملكهم جاقمة الأرجونى ، كانت بين قوتين غير متكافئتين . ولذا أبدت الخطَّة واتخاذ الحيطة والأُهبة واستصراخ الأخوة فى الأندلس والمغرب .

وبعد تحطيم قوى المسلمين فى معركة أنيشة تجهز ملك أرغون[1] جايمش (جاقمة) لإسقاط بلنسية ، فبدأ حصارها فى رمضان سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٧م) وكان معه كثير من الجند الوافدين : من فرسان بقيادة مُطران مدينة أربونة وآخرون من جنوة . فشددوا عليها الحصار وخرَّبوها بالآلات الحربية ، وقد صمم السكان على الدفاع حتى الرمق الأخير . وأرسل أميرها أبو جميل زيان سفراءه إلى بعض المدن الأندلسيَّة طالبًا النجدة ، فوجه الفقيه أبا عبد الله محمد بن عبد الله ابن محمد بن خلف الأنصارى إلى مدينة مرسيَّة يستمد العون من أهلها . وأرسل كاتبه ووزيره العلامة الأديب المؤرخ ابن الأبار مع وفد من بلنسية إلى إخوانه فى العدوة المغربية يستجدهم ، وقد توجه الوفد إلى الحفصيين فى تونس ، يستنجد أميرها أبا زكريا يحيى بن أبى حفص ، ويستصرخه لنجدةٍ سريعةٍ لهذه المدينة المحاصرة ، وقد ألقى ابن الأبار قصيدته السينية أمام هذا الأمير فى جمع كبير من الناس والتى مطلعها :

أدركْ بخيلِك خيلِ اللهِ أنْدَلُسا   إنَّ السبيلَ إلىَ مَنْجاتِها دَرَسا

وسنورد إن شاء الله جزءًا من هذه القصيدة فى خاتمة هذا الكتاب ضمن قصائد الرثاء لهذا الفردوس المفقود .

---

(١) المرجع السابق .

واستمر حصار الطاغية لبلنسية من الخامس من رمضان لعام ٦٣٥هـ حتى يوم الثلاثاء سابع عشر من صفر لسنة ٦٣٦هـ ، وذلك بعد أن استولى الجوع وضعفت قُوى المحاصَرِين وأكلت الجلود والزقوق ، وبلغ الكتاب أجله ، فكانت المراوضة على إسلام البلد والخروج منه فى الرابع عشر من صفر لعام ٦٣٦هـ ، بعد المنازلة والصمود . حيث خرج أبو جميل والشهود ، وعقد الصلح بعدها على دانية وقلبيرة ، وكان الرزء فى أخذ بلنسية عظيمًا والخطب فيها أليمًا ، وهكذا استسلم هذا الحصن الحصين من قلاع الإسلام فى الأندلس للطاغية الأرجونى بعد قتال عنيف بلغت مدته أربع سنوات بين قوتين غير متكافئتين ، استسلمت بلنسية قبل أن يصلها المدد من أى جهة توجهت إليها الوفود .

هذا ما كان من أمر بلنسية وما آلت إليه من مصير مؤلم ومفجع ، وما حدث قبلها للمسلمين من وقعة أنيشة فى عام ٦٣٤هـ التى قال عنها[1] ابن الخطيب فى أعمال الأعلام فى معرض الحديث عن أمير بلنسية زيَّان بن مدافع « كانت عليه الوقيعة بأنيشة من ظاهر بلنسية ، وهلك فيها من المسلمين ما لا يحصيه إلاَّ الله ، وكلَب عليهم عدوُّ الشرق ، ويئسوا من نَصرة أهل الأندلس وأهل المغرب » . فماذا كان من أمير تونس الذى استصرخه أهل بلنسية يقول ابن الخطيب : « فتعلَّقُوا ببيعة الأمير أبى زكريا بتونس واستصرخوه .. ولم يصل جوابه إلاَّ والطاغية قد نازل بلنسية ، وذلك يوم الخميس خامس رمضان من سنة ٦٣٥هـ » . فقد بادر الأمير الحفصى (أمير تونس) بتجهيز أسطول شحنه بالمؤونة والسلاح من ثمانى عشرة سفينة كبيرة وصغيرة ، اتجهت إلى بلنسية ، فى صحبه ابن الأبَّار وبقيَّة الوفد الأندلسى ، لكن هذه السفن فشلت فى إيصال الإمدادات إلى المدينة المنكوبة لشدة الحصار حولها ، واضطرت لإفراغ المؤن فى ثغردانية جنوبىّ بلنسية ، وهكذا ضاق الحال بأهل المدينة الباسلة ودهمهم الجوع لانعدام المورد وفناء الأقوات ، فى حين كان المعسكر الأرغونى فى سَعة من أمره « وواصل عدوُّ الله جاقمة ملك أرغون منازلة بلنسية ورميها بالمجانيق وشدَّة القتال ، وما زال المسلمون تنقص أعدادهم ،

(١) التاريخ الأندلسى ، د. عبد الرحمن الحجى ، ص ٤٧٦ ، ٤٧٧ .

والنصارى تتوارد أمدادهم إلى أن استسلمت المدينة فى يوم الثلاثاء سابع عشر من صفر سنة ٦٣٦هـ (سبتمبر ١٢٣٨م) .

وعند احتلال الطاغية الأرغونى ومن معه[١] بلنسية - بعد استسلامها - رحل عنها عشرات الآلاف من أهلها ، بلغت خمسين ألفًا وتحوَّلت - للفور مساجدها إلى كنائس ، ونال المسلمين كل أنواع الاضطهاد ، وتقلبوا فى فنون الأذى ، وتعدَّى الأحياء إلى الأموات فى قبورهم فنبشت . طمسًا لأى أثر لأعلام المسلمين فى المدينة، وهى تصرفات وأساليب[٢] مُغرية فى الإنحراف ، عريقة فى الهبوط بعيدة عن أيَّة رفعة ، مجردة من أدنى فضيلة . وتلا سقوط بلنسية سقوط عدد من المدن القريبة مثل جزيرة شُقَر أواخر سنة ٦٣٩هـ ودانية فى ذى الحجة سنة ٦٤١هـ - وجيَّان سنة ٦٤٣هـ ، وشاطبة فى رمضان سنة ٦٤٥هـ .

سقوط أشبيلية ومرسية فى يد الأسبان :

ذكرنا أنه قد تلا فجيعة المسلمين فجائع أشد هولاً وأبعد أثرًا ، فتلا سقوطها سقوط جزيرة شقر ودانية وجيان وشاطبة ، وفى معرض وصف ابن الآبار لاستيلاء الطاغية البرشلونى على دانية يقول « وفى وقتنا[٣] هذا وصل بعض الشاطبيين يخبر أنه أجلاهم عنها مع أصل جهاتها - وهم ألوف من المسلمين - فتفرقوا فى البلاد ».

أما أشبيلية فسقطت بيد ملك قشتالة فرَّاندة (هرَّانده بن الهُنشة) فرناندو الثالث فى عام ٦٤٦هـ (١٢٤٨م) وذلك بعد أعمال حربية لعدة سنوات ، وحصار طويل استمر حوالى سنة ونصف سنة ابتداء من شهر ربيع الأول سنة ٦٤٥هـ حتى أول شعبان أو أواخر سنة ٦٤٦هـ . حيث اضطرت المدينة بعد ذلك للتسليم بشروط منها رحيل أهلها آمنين ، ويذكر صاحب كتاب التاريخ الأندلسى نقلاً عن المؤرخ يوسف أشباخ « تجرَّع أهل أشبيلية كثيرًا من الأذى ونالهم الأسى ، أشد منه ، وأدمى رحيلهم عنها وقلوبهم حزنى ، يجللهم النكد ويفريهم فراق البلد ، غادرها من أهلها

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

ما يقدّر بأربع مائة ألف ، قصدوا مدن الأندلس أو العُدوة الأخرى . ذلك فى رمضان من نفس العام (٦٤٦هـ) - ويصف ابن عِذارَى ذلك وهو يشرح أحداث عام ٦٤٦هـ- حيث « جرَّعوا أهلها كأس الحمام ، من كثرة المجاعة وعدم الطعام ، فكل منهم فى بحر المنايا غاص وعام ، مما حل بهم من الأوجال والآلام .. فسلموا لهم المدينة وخرج منها الخاص من أهلها والعام ، وكان ذلك فى يوم سبع وعشرين من شهر رمضان المعظم من هذا العام » .

وبالنسبة لسقوط مرسية[1] يذكر ابن عِذارى - أيضًا - فى البيان المُغرب أنه بعد استسلام مدينة مرسية صلحًا لجايمش ملك أرغون سنة ٦٦٤هـ . دخلها بجيشه ، لم يرعوا فى المسلمين عهدًا ولا أدنى حد للإنسانية ، حيث تركها أهلها « وخرجوا منها بأمان إلى الرشاقة . فسكنوا بها مدة من عشر أعوام إلى أن كان من أمرهم ما كان ، حين أخرجوهم فى سنة ثلاث وسبعين ، وغدروهم فى الطريق أجمعين ، وذلك بموضع يعرف بوركان ، فسبوا النساء والأطفال ، وقتلوا جميع الرجال ، وقد كانوا أخرجوهم بالأمان دون سلاح ، فتحكموا فيهم كيف شاءوا بالسيوف والرماح ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

هكذا سقط بيد ملوك أسبانيا الشمالية ومن ساعدهم من الصليبيين عدد من قواعد الإسلام فى الأندلس ، فى هذه المدة التى عاصرت نهاية الدولة الموحدية ، ومع هذا فقد استطاع المسلمون فى الأندلس المحافظة على بعض المناطق فى جنوبى الجزيرة حيث قامت دولة غرناطة التى سنتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله ، ويمكننا تسميتها الأندلس الصغرى ممثلة فى غرناطة التى قامت بعد انهيار الأندلس الكبرى .

نهاية دولة الموحدين بالأندلس وأفريقية :

لم تكن موقعة العِقاب سببًا فى تحطيم قوى الخليفة[2] محمد الناصر بالأندلس فقط ، ولكنها أفضت فوق ذلك إلى تحطيم سلطان الموحدين بالمغرب - ويقول المؤرخ

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

يوسف أشباخ « وإذا كان النصارى لم يوفقوا إلى استغلال ظفرهم فى موقعة العقاب - بما كان يملى الذكاء وضعف العدو - فإن الخلافة الموحدية التى جُرِّدت من كل قواها لم تنهض من هزيمتها قط ، ولم ينقطع الفونسو النبيل طوال حياته عن الخروج إلى محاربة المسلمين ، ولكنه كان مفرِّق القُوَى بسبب خصومته الجديدة مع ليون » .

وبسقوط الموحدين فى الأندلس والمغرب قامت مقامهم أسر لا تضارعهم فى قوتها ومنعتها ، فبعد أن غادر محمد الناصر ميدان المعركة الذى غص بالقتلى من خيرة جنده أسرع إلى أشبيلية وهناك سحق فى بادرة من غضبه جميع أشياخ الموحدين المحليين ، وكذلك لم يسلم من سخطه زعماء الأندلس الذين كانوا فى مقدمة الفارين من الموقعة .

وفى هذه الآونة حيث أصبحت[1] دولة الموحِّدين من الضعف بمكان لا تستطيع مجابهة الثائرين ، استولى محمد بن هود من الموحدين على مرسية (٦٢٥هـ) ، ونادى بنفسه أميرًا باسم المتوكل على الله ، وحاول أن يكسب ود الأندلسيين إلى جانبه بسرعة ، وأن يؤلبهم على قتال الموحدين . فأذاع أن يسعى إلى تحريرهم من نير المغاربة المرهق ، وأنه لن يفرض عليهم سوى الضرائب الشرعية ، وأنه يعمل على إقامة شريعة الإسلام الحقة ، وأعلن المتوكل أن الموحِّدين كفار ، وأمر أن يحتفل بتطهير المساجد التى دنَّسها فقهاؤهم ، وارتدى السواد بهذه المناسبة وأمر الزعماء بارتدائه - لا باعتباره شعار الحداد كما يقول رودريك الطليطلى - ولكن لكى يميز حزبه عن غيره ، وذلك لأن المتوكل رأى أن يعترف بسيادة بنى العباس خلفاء بغداد ، وشعارهم السواد ، ولكى يستعين بذلك على قتال الموحدين .

ولم يمضِ سوى وقت قليل حتى سارعت - بعد مرسية - معظم بقاع الأندلس إلى طاعة ابن هود ومبايعته ، ومنها مدن جيَّان وقرطبة (قبل سقوطها فى يد النصارى) وماردة وبطليوس ، وزاد فى قوته وسلطانه ما أعلنه من أنه عدو لدود

(١) المرجع السابق .

للنصارى سافكى دماء المسلمين ، وأن الخليفة العباسى قد أقرَّ إمارته على الأندلس ، واضطر المتوكل فى بدء إمارته أن يخوض مع الفونسو التاسع ملك ليون معارك شديدة ، واستطاع الفونسو أن يفتتح عدة حصون على الحدود فى مقاطعة استرامادورة ، وأن يهزم جيش المتوكل الضخم فى معركة هائلة انتهت باستيلاء الليونيين على ماردة ، وهى مدينة عظيمة على ضفة وادى يانة ، وعلى بطليوس وهى إحدى الحصون المنيعة وذلك فى سنة ٦٢٧هـ (١٢٣٠م) .

ولم يسّعَ المتوكل لاسترداد هذه الحصون[١] أو بعضها ، وإنَّما لم يدَّخر وُسعًا فى السعى لإسقاط المأمون الموحِّدى (الخليفة التاسع) أو معاونة منازعه على العرش يحيى بن الناصر ، وكان قد أرسل من جديد جندًا من العُدوة لمحاربة المأمون فى الأندلس - وبمساعدة الشعب الأندلسى استطاع أن يهزم زعيم الموحدين ، ولم يجد الموحِّدون سبيلاً للاحتفاظ بما تبقى لديهم من مدن سوى عون النصارى الأسبان - كما يقول المؤرخ يوسف أشباخ - مثلما حاول الأمويون فى الأندلس ثم المرابطون فى آخر أيامهم ، لكى يحتفظوا بسلطانهم المضطرب بمعاونة المرتزقة ، فكذلك كان شأن الموحدين ، ولقد اتخذ أمير المؤمنين المأمون الموحدى اثنى عشر ألفًا من المرتزقة الأسبان ، وأرسلهم إلى المغرب لحماية العاصمة مراكش ، ونزل لقاء ذلك عن عشرة حصون لملك قشتالة ودفع له مبالغ طائلة .

ولكن الأندلسيين لم تكن ترضيهم محالفة النصارى ، بل إن هذه المحالفة التى وثَّقها المأمون دفعتهم إلى معاونة خصومه ، وفى ذلك الوقت العصيب فُقدت مقاطعة بلنسية الخصبة الغنية بمواردها ، ذلك أن واليها أبا عبد الله محمد أخا المأمون لجأ لحماية سلطانه من المتوكل والأندلسيين إلى طلب العون من خايمى الأول ملك أراجون ، وتعهد بأن يؤدى له الجزية .

وبعد وفاة المأمون حاول الحزب الذى رفع ابن أخيه زكريا إلى العرش أن يحصل لمرشحه على المبايعة العامة ، ولكن الحزب المعارض كان أقوى فعمل بتأييد

(١) المرجع السابق ، ص ٤١٠ ، ٤١١ .

الحرس النصراني على تولية ولد المأمون أبي محمد عبد الواحد ، وهو صبي في الرابعة عشرة من عمره وتلقب بالرشيد واعترف بولايته معظم أقطار المغرب وقِسمٌ من الأندلس يشمل أشبيلية والجزيرة ، أما يحيى بن الناصر فقد استمر أربعة أعوام أخرى يخوض معارك دموية ضد الرشيد ، كان يُهزم فيها دائمًا ، ثم توفي على مقربة من فاس في رمضان ٦٣٣هـ (١٢٣٦م) ولكن لم تنقطع بوفاته دسائس الأحزاب المختلفة ، وهي دسائس جَدَّ عبدُ الواحد في قمعها ، وهكذا استمر يعيش محوطًا بالقلاقل والفتن ، حتى وقع حادث سيىء أودى بحياته فجأة ، ذلك أن جواده جمح ذات يوم وركض به إلى بركة في حديقة فغرق وتُوفي في التاسع من جمادى الأولى سنة ٦٤٠هـ (ديسمبر سنة ١٢٤٢م) - وذلك بعد حكم دام عشرة أعوام ، وعلى أثر وفاة عبد الواحد نادى الموحِّدون بأخيه أبي الحسن الملقَّب بالسعيد سلطانًا عليهم ، بيد أنه هزم في معركة بينه وبين يحيى بن زيَّان أمير تلمسان وقتل أثناءها ، ولم يمض على حكمه ستة أعوام ، وكان مقتله في ٢٩ من صفر سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨م) ، وفي أثناء حكم أبي الحسن السعيد حاصر النصارى مدينة أشبيلية ، وهي آخر قاعدة كبيرة بقيت في يد الموحِّدين بالأندلس ، ولم يستطع أن يمدها بالمعونة الكافية فسقطت في يد فرناند الثالث ملك قشتالة قبل وفاة السعيد بأيام معدودات .

وهكذا انطفأت جذوة دولة الموحدين التي لم يستمر كفاحها في الأندلس أكثر من قرن من الزمان (٥٤١ - ٦٤٠هـ) وقد كانت نهايتها كنهاية المرابطين من قبل ، ولم يستطع حلفاؤها النصارى الذين استعان بهم خليفتهم عبد الواحد ومن تلاه أن يبقوا على هذه الدولة ، كما لم يستطيعوا من قبل أن يبقوا على دولة المرابطين حين اكتسحهم الموحدون - وإنما كانت نهاية دولة الموحِّدين هي العلامة الكبرى لغروب شمس الإسلام عن الأندلس ، وإن قيام بعض الزعامات المحلية والنزعات الاستقلالية لم تكن سوى تأجيل مؤقت لاجتثاث المسلمين عن تلك البلاد .

الدويلات الإسلامية التى قامت على أنقاض دولة الموحدين :

منذ أن دب الوهن فى دولة الموحدين قامت زعامات محلية[١] بالاستقلال عنها فى كل من المغرب الأقصى والأوسط والأدنى وفى بلاد الأندلس . ففى المغرب الأقصى ظهرت دولة بنى مرين إحدى قبائل زناتة ، وكان لهم دور بطولى فى معركة الأرك مع يعقوب المنصور ، وكان زعيمهم فى بداية تأسيس دولتهم الأمير عبد الحق ابن محيو[٢] المتوفى سنة ٦١٤هـ . واستمرت هذه الدولة حوالى قرنين ونصف قرن. وكان لها مجهود واضح فى معاونة مملكة غرناطة بالأندلس ضد عدوان أسبانيا الشمالية . اتخذوا مدينة فاس عاصمة لهم ثم تحولوا إلى مدينة مراكش . حين استيلائهم عليها وإنهاء حكم الموحدين (بالمغرب الأقصى) فى عام ٦٦٨هـ (١٢٦١م) .

وفى المغرب الأوسط (الجزائر) استقل بنو زيان من بنى عبد الواد عن الدولة الموحدية ، واتخذوا تلمسان عاصمة لهم سنة ٦٣٣هـ وكان زعيمهم آنئذ يغمُراسن ابن زيَّان بن ثابت ، واستمرت دولتهم حوالى ثلاثة قرون .

كما استقل بنو حفص فى المغرب الأدنى (تونس) فأقاموا دولتهم هناك بزعامة عبُّوا (عبد الله بن عبد الواحد بن أبى حفص) حوالى سنة ٦٣٣هـ واستمرت دولتهم ما يزيد عن القرن .

أما فى الأندلس فإنَّ أول شخصية[٣] أندلسية ظهرت فى الميدان واستقلت عن الخلافة الموحدية فهى شخصية أبى عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجُذامى الذى لقب بأمير المسلمين سيف الدولة المتوكل على الله ، كان يسكن مدينة مرسية ومن الأجناد فيها ، حيث بدأ نشاطه سنة ٦٢٥هـ ، ودخلت تحت طاعته عدة مدن أندلسية هى مرسية وقرطبة وأشبيلية وغرناطة ومارجة والمريَّة وغيرها ، وقال عنه

---

(١) التاريخ الأندلسى ، ص ٤٦٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٦٨ ، ٥١١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥١٣ ، ٥١٤ .

صاحب التاريخ الأندلسى نقلاً عن آخرين : إنه كان قليل المبالاة تغلب على تحركه الخفَّة والاستعجال ، لذلك خسر بعض المعارك حيث نازل فرَّاندة الثالث ملك قشتالة ووالده ألفونش التاسع ملك ليون ، وعمل على إنهاء سلطان الموحدين فى الأندلس حين عجزوا عن حمايتها ضد الأخطار وهجمات أسبانيا النصرانية ، وفى رأى بعض المؤرخين أن ابن هود لم يكن فى مستوى مقدرة قيادية تعينه فى مثل تلك الظروف على الاحتفاظ بالأندلس ، وابن سعيد الأندلسى المتوفى سنة ٦٨٥هـ يقول عنه : يعتبر تولّى ابن هود أمر الأندلس ضاراً بها حيث وجد فيها قلوبًا منحرفة عن دولة بَرِّ العُدوة ، مهيَّأة للاستبداد فملكها بأيسر محاولة مع الجهل المفرط وضعف الرأى . وعلى النقيض من هذا الرأى كان رأى ابن الخطيب فيه فيرى أنه كان شجاعًا كريمًا حيِّيًا وفيًا متوكلاً عليه ، سليم الصدر قليل المبالاة بالأمور « ولذلك كان محدوداً لم يُنصر به جيش ولا وُفِّق له رأى لغلَبةِ الخفَّة عليه واستعجاله الحركات ونشاطه إلى لقاء الأعداء من غير كمال استعداد » ولا أدرى هل مدحه ابن الخطيب أم قدحه .

وكان ابن هود للأوصاف التى أوردها عنه ابن الخطيب[1] غير موفق فى استرداد ما استولى عليه ملوك أسبانيا النصرانية من البلاد الإسلامية التى سقطت فى عهده ، منها قرطبة العاصمة التالدة حيث حاصرها ملك قشتالة فرأندة (فرناندو الثالث) وتأهب أهلها للدفاع والاستماتة وطلبوا الغوث من ابن هود إلا أنه نكل عن نصرتهم ، وترك المدينة لمصيرها المؤلم ، فى وقت كانت الأندلس تتهاوى أمام هجوم عدد من ملوك أسبانيا النصرانية ، على حين كانت هذه الملوك تزداد قوة على حساب الأندلس وتتضافر للقضاء على المسلمين فيها . وقد توفى ابن هود فى مدينة المرية أوائل عام ٦٣٥هـ وهو يعد نفسه لإنجاد بلنسية وأميرها أبى جميل زيان .

وبوفاة ابن هود انتهت دولته التى اتخذ مرسية عاصمة لها ، وبذلك أفسح المكان لمنافسه فى الاستقلال والولاية ، وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥١٤ ، ٥١٥ .

المعروف بابن الأحمر ، الذي استطاع أن يكوّن قوة أمكنها الاحتفاظ ببعض مناطق جنوبى الأندلس ، حيث أسس مملكة غرناطة أو الأندلس الصغرى (الصغيرة) وورثه بعد وفاته أبناؤه الذين تعاقبوا على الحكم حتى سقوط هذه المملكة الصغيرة فى يد الملكين الكاثوليكيين فرأندة الخامس ملك أرجون وإيزابيلا ملكة قشتالة ، بعد أن حاصرا هذه المدينة حصارًا طويلاً خُرِّبت خلاله المزارع والمحاصيل ، وتضور الناس جوعًا وقطعوا كل أمل ، جرى ذلك فى سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) . واستسلمت المدينة لهذين الملكين على شروط اتفق عليها ثم نُقِضت شيئًا فشيئًا على مراحل .

دولة بنى الأحمر فى غرناطة ونهايتها :

لما ضعفت دولة الموحدين ودخلها الوهن[1] ، قام ابن الأحمر وقضى على سلطانهم بالأندلس فى عام ٦٢٩هـ ، وأسس لنفسه مملكة صغيرة عاصمتها غرناطة، واستمر الملك فى بيته أمدًا طويلاً (٦٢٩ - ٨٩٧هـ) أى أنها عمرت - رغم الصعوبات المتعددة فى الداخل والخارج - ما يزيد على قرنين ونصف قرن ، وتوالى على حكمها خلال ذلك ما يربو على عشرين حاكمًا (سلطانًا) وظهرت بغرناطة شخصيات سياسية لها كفاءات عالية وقدرات ممتازة .

ينتسب بنو الأحمر إلى سعد بن عبادة[2] الأنصارى ، وأول ملوكهم - كما سبق القول - هو أبو عبد الله محمد بن يوسف الخزرجى الأنصارى ، وقد ملك غرناطة فى رمضان سنة ٦٣٥هـ إلى أن توفى فى عام ٦٧١هـ ، وخلفه ابنه أبو عبد الله الثانى (٦٧١ - ٧٠١هـ) وهكذا تعاقب الخلفاء وكنيتهم فى أغلب الأحوال أبو عبد الله ، وقد حكم من ملوك هذه الدولة كثير ، وكانوا يلقبون أنفسهم أمراء المسلمين - ولقد استردوا معظم بلاد الأندلس من الأسبانيين - ومنعوا الأتاوة التى كان المسلمون يدفعونها لملك أسبانيا ، واستكثروا من الجيوش والأساطيل ، وخلال مدة القرنين والنصف التى حكموا فيها الأندلس الصغرى انتعش الأدب ، وكثرت العلوم والفنون

---

(١) قصة الأدب فى الأندلس ص ٧٢ ، التاريخ الأندلسى ، ص ٥١٥ ، ٥١٦ .

(٢) قصة الأدب فى الأندلس من ص ٧٢ إلى ص ٧٦ .

ومن سلاطينهم الذين ازدهر فى عهدهم الأدب وكثرت العلوم والفنون أبو الحجاج يوسف وابنه محمد فى الفترة من ٧٣٤هـ إلى ٧٦٠هـ وقد تولى لكليهما الوزارة الأديب الكبير والشاعر الشهير لسان الدين بن الخطيب .

ثم ضعف السلاطين لكثرة الخلافات والثورات والخصومات ، ورضوا بأن يقدّموا الجزية لفرناند ملك أرغون وزوجته ملكة قشتالة ، ثم أخذ الأسبانيون يحيطون بغرناطة ويحاصرونها من كل جهة ، حتى أتم فرناند محاصرتها فى عام ٨٩٦هـ - فاضطر آخر ملوك غرناطة أبو عبد الله عقد معاهدة صلح بينه وبين الأسبانيين وتسليم غرناطة لفرناندو إيزابيلا وبذلك سقطت المدينة فى أيدى الأسبانيين ، وانتهت دولة العرب والإسلام فى أسبانيا (فى سنة ٨٩٧هـ) .

ولم تسقط غرناطة إلاَّ بعد أن حاصر الأسبان والبرتغاليون سواحل الأندلس الجنوبية ، واستولوا عليها قبل ذلك بمدة كبيرة ، فاستولوا فى بَرِّ العدوة على سبتة عام ٨١٨هـ وفى جنوبى الأندلس على جبل طارق عام ٨٦٩هـ وفى ذات العام استولوا على طنجة - واستولوا كذلك على جميع المدن الأندلسية ما عدا غرناطة وأقليمها ، وكان يحتوى على نحو مائة مدينة ومائة قرية ونحو مائتى حصن وقلعة .

وكان سقوط غرناطة فى أيدى الصليبيين الأسبان[١] - بعد أربعين عامًا من سقوط القسطنطينية فى يد المسلمين الأتراك فى عام ٨٥٧هـ . وكان سقوط غرناطة بعد حصار دام سبعة أشهر أنهك المحاصَرين حتى كاد الناس يأكل بعضهم بعضًا - كما كان سقوطها نتيجة لضعف بنى الأحمر ، وضعف سلطانهم السياسى ، وكان حكام المغرب عاجزين عن نجدة المسلمين فى الأندلس ، إذ كانوا فى ضعف وتخاذل وانقسام شديد ، وكان ملك المغرب[٢] من بنى مرين هو السلطان عبد الحق بن سعيد

---

(١) قصة الأدب فى الأندلس ، من ص ٧٢ إلى ص ٧٦ .

(٢) هذا ما ذكره الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة فى كتابه قصة الأدب فى الأندلس . والحقيقة أن بنى مرين قد دالت دولتهم فى ذلك؛ الوقت وآل الأمر من بعدهم إلى بنى وطّاس منذ عام ٨٦٩هـ ، المؤلف .

المتوفى عام ٩٣٠هـ قد وفد عليه في فاس سلطان غرناطة بعد تسليمه المدينة لفرديناند وزوجته إيزابيلا ، وقد أكرم سلطان المغرب وفادته هو وأسرته .

وقد اشتملت شروط الصلح التى وضعها أبو عبد الله بن على آخر ملوك بنى الأحمر على سبعة وستين شرطًا ، تنصُّ كلها على تأمين المسلمين فى الأندلس على أموالهم وأرواحهم وأعراضهم وحرياتهم الدينية ، وعدم الحيلولة بينهم وبين الهجرة متى شاء أحدهم ذلك . ولم يفِ الأسبان المغتصبون بشىء من هذه الشروط . وكان تسليم أبى عبد الله بن الأحمر لغرناطة فى الثانى من ربيع الأول عام ٨٩٧هـ ، وهاجر إلى المغرب واستوطن مدينة فاس وعاش بها حتى مات فى عام ٩٤٠هـ .

وقد عامل الأسبانُ المسلمين بقسوة لا مثيل لها ، ولما ثار جماعة من البياسيين وهم من عرب الأندلس - فى مدينة غرناطة أخمدت ثورتهم بقسوة وضرارة ، وقامت محاكم التفتيش للبحث عن المسلمين والتنكيل بهم ، وفى عام ٩٧٠هـ (١٥٦٢م) ثار أحد سلالة بنى سراج واسمه فرج بن فرج ولجأ إلى جبال البشرَّات وتبعه كثيرون من غرناطة ، ونادوا بأحد حفدَة خلفاء قرطبة ملكًا عليهم باسم محمد بن أمية ، واستمرت هذه الثورة عامين ، وقد خلع المسلمون فى أثنائها ابن أمية وولوا أمرهم عبد الله بن أبيه ، وهو أحد الزعماء المشهورين بالبطولة ، وما زالوا يجاهدون حتى غُلبُوا على أمرهم ، وعلَّق الأسبان رأس عبد الله على أحد أبواب قرطبة ثلاثين عامًا- وأخذوا يطردون العرب المسلمين من بلادهم جملة - حتى وصل عدد الذين طُردوا من الأندلس ثلاثة ملايين . وكانت نكبة الأندلس فى عهد بايَزيد الثانى سلطان تركيا ، وقايتبَاى سلطان مصر - وقد اتفق الملكان على أن يغزُوا أسبانيا بأسطول كبير يسيِّره ملك تركيا ، وجيش برِّى يسيِّره قايتباى من مصر ، ولكن بايزيد شُغِل بثورة سياسية[1] فى مملكته ، كما أرسل الأسبان رسولاً إلى قايتباى أدلى بمعلومات كاذبة عن مصرع الأندلس ، ولم تُجْدِ الرسائل التى أرسلها بايزيد الثانى وقايتباى إلى البابا وملكى أسبانيا والبرتغال شيئًا ، فى تخفيف معاملة الأسبان

(١) المصدر السابق ، من ص ٧٢ إلى ٧٦ .

للمسلمين المغلوبين فى بلادهم - وهكذا أراد الله ولا رادَّ لمشيئته ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران - الآية ٢٦) .

وأخيرًا وليس آخرًا نظرة تأمل إلى القصة التى ساقها لنا الأستاذ أحمد حسن الزيات على صفحات مجلة العربى بعنوان « آخر فارس فى آخر مدينة » وهى قصة نادرة لم توردها كتب الأدب العربى أو التاريخ الإسلامى ، وإنما نقلها عن مصدر غربى ، شهد فيه ببطولة نادرة لأحد فتيان غرناطة العربىِّ الأصل المسلم دينًا وغيّرةً ، واسمه موسى بن أبى غسان . ذلك حينما سلَّم أبو عبد الله مدينة غرناطة لأعدائه ثم خرج منها هو وأفراد أسرته ، وهناك على ربوة عالية راح ينظر إلى قصور الحمراء وما يكتنفها من حدائق غناء ، فعزَّ عليه أن يترك هذا المُلك لأعدائه ويخرج ذليلاً مهينًا ثم ذرفت عيناه دمعة حزن وأسى ، فلَّما شاهدته أمُّه عائشة على هذه الحال قالت له :

إبك مثل النساء مُلكًا مضاعًا لم تحافِظْ عليه مِثْلَ الرِّجالِ

ثم أورد لنا الكاتب قصة البطل موسى بن أبى غسان الذى رفض أن تسلَّم المدينة لأعداء البلاد ، ودعا إلى المقاومة حتى الرمق الأخير ، ولما لم يجد ملبِّيًا لدعوته تقلَّد سيفه وامتطى جواده وراح يقاتل الأعداء بضراوة وشجاعة نادرة ، وحاولوا أن يأسروه حيًا فلم يستطيعوا ولما أثخنته الجراح ، وخارت قوى فرسه وخزه نحو نهر الوادى الكبير فغاص به فى ذلك النهر ، ولم يظفر به الأعداء حيًا أو ميتًا .

الفصل الخامس

الخاتمة ورثاء الأندلس

الخـــاتمـة

ماذا عن دولة بنى الأحمر

فى عجالة وفى اختصار شديدين تكلمنا فى هذا البحث عن دولة غـرناطة أو الأندلس الصغرى ، وهى التى ورثت جزءًا من ميراث الموحِّدين فى الأندلس ، منذ قـيام هذه المملكة فى عـام ٦٣٥هـ (١٢٣٨م) حـتى سـقـوطهـا فى يد الملكين الكاثوليكيين ملك أراغون فرديناند الخامس وزوجته إيزابيلا ملكة قشتالة . وذلك فى عام ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) - وقبل أن ننهى هذا البحث يجدر بنا أن نتكلم قليلاً عن بعض كفاح هذه الدولة فى سبيل الحفاظ على الإسلام والمسلمين فى شبة جزيرة أيبريا ، وذلك لقرنين أو أكثر من الزمان بعد غياب شمس الموحِّدين . كما يجدر بنا أيضًا أن نتحدث عن كفاح بنى مرين (ورثة الموحِّدين فى المغرب الأقصى) فى الوقوف بجانب هذه الدويلة الناشئة والصامدة أمام مطامع ملوك أسبانيا النصرانية وحلفائهم الأوربيين .

لقد قامت هذه الدولة فى الوقت الذى رحلت عن الأندلس جحافلُ المسلمين ، ممثَّلةً فى جيوش الموحِّدين المنهزمة أمام أسبانيا النصرانية فى ميادين كثيرة ، وأمام الجيوش الثائرة من مسلمى الأندلس فى ميادين أخرى ، واستطاعت هذه الدولة الصغيرة أن تحافظ - بقدر الإمكان - على السِّمات الإسلامية فى المناطق الواقعة فى حوزتها ، وهى تلك البقعة الأندلسية الصغيرة التى آلت إليها ، أملاً فى الاستمرار[1] بالأندلس فى الوجود ، لكنَّ العوامل الداخلية ثُمَّ الخارجية ساقتها إلى تلك النهاية المروِّعة الكئيبة فاندفعت إلى نهايتها ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إنَّ سياسة التعصب والحقد المَقيت - التى عاملت بها السلطات الأسبانية النصرانية الغالبة بقايا المجموعات الأندلسية المسلمة المغلوبة - قضت على وجود

---

(١) التاريخ الأندلسى ، ص ٥١٦ .

المسلمين ، بل حُرِم بعضُهم حقَّ البقاء ، فكانوا طُعمة للفناء ، لاقَوْا خلال ذلك أسوأ ما عومل به مغلوب ، لا سيما من له عند الغالب أيادٍ بيضاء سلفت .

وقد سلكت دول أسبانيا النصرانية[1] مع المسلمين المغلوبين سياسة عجيبة للتصير ومحْوِ الشخصيَّة الإسلامية ، حيث أطلقَت علَى من بَقِيَ من المسلمين فى مناطق نوذها (المدَجَّنِين) ، فكان سقوط أىِّ بقعة أو حصن فى قبضة أسبانيا النصرانية لا يعنى انتهاء الوجود السياسى فحسب بلْ هى حرب الإفناء فى العقيدة وفى الوجود البشرى ، هذا ما كان يُعطِى طابعًا مرعبًا لتصارُعِ أسبانيا النصرانية ضدَّ بقايا الأمة المسلمة الأندلسية فى مملكة غرناطة .

والتَّدجين (أو التطبيع بالمنطق العصرى) أُطلِق على هؤلاء المغلوبين الذين بَقُوا فى أسبانيا بعد زوال السلطة والحكم الإسلامى ، ولم يرحلوا فرارًا بدينهم وهُوِيَّتهم.

وهذه السياسة تعنى أن مَنْ بقِيَ من هؤلاء المسلمين فى تلك البلاد[2] يَحرُم عليهم مزاولة شعائرهم أو إظهار إسلامهم ، ويطلق عليهم المدجَّنون ، تمهيدًا لتصيرهم بعد إزالة كلِّ طابَعٍ إسلامى ، ابتداء من استسلام تلك المُدن الإسلاميّة صُلحًا ثم حدوث إهدار لشروط الصلح ، وذلك بإسقاط الكيان العقيدى للمسلمين وإبعادهم عن أىِّ سِمَةٍ من سمات الإسلام ، وقد يسلكون فى ذلك سبيل الإزهاق للناس والإجهاض لكلِّ ما تتمثل فيه عقيدتهم . وكانت المُدن الإسلامية التى يشدِّدون عليها النكير ويذيقونها الويل والثبور تَعرِض عليهم الاستسلام صلحًا ، فترفضه بعضُ عناصر جيش أسبانيا النصرانية ، لا سيَّما رجال الكنيسة طالبةً تسليم من فيها من المسلمين ، حتى قد ترفض السماح لهم بالخروج من المدينة بأنفسهم ، وسارت تلك السياسة على تحويل المساجد إلى كنائس فى المدن الأندلسية بعد سقوطها .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥٣٠ ، ٥٣١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٣٢ .

ظهر هذا بوضوح فى الصراع بين ملوك أسبانيا النصرانية وبين الإمارات الإسلامية فى الأندلس قُبيل قيام مملكة غرناطة ، وهى حركة كانت تحمل لواء الإفناء طابعًا عامًا لها وسُمِّيت بحرب الاسترداد الأسبانية وقد بدأت منذ أيام ملوك الطوائف .

وللحفاظ على البقيَّة الباقية من الإسلام[1] والمسلمين قامت دولة غرناطة أو الأندلس الصغرى وضمَّت مملكة غرناطة فى أيام بنى الأحمر الطرف الجنوبىَّ من شبه الجزيرة الأندلسية : جنوبى نهر الوادى الكبير إلى البحر المتوسط ، والجزيرة الخضراء وجبل طارق ، ومن لورقة فى ولاية مرسية شرقًا إلى البحر المتوسط ، ومن الشمال حتى قلعة يحصب فى ولاية جيَّان إلى شدونة فى ولاية قادس غربًا ، وشملت ثلاث ولايات كبيرة هى : ولاية غرناطة فى الوسط وفيها العاصمة غرناطة ، وولاية المَريَّة فى الشرق ، وولاية مالقة فى الجنوب والغرب . ولقد اعتُبِر من الغرائب استمرار مملكة غرناطة لمدة تزيد عن قرنين ونصف قرن (٦٣٥ - ٨٩٧هـ) رغم صغرها ، وقلة عدد سكانها ، محافظة على ما بقِىَ للمسلمين من سلطان سياسىّ ، ووجود حضارى معطاء .

جهاد بنى مَرين فى الأندلس :

ومن الأسباب القويَّة التى حافظت على استقلال[2] غرناطة وتحدِّيها لأعدائها الأسبان ومن شايعهم ، هو وقوف دولة بنى مرين إلى جانبها ، فقد كان بنو مرين أصحاب الدولة الفتيَّة فى عُدوة المغرب نِعْمَ المعاون - وإن أصاب هذه العلاقة أحيانًا بعضُ الضَّعف أو اعتراها التَّردد - بل اعتاد بنو مرين ترك فرق دائمة فى الأندلس للمرابطة على تلك الثُّغور الأندلسية متفرِّغةً للجهاد فيها .

ولقد أعاد بنو مرين تاريخ العبور من المغرب إلى الأندلس فى أيام الموحِّدين الأوائل بل إن سلاطينهم تسمَّوا وتكنَّوا بأسمائم وكُناهم ، فهذا أبو يوسف يعقوب المنصور المرينى ، يذكِّرنا بأبى يوسف يعقوب المنصور الموحِّدى (بطل معركة

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥١٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٢٠ .

الأَرَك) - ذلك أنّه كان مِثلَه اسمًا وحقيقةً حينما خاض يعقوب المنصور المرينى معركة استجه بجوار جيوش أبى عبد الله محمد الفقيه بن الأحمر .

معركة استجه (المعركة الدونونية) :

فقُبيل وفاة أبى عبد الله محمد الأول (٦٣٥ - ٦٧١هـ) عاد الفونش العاشر (ملك قشتالة) إلى مهاجمة الأراضى الأندلسية ، فوجَّه ابن الأحمر إلى أمير المسلمين السلطان المرينى أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق المنصور نداءً بطلب النَّجدة ، لكنَّ النجدة لم تصل إلاَّ بعد وفاة ابن الأحمر ، أىْ وصلت فى أيَّام ولده محمد الثانى المعروف بالفقيه . أرسل السلطان المرينى جيشًا قُوامه خمسة آلاف مقاتل ، عبر إلى جزيرة طريف فى ذى الحجة سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٥م) ثم لحق به السلطان فى صفر من السنة التالية ، حيث جرت لهم أحداث مع جيوش قشتالة ، كان منها معركة هائلة فى يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأول لعام ٦٧٤هـ (أيلول سنة ١٢٧٥) عند مدينة استجة جنوبىَّ غرب قرطبة ، وقد كان الجيش القشتالى كبيرًا جدًا ، قدَّره بعضُ المؤرِّخين بتسعين ألف مقاتل ، تحت إمرة القائد القشتالى الشهير الدون نونيو دى لارا صِهر ملك قشتالة العاشر ، ويعرف هذا القائد فى المصادر الأندلسية باسم دونونة وعرفت المعركة باسمه ، وكان استعداد الجيش القشتالى ضخمًا فى العَدَد والعُدَد) مُقبِلاً على الحرب بقوةٍ وأمل ، وبقيادةٍ مجرِّبةٍ وماهرة ، لم تعرف الهزيمة من قبل . لكنَّ المسلمين جاهدوا صابرين محتسبين ، وباشر أمير المسلمين المرينى القتال بنفسه وابنه يوسف فى المقدِّمة ، وكانت مقدمات المعركة صورة شبيهة بما جرى فى معركة الأرَك ، فإن الأمير المرينى أبا يوسف يعقوب « ترجَّل عن جواده ، فأسبغَ وُضوءه وصلَّى ركعتين ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والمسلمون يؤمِّنون على دُعائه ، فكان فى آخر دُعائه ما دَعا به النبىُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يوم بدر للصحابة : « اللهم انصرْ هذه العصابة وأيِّدها وأعنها على جهاد عدوِّك وعدوِّها » فأجاب الله تعالى دعاءه ، وعقَد لولدِه الأمير

(١) المصدر السابق ، ص ٥٣٧ ، ٥٣٨ .

يوسف لواء المقدِّمة ، ونادى على المسلمين فقال : يا معشر المسلمين وعصابة المجاهدين ، أنتم أنصار الدين ، الذابُّون عن حماه ، والمقاتلون عُداه ، وهذا يوم عظيم ومشهد جسيم ، له[1] ما بعدَه : ألا وإنَّ الجنَّة قد فُتحت لكم أبوابُها ، وزُيِّنت حورُها وأترابُها ، فبادروا إليها وجِدُّوا في طِلابها ، وأبذلوا النفوس في أثمانها ، ألا وإنَّ الجنة تحت ظلال السيوف ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ (سورة التوبة - الآية ١١١) ، فاغتنموا هذه التجارة الرابحة ، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة ، وشمِّروا عن ساعد الجِدِّ في جهاد أعداء الله الكَفَرة ، وقتال المشركين الفَجَرة ، فمن مات منكم شهيدًا ، ومن عاش[2] رجع إلى أهله سالمًا غانمًا مأجورًا حميدًا ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (سورة آل عمران - الآية ٢٠٠) فلما سمعوا منه هذه المقالة تاقت أنفُسهم للشهادة ، وعانَق بعضُهم بعضًا للوداع ، والدموعُ تنسكب والقلوبُ لها وجيب وانصداع ، وكلُّهم قد طابت نفسه بالموت ، وباعها لربِّه بالجنَّة قبل الفوت ، وارتفعت أصوات بالشهادة والتكبير ، وكلُّهم يقول : عبادَ الله إيَّاكم والتقصير ، فتسابقت أبطال المسلمين نحو جيش الرُّوم ، معتمدةً على الحيِّ القيوم .

وفي هذه المعركة حازت جيوش المسلمين المغربية والأندلسية نصرًا حاسمًا على القشتاليين ، حازت نصرًا أعاد إلى الأذهان ذكريات معارك الزلاَّقة والأَرَك وإفراغه، وتشتَّت الجيش القشتالي وقتل قائده ، ثم إنَّ السلطان المريني أبا يوسف يعقوب المنصور ، ذهب إلى الجزيرة الخضراء للاستراحة ليعود إلى أراضي قشتالة بادئًا بمحاصرة أشبيليَّة العاصمة ، والتي طلب سكانها منه الأمان والصلح فأجابهم ، وعاد إلى الجزيرة الخضراء ، ثم عبر البحر إلى المغرب في أواخر رجب سنة ٦٧٤هـ ، بعد أن قضى خمسة شهور في الأندلس ، وبعد أن ترك في الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس لمعاونة إخوانهم الأندلسيين في ردِّ جُند قشتالة ومن معهم .

* * *

(١) المصدر السابق ، ص ٥٣٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤٠ - ٥٤٣ .

معركة مشيخة الغزاة :

كان من نتائج حسن التفاهم بين المرينيين وسلطان غرناطة أن نزحت مجموعة من المجاهدين إلى الأندلس للإقامة فيها ، ليكونوا على أهبة الجهاد مدافعين عنها ، وعُرِفت هذه المهمة الدفاعيَّة فى الخطط الأندلسية بمَشْيَخَةِ الغزاة ورئيسها هو شيخ الغزاة ، وتولَّى بنو العلاء (من أقارب السلطان المرينى) قيادة المشيخة ، فكانت رئاستها لعبد الله بن أبى العلاء إلى أن استشهد فى عام ٦٩٣هـ .

وقبل حدوث معركة مشيخة الغزاة كان المنصور قد عبر للمرة الرابعة إلى الأندلس فى صيف عام ٦٨٤هـ ، واشتبك مع جيوش قشتالة فى البرِّ والبحر ، وذلك فى عهد شانجة الرابع ، الذى حاز ملك أبيه الفونش العاشر ، ورغب شانجة فى طلب الصلح ، فأرسل وفدًا من الأحبار يفوِّض السلطان المرينى ما يراه ، ووضعت شروط مسالمة للمسلمين وعدم الاعتداء على الأندلس .

ثم تُوفِّى السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور[1] المرينى فى سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٥م) قبل أن يعود إلى المغرب ، بعد حياة حافلة بالجهاد فى المغرب والأندلس ، وكان من طراز يوسف بن تاشفين المرابطى ، وأبى يوسف يعقوب الموحِّدى ، ثم ورث حكم المرينيين ابنه أبو يعقوب يوسف الذى كان له شأن فى الجهاد فى الأندلس إلى جانب إخوانه مسلمى غرناطة ، وكان ابن الأحمر محمد الفقيه (الثانى) ذا نشاط واضح فى هذا الميدان ومهتمًا به ، لكنَّه جنح أحيانًا إلى المسلك الشَّاذ فى مهادنة ملوك أسبانيا النصرانية ضد الآخرين ، وأحيانًا ضد المرينيين خوفًا منهم على سلطانه .

ثم تُوفى سلطان غرناطة محمد الفقيه سنة ٧٠١هـ (١٣٠١م) فخلَفه ابنه محمد الثالث الذى خُلع فى عام ٧٠٨هـ ليتولى الحكم بعده أخوه نصر ، ثم ساءت العلاقة بين هذا السلطان الغرناطى وبين بنى مرين ، وجرت أحداث داخلية فى مملكة غرناطة ، فانتهز فرآندة الرابع ملك قشتالة هذه الأحداث فتحرَّك بمحالفة ملك أرغون نحو المريَّة وجبل طارق فضربا عليهما الحصار ، ولم يأبه ملك قشتالة بالمعاهدة التى كانت بينه وبين غرناطة ، فجرت معركة قرب المريَّة قاد المسلمين فيها شيخ الغُزاة عثمان بن أبى العلاء ضد جند أراغون واضطرهم إلى رفع الحصار عن المريَّة ، إلاَّ أن جبل طارق بعد الحصار الشديد أُرغِم على التسليم .

(١) المصدر السابق ، من ص ٥٤٠ - ٥٤٢ .

وفى عام ٧١٢هـ (١٣١٤م) أرغِم نصر على التنازل ليتولى الحكم أبوالوليد إسماعيل بن فرج بن أخى محمد الأول مؤسس المملكة . وكان هذا السلطان وافر العزم وطَّد فى عهده الأمن واتسع الاستقرار ، وأعاد عهد الجهاد . وحين عاد القشتاليون إلى مهاجمة الأراضى الإسلامية استنجد أبواليد بسلطان بنى مرين أبى سعيد فرفض الأخير مساعدته . فزحف الجيش الغرناطى على غرناطة ، وكان جيشًا ضخمًا ، يقوده بيدرو وَدون جوان الوصيَّان على ملك قشتالة ومن المتطوِّعين الإنجليز فى حماس نزعة صليبية ، فوقعت المعركة المسمَّاة بمعركة مشيخة الغزاة ، وهى معركة هائلة فى العشرين من ربيع الثانى سنة ٧١٨هـ (١٣١٨م) قرب مدينة غرناطة ، وكان الجيش الإسلامى حوالى ستة آلاف فقط ، منهم ألف وستمائة فارس والباقى رجَّالة ، لكنَّهم صفوة مختارة بقيادة شيخ الغزاة أبى سعيد عثمان بن أبى العلاء ، الذى أخلص وجندُه النيَّة لله مجاهدين مستشهدين . فكان النصر حاسمًا وشبيهًا بنصر الزلاقة والأرك ومعركة استجة . ويقول ابن خلدون فى هذا الصدد باختصار « لقد صابروهم حتى خالطوهم فى مراكزهم فصرعوا بُطرة وجوان وولُّوهم الأدبار » . ثم كان أن جعل الله ذلك القائد إحدى العبر فى قتله وقتل رديفه ، واصطلام جيوش النصرانية بظاهر غرناطة ، وهى معجزة من معجزات الله ظهرت فى تلك المعركة ، وحدث بعد هذه المعركة استعادة جبل طارق من أيدى القشتاليين ، حين تضافر المرينون مع مملكة غرناطة فى سنة ٧٣٣هـ (١٣٣٣م) .

موقعة طريف :

حدث استرداد جبل طارق من القشتاليين سنة ٧٢٣هـ فى عهد سلطان بنى الأحمر أبى عبد الله[1] محمد الرابع الذى اغتيل فى عام ٧٣٤هـ ، فورثه أخوه أبو الحجاج يوسف (الأول) ابن أبى الوليد اسماعيل (٧٣٤ - ٧٥٥هـ) . وقد كان أبو الحجاج من أبرع ملوك بنى الأحمر ، بعيد الهمة عالى الخلال ، شاعرًا عالمًا وحاميًا للفنون ، وهو الذى أضاف إلى قصر الحمراء منشآت كثيرة ، وفى عهده وفى

(١) المصدر السابق ، ص ٥٥٤ .

عهد ابنه تولّى الوزارة لسان الدين ابن الخطيب أبعد الكُتاب والشعراء الأندلسيين شُهرة وذيوعًا . وحدثت فى سنة ٧٤٠هـ معركة بحرية هزم فيها المسلمون وانتصر فيها القشتاليون وحلفاؤهم من أرغونِ والبرتغال . وبارك البابا هذه الحملة ودخلت جيوشهم مملكة غرناطة .

على إثر هذا تجهَّز المسلمون لرد القشتاليين ومن معهم ، كما تجهَّز المرينون بقيادة سلطانهم أبى الحسن على بن عثمان بن أبى يعقوب ، والأندلسيون بقيادة أبى الحجاج يوسف (الأول) - ونشبت المعركة بين الفريقين فى سابع جمادى الأولى سنة ٧٤١هـ (٣٠ من أكتوبر سنة ١٣٤٠م) استعمل فيها المسلمون نوعًا حديثًا من المدافع تقذف النيران ، وقد غدا هذا السلاح مستعملاً بعد هذا التاريخ ، ولما كان المسلمون لم يستعملوا السلاح الذى استعمله من قبل يوسف بن تاشفين فى معركة الزلاقة ، وأبو يوسف يعقوب الموحِّدى فى معركة الأرك ، واستعمله سميُّه المرينى فى معركة استجة (وهو سلاح الإيمان) فقد هزم المسلمون هزيمة منكرة فى معركة طريف ، وارتكب القشتاليون المناكر فى المعسكر الإسلامى ، وغنموا ما فيه ، وتحفظ كنيسة طليطلة حتى اليوم بين ذخائرها علمين لبنى مرين من هذه المعركة ، ولعلَّ المسلمين خسروا فى تلك المعركة مصحف عثمان ، وهى معركة مؤلمة الوقع - على النفوس ، تذكِّرنا بوقعة العِقاب فى عصر الموحِّدين ، استولى فيها ملك قشتالة على معسكر المسلمين ، وموضع سلطان المغرب وفيه الحريم والأولاد حيث ذبحوا جميعًا بوحشية مروِّعة . واستشهد فى هذه المعركة كثير من علماء الأندلس والمغرب .

وفى نهاية القرن التاسع الهجرى سقطت غرناطة :

فى أواخر عام ٨٨٧هـ تولى حكم غرناطة أبو عبد الله[1] محمد الحادى عشر مكان أبيه أبى الحسن على ، وأبو عبد الله هذا هو المعروف بأبى عبد الله الصغير ، خاض هذا الأمير فى السنة التالية من حكمه معركة ضد جيوش قشتالة انتصر فيها المسلمون ، ثم قاد جيشًا اتجه به نحو قرطبة ، فغُلب فى إحدى معاركه عند قلعة اللّسانة . وأُسر فى تلك المعركة ، فتولّى الحُكمَ بعدَه عمُّه أبو عبد الله[2] الزَّغَل ،

(١) المصدر السابق ، ص ٥٥١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٥١ .

وحدث أن أُطلِق سراح أبى عبد الله الصغير فى سنة ٨٩٠هـ بعقد اتفاق مع قشتالة كان فى صالحها ، وصاحب ذلك انقسامات فى داخل غرناطة ، وفى هذه الإثناء هاجم جيش قشتالة للمرة الثانية مدينة لَوْشة ، فلم تقْوَ على المقاومة واستسلمت فى سنة ٨٩١هـ ، ثم كانت حرب بين العمِّ الزغل وابن أخيه أبى عبد الله انتهت بتقسيم غرناطة ، وبدأ ملك قشتالة يسدِّد ضرباته إلى المدن الأندلسية ، ويرهقها حصارًا وحربًا ، فيخرِّب ما حول غرناطة ، ويحرق الزروع والمحاصيل ، فاضطر الزَّغل إلى عقد مصالحة مع ملك قشتالة فى سنة ٨٩٥هـ ، وترك الأندلس لابن أخيه أبى عبد الله متوجِّهًا إلى تلمسان بالجزائر .

ثم جرت أحداث كثيرة ومتوالية ، وقامت مفاوضات[1] لجأ العدو خلالها إلى التحريش والإيقاع بين المسلمين ، وإذكاء الفتنة بينهم ، وتمكَّن من حصار غرناطة حصارًا شديدًا انتهى باستسلامها ، وهكذا سقط آخر حصن إسلامى وآخر معقل للمسلمين فى شبه الجزيرة الأندلسية ، وهذا شاهد عيان أورد شهادته المقرِّى فى كتابه نفح الطيب . يقول الشاهد « كان الاستيلاء على مدينة غرناطة آخر ما بَقِى من بلاد الأندلس للإسلام ، فى محرم عام سبعة وتسعين وثمان مئة » وهو يعنى أن معاهدة التسليم تمت فى ٢١ من محرم عام ٨٩٧هـ ، وفى ثانى ربيع الأول من ذات السنة (٨٩٧هـ) استولى النصارى على الحمراء ، ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمس مائة من الأعيان رُهِنوا خوف الغدر - فى عُرف الغازى - وكانت الشروط سبعة وستين منها : تأمين الصغير والكبير فى النفس والأهل والمال ، وإبقاء الناس فى أماكنهم ودورهم وعقارهم ، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ، ولا يحكمه أحد عليهم إلا بشريعتهم .

وطبقًا لهذه المعاهدة تعهَّد الملكان الكاثوليكيان بأمور كثيرة للمسلمين ، لكنها جميعًا نُقضت واحدة تلو الأخرى ، وبعد توقيع المعاهدة دخل الملكان الغازيان قصر الحمراء بغرناطة فى اليوم الثانى لربيع الأول سنة ٨٩٧هـ (٢ من ديسمبر ١٤٩٢م)- دخلاها حين تركها آخر ملوكها أبو عبد الله محمد الحادى عشر إلى أندرش

(١) المصدر السابق ، ص ٥٥٢ - ٥٥٧ .

فى منطقة البشرات ، جنوبى جبل الثلج بالأندلس ، ثم أُمِر بالارتحال منها بعياله وحشمه ، وأُركِبوا مراكب أعدت لهم إلى العُدوة المغربية ، فنزلوا بمليلة من ريف المغرب ، ثم ارتحل السلطان أبو عبد الله إلى مدينة فاس ، فى عام ٩٢٤هـ ، وكان حاكم فاس آنئذ أبو عبد الله بن الشيخ زكريا الوطّاسى . ويقول صاحب نفح الطيب « وما زال أعقابه (أى أعقاب أبى عبد الله بن الأحمر) بها حتى الآن من جملة الضعفاء السؤّال (الشحاذين) بعد الملك الطويل العريض فسبحان المعز المذل » .

العبرة من هذه الدراسة :

كانت هذه الدراسة المختصرة إطلالات عابرة على معارك الفتوح الإسلامية فى الشرق والغرب وفى بلاد الأندلس بوجه خاص ، ولمسنا من الاطلاع عليها تلك المبادىء السامية التى حملها المسلمون معهم وهم يتوجهون إلى تلك البلاد حاملين لواء النور والعدل والسلام - لمسنا من خلال هذه الإطلالات روح التسامح الإسلامى، وتحمُّل قادة المسلمين مسئوليَّة الحفاظ على أرواح الأبرياء شيوخًا ونساءً وأطفالاً ، وتأمينهم لكل أرض يطأونها ، وعدم اعتدائهم على مقدسات أهالى الأرض المفتوحة، واحترامهم لعاداتهم وتقاليدهم ومحافظتهم على كنائسهم وأديرتهم . ورأينا على النقيض من ذلك روح التشفى والانتقام ضد المسلمين من جانب أعدائهم، فلم يرعوا للمسلمين عهدًا ولا ذمة ، ولم يرحموا طفلاً ولا أمًا ولا شيخًا ، ناسين الأيادى البيض التى أُسبِغت عليهم من هؤلاء الذين ينتقمون منهم .

والعبرة من سرد هذه المعارك وتلك الأحداث هى محاولة معرفة الحكمة من محاربة الأمم بعضها بعضًا ، ولماذا كان الغزو والتوغل فى بلاد مجهولة العقيدة واللغة والعادات ، وما الفائدة التى يجنيها الغازى من غزوه - هل هى كسب دنيوى زائل أم هى ثمرة خالدة يتلقاها الشهيد من ربِّ العزة فى دار الخلود . لنقتطف فى هذا الصدد جُملاً من تحليل ابن خلدون ونظرته الخاصة :

يقول فى الفصل السابع[١] والثلاثين من مقدمته بعنوان : فى الحروب ومذاهب

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٧٠ - ٢٧٣ .

أمم وتربيتها : « اعلم أن الحروب وأنواعَ المقاتلة لم تَزَلْ واقعة فى الخليقة منذ راها الله ، وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ، ويتعصَّب لكل منها أهل عصبيَّته ، فإذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان ، إحداهما تطلب الانتقام . الأخرى تدافع . كانت الحروب وهو أمر طبيعى فى البشر ، لا تخلو عنه أُمَّة لا جيل ، وسبب هذا الانتقام فى الأكثر إمَّا غيْرَة ومنافسة ، وإمَّا عدوان وإمَّا غضبٌ لَه ولدينه ، والثانى وهو العدوان أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالقفر ، كالعرب والترك والتركمان والأكراد وأشباههم ، لأنهم جعلوا أرزاقهم فى رماحهم معاشهم فيما بأيدى غيرهم ، ومن دافَعهم عن متاعه آذنوه بالحرب ، ولا بُغية لهم فيما وراء ذلك من رُتبة ولا مُلك ، وإنَّما همُّهم ونصب أعينهم غَلَبُ النَّاسِ على ما فى يديهم ، والثالث وهو المسمَّى فى الشريعة بالجهاد ، والرابع هو حروب الدول مع لخارجين عليها والمانعين لطاعتها ، فهذه أربعة أصناف من الحروب ، الصنفان الأوَّلان منها حروب بغْيٍ وفتنة ، والصنفان الآخران حروب جهاد وعدل .

وتعقيبنا على رأى ابن خلدون فى هذا القول هو : أنه قد حلَّل الحرب تحليلاً محايدًا غير متأثر بمبدأ ولا عقيدة ، ولكنه مع ذلك لم يستثنِ من سبب قيام الحروب أىَّ فئة ، إذ جعل السبب هو إرادة الانتقام ، فكان من العدل والإنصاف أن يستثنى الفئة المؤمنة من هذا السبب ، لأن حربها الآخرين ليس سببه إرادة الانتقام ولكن سببه إحقاق الحق وإرساء قواعد العدالة . كما أنه جعل أنواع الحرب أربع نوعان حروب بغى وفتنة ، ونوعان حروب جهاد وعدل[1] ، وإذا نظرنا إلى النوعين اللذين اعتبرهما حروب بغى وفتنة ، لوجدناهما فى الحقيقة ثلاثة أنواع هى : حروب غيرة ومنافسة ، وحروب اعتداء ، وحروب رد اعتداء : ولذا خرج من تصنيفه النوع الثالث . وإذا نظرنا إلى النوعين اللذين اعتبرهما حروب جهاد وعدل ، فإننا نتفق معه فى النوع الأول وهى حروب الجهاد على أنها حروب مشروعة وعادلة . ونختلف معه على اعتباره النوع الثانى حروبًا عادلة فى كل الأحوال - فالحروب التى تخوضها الدولة مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها ، لا تكون فى كل

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٧٠ - ٢٧٣ .

الأحوال مشــروعة وعـادلة لسببـين إذا كانت دولة ظـالمة متجـبِّرة ، أو كانت دولـة ملحـدة أو مشـركة تفرض ولايتها على المسلمين - فالخروج عليها لهذين السببين مشروع وعادل .

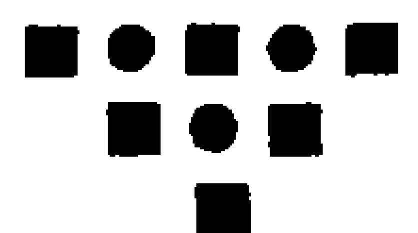
نخلص من ذلك إلى أن الله تعالى قد فـرض على المسلمين الجـهاد ، وأمـرهم بتبليغ دعوة الإسـلام إلى جميع العباد ، ولذلك كان العبور إلى شبه جـزيرة أيبـريا عبـورًا مشـروعًا رغم ما فيـه من مخاطـر ومهـالك ، وذلك استجابة لقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (سورة التوبة - الآية ١١١) .

بعد ذلك ننتقل بالقارىء إلى رأى ابن خلدون فى انحدار الدول وغـروبها - وهو رأى لا يبعد عن المعنى الذى ساقه الله تعالى فى أكثر من آية من آيات الكتاب العزيز كالآية الكريمة فى سورة آل عمران ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة آل عمران - الآية ١٤٠) ، وكالآية الكريمة الواردة فى سورة سورة الأعراف ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة الأعراف - الآية ١٢٨) .

الفصل السادس والأربعون[١] من مقدمة ابن خلدون : فى أن الهـرم إذا نَزَل بالدُّولِ لا يرتَفعُ ، قال : قد قدَّمنا ذكْر العوارض المُؤْذنة بالهَرَم وأسبَابه واحدًا بعْد واحد ، وبيّنا أنَّها تحدُث للدُّول بالطبع ، وأنَّها كُلَّها أمورٌ طبيعيَّة لهَا ، وإذا كان الهَرَم طبيعيًا فى الدَّولة ، كانَ حدُوثَه بمثابة الأمور الطبيعية كما يحدُث الهَرَم فى المزاجِ الحيوانى ، والهَرَمُ من الأمراض المزمنة التى لا يمكن دواؤُها ولا ارتفاعُها لأنَّه

(١) ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ من المقدمة .

طبيعيّ، والأمور الطبيعية لا تتبدّل ، وقد يتنبّه كثير من أهل الدول ممّن له يقظَةٌ فى السياسةِ ، فيرَى ما نَزَل بدولتِهم من عوارضِ الهَرَم ، ويظنُّ أنّه ممكنُ الارتفاعِ ، فيأخُذَ نفسَه بِتَلافى الدولةِ ، وإصلاح مِزَاجِها من ذلك الهَرَم ، ويظن أنّه لحِقها بتقصيرِ مَنْ كانَ قبلَهُ مِنْ أهل الدَّولة وغفْلَتِهم ، وليس كذلك فإنَّها أمورٌ طبيعية للدولةِ ، والعوائدُ (العادات) هى المانعة له من تَلافيها ، والعوائدُ منزلةٌ طبيعيةٌ أخرى، فإنَّ من أدرَك مثلاً أباه وأكثرُ أهلِ بيته يلبَسُون الحريرَ والدِّيباجَ ، ويتحلُّونَ بالذهبِ فى السَّلام والمراكِبَ ، ويحتجبون عن الناس فى المجالس والصلوات ، فلا يمكن مخالفة سلَفِه فى ذلك إلى الخشونة فى اللباس والزِّى والاختلاط بالناس ، إذ العوائد حينئذٍ تمنعه وتقبِّح عليه مرتكَبَه ، ولو فعلَهُ لرُمِىَ بالجُنون والوَسواسِ فى الخروج على العوائد ومخالفتها ، ولولا التأييد الإلهى والنصر السَّماوى ، وربما تكون العصبية قد ذهبت فتكون الأُبَّهَةُ تعوِّض عن موقعها من النفوس ، فإذا أُزيلت تلك الأُبَّهة مع ضعف العصبيَّة تجاسرت الرعايا على الدولة بذهاب أوهام الأُبَّهة ، فتتدرع الدولة بتلك الأُبَّهة ما أمكنها ، حتى ينقضى الأمر ، وربما يحدث عند آخر الدولة قوة تُوهِمُ أنَّ الهَرَم قد ارتفع عنها ، ويومض ذُبَالها إيماضة الخُمود ، كما يقع فى الذُّبال المشتعل ، فإنَّه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضةً تُوهِم أنها اشتعال وهى انطفاء ، فاعتبر ذلك ولا تُغفِل سرَّ الله تعالى وحكمته فى اطِّرادِ وُجوده على ما قدَّر فيه (ولكلِّ أجلٍ كتاب) .



مرثيات خالدة

لا يفوتنى أن أختتم هذا البحث الوجيز الذى جمعته عن بعض البطولات العربية فى عصر الفتوحات الإسلامية - لا يفوتنى أن أختتمه ببعض ما قيل من غرر القصائد فى رثاء الأندلس ، وقد انتخبت قصائد مشهورة ، لشدة وقعها على النفوس ، وصدق شعور قائليها ، وتأثرهم البالغ بتلك الكارثة المؤلمة ، سيَّما وأن أفئدة المسلمين اليوم تتحرَّق شوقًا إلى استعادة ذكرى تلك الأمجاد ، التى أتى عليها الزمن فجعلها فى خبرِ كان . والشِّعرُ فى هذا المضمار هو أصدق أحاسيس الشاعر وأنبلها لأنه يعيش بكل جوارحه هذه المأساة الإنسانية المروِّعة ، فنبراته الوالهة المكلومة تثير كوامن النفوس ، وتجذب القلوب وتذيبها حسرة وأسى ، ولكنها تقود الإنسانية إلى وحدانية الله تعالى وتجعلها تومن إيمانًا راسخًا ، بأن المُلك لله يُورثه من يشاء من عباده ، وما كان لابد أن يكون ، وبذا تصبح النفوس راضية بما جاءت به المقادير . وهذه المراثى أيضًا تبعث فينا : أمل النصر مع الصبر وأمل العودة مع المثابرة والكفاح ، وأمل الارتفاع إلى مراقى المجد مع الجد والاجتهاد ، وأمل الطمأنينة إلى رضاء الله ورضوانه مع الاستعانة به والامتثال لحكمه .

أولاً : قصيدة أبى البقاء الرندى[1] :

وأبدأ هذه المراثى بالقصيدة المعروفة برثاء الأندلس للشاعر الأندلسى المفلق صالح بن شريف الرُّندى المكنى بأبى البقاء الرُّندى ، وهذه القصيدة النونية فاقت فى الشهرة قفانبك ولم يعهد الناس مرثية مثلها بلغت من إثارة الحفائظ وإرهاف العواطف، فضلاً عن إبداع النظم وإحسان السبك للعلامة خاتمة أدباء الأندلس والذى يقول :

---

(١) المصدر : مختارات من الشعر الأندلسى للمستشرق البوهيمى أ . ر . نيكل ، والحلل السندسية .

لكلِّ شيء إذا ما تمَّ نُقصانُ فلا يغرَّ بطيبِ العيش إنسانُ
هيَ الأمورُ كما شاهدتَها دُولٌ مَن سرَّه زمن ساءته أزمانُ
وهذه الدارُ لا تبقى على أحدٍ ولا يدوم على حالٍ لها شانُ
يمزِّق الدار حتمًا كل سابغةٍ إذا نبت مشرفيَّات وخُرصانُ
ويُنتضَى كلُّ سيفٍ للفناء ولو كان ابن ذي يزَنٍ والغِمْدُ غمدانُ

* * *

أين الملوكُ ذوو التيجانِ من يمنٍ وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ
وأين ما شادَه شدَّادُ في إرَمٍ وأين ما ساسه في الفُرس ساسانُ ؟
وأينَ ما حازه قارونُ من ذهبٍ وأين عادٌ وشدَّادٌ وقحطانُ
اتى على الكلِّ أمرٌ لا مردَّ له حتى قَضَوْا فكأنَّ القومَ ما كانُوا
وصار ما كانَ من مُلْكٍ ومن مَلِكٍ كما حكَى عن خيال الطَّيف وسنانُ
دارَ الزمان على دارَا وقاتلِه وأمَّ كسرَى فما واراه إيوانُ
كأنَّما الصعب لم يسهُلْ له سببٌ يومًا ولم يملكِ الدنيا سليمانُ
فجائعُ الدهرِ أنواع منوَّعة وللزمان مسرَّات وأحزانُ
وللحوادث سلوان يسهِّلها وما لَمَا حلَّ بالإسلام سُلوانُ

* * *

دهَى الجزيرةَ أمرٌ لا عزاءَ له هوَى له أحدٌ وانهدَّ ثهلانُ
أصابها العينُ في الإسلام فارتزأتْ حتى خلَتْ منه أقطارٌ وبُلدانُ
فاسأل بلنسيَّةَ ما شأن مرسيَةٍ وأين شاطبةٌ أمْ أين جيَّانُ ؟
وأينَ حِمصٌ وما تحويه من نُزَهٍ ونهرُها العذب فيَّاضٌ ومَلآنُ
قواعدٌ كُنَّ أركانَ البلادِ فما عسَى البقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ ؟
تبكي الحنيفيَّةُ البيضاءُ من أسفٍ كما بكَى لفراقِ الإلف هَيْمانُ
على ديارٍ من الإسلامِ خاليةٍ قد أقفرَتْ وبها بالكُفرِ عُمرانُ

حيثُ المساجدُ قد صارتْ كنائسَ ما ... فيهنَّ إلاَّ نواقيسٌ وصُلبانُ
حتَّى المحاريبُ تبكِي وهِي جامدةٌ ... حتَّى المنابرُ ترثِي وهي عِيدانُ

* * *

يا غافلاً وله في الدهرِ موعظةٌ ... إنْ كُنتَ في سِنَةٍ فالدَّهرُ يقظانُ
وماشيًا مرحًا يُلهيهِ موطِنُهُ ... أبعدَ حِمْصٍ تغرُّ المرْءَ أوطانُ ؟
تلك المصيبةُ أنسَتْ ما تقدَّمهَا ... وما لهَا مَعَ طُول الدَّهرِ نِسيانُ
ياركبينَ عتاقَ الخَيْلِ ضامرةً ... كأنَّها في مجالِ السَّبْقِ عِقبَانُ
وحاملينَ سيوفَ الهندِ مُرهفةً ... كأنَّها في ظلامِ النَّقعِ نيرانُ
وراتعينَ وراءَ البحرِ في دَعةٍ ... لهمُ بأوطانِهم عزٌّ وسلطانُ
أعندَكم نبأٌ عن أهلِ أندلسٍ ... فقد سرَى بحديثِ القومِ رُكبانُ
كم يستغيثُ بِنا المستضعَفُون وهمْ ... قتلَى وأسْرَى فما يهتزُّ إنسانُ
ماذا التَّقاطعُ في الإسلامِ بينكمو ... وأنتُمو يا عبادَ الله إخوانُ
ألا نفوسٌ أبيَّاتٌ لها هِمَمٌ ... أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ
آهِ لذلَّةِ قومٍ بعدَ عزهمو ... أحالَ حالَهُمو كفرٌ وطغيانُ
بالأمسِ كانُوا مُلوكًا في منازِلهم ... واليومَ هُم في بلادِ الكُفْرِ عُبدانُ
فلو تراهُم حيَارَى لا دليلَ لهُم ... عليهِمُو مِنْ ثيابِ الذُّلِّ ألوانُ
ولو رأيْتَ بكاهُم عند بيعهِمُو ... لهالَكَ الأمرُ واستهوتْكَ أحزانُ
يا رُبَّ أمٌّ وطفلٍ حِيلَ بينهمَا ... كما تفرَّقُ أرواح وأبدانُ
وطفلةٍ مثل نورِ الشمس إذْ طلعَتْ ... كأنَّما هي ياقوتٌ وريحانُ
يقودُها العِلْجُ للمكروهِ مكرهةً ... والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيرانُ
لمثلِ هذا يذوب القلبُ من كمدٍ ... إنْ كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

ثانيًا : قصيدة ابن الأبَّار الأندلسى[1] :

كما سقطت بلنسيَّة فى أيدى الأسبان واستولى عليها ملك أراغون « جاقمة البرشلونى » حيث حاصرها فى رمضان سنة ٦٣٥هـ بجنود كثيفة يؤازرها الوافدون الذين كان منهم حشود المتطوعة الفرنسيين بقيادة مطران مدينة أربونة وآخرون من جُنوة ، فشددوا الحصار على المدينة وخرَّبوها بالآلات الحربية ، وهمَّ سكانها على الدفاع حتى الرمق الأخير . حينئذ أرسل أميرها أبو جميل زيَّان ممثله الفقيه أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الأنصارى إلى أمير مرسيَّة ، ووجه كاتبه العلامة أبا عبد الله محمد المعروف باب الأبَّار برسالة يستصرخ فيها أمير تونس أبا زكريا يحيى بن أبى حفص - إلاَّ أن المقادير كانت أسرع من إجابة ذلك الأمير لُمستصرِخه : حيث « عادَ أبو عبد الله[2] بن الأبَّار إلى مُرسله فألقَى الأحوال قد أعضل دواؤها ، وقواعد قد غلب عليها أعداؤها ، فتركها هاجرًا ، وقصد حرة تونس مهاجرًا - ورغم أن الأمير الحفصى قد بادر بتجهيز أسطول شحنه بالمؤونة والسلاح من ثمانى عشرة سفينة كبيرة وصغيرة ، واتجهت بصحبة ابن الآبار وبقية الوفد الأندلسى ، لكن هذه السفن فشلت فى إيصال الإمدادات إلى المدينة المنكوبة . حيث اضطرت هذه المدينة اليائسة إلى الاستسلام فى السابع من شهر صفر لعام ٦٣٦هـ فعاث فيها الغازى الأراغونى وكل من معه من الجيوش .

وفى هذه القصيدة يقول ابن الأبار مخاطبًا أمير تونس :

أدرِكْ بخيلك خيلِ الله أندلسًا … إنَّ السبيل إلى منجاتها درَسا

وهبْ لها من عزيز النصر ما التمست … فلم يزلْ منك عِزُّ النصر ملتمسَا

وحاشِ مما تعانيه حشاشتُها … فطالَما ذاقت البلوى صباحَ مَسا

يا لِلجزيرةِ أضحى أهلُها جَزَرا … للحادثاتِ وأمسَى جَدُّها تعَسا

فى كلِّ شارقةٍ إلمام بائقةٍ … يعود مأتمًا عند العِدَى عُرُسا

وكلُّ غاربةٍ إجحافُ نائبةٍ … تَثنِى الأمانَ حَذارًا والسرورَ أسى

* * *

(١) المصدر : الحلل السندسية لشكيب أرسلان - الجزء الثالث .

(٢) المرجع السابق .

تقاسَم الرومُ لا نالت مقاسِمُهم إلاّ عقائلَها المحجوبَة الأُنُسا
وفى بلنسيَةٍ منها وقرطبةٍ ما يُذهِب النَّفس أو يستنزِفُ النَّفسا
مدائنٌ حلَّها الإشراكُ مبتسمًا جذلانَ وارتحلَ الإيمانُ مبتئِسًا
وصيَّرتها العوادى العائثاتُ بها يستوحِشُ الطَّرفُ فيها ضِعفَ ما أنِسا
فمن دساكِرَ كانت دونَها حرسًا ومن كنائسَ كانت قبلها كُنُسا
يا لِلمساجدِ عادت للعِدَى بِيَعًا وللنداءِ غدا إثناءها جَرَسا
لهفِى عليها إلى استرجاع فائتِها مدارسٌ للمثانى ، أصبحتْ دُرُسا
وأربعٌ نمنَمتْ أيدِى الربيع لها ما شِئتَ من خِلَع حُوشيةٍ وكُسَى
كانت حدائقَ للأحداقِ مونِقةً فصوَّح النَّضرُ من أدواحها وَعَسا
وحال من حولها من منظرٍ عجَبٍ يستجلس الرَّكب أو يستركب الجُلَسا
سَرعان ما عاثَ جيش الكفرِ واحرَبا عيْثَ الدُّبا فى مغانيها التى كسِبَا
وابتزَّ بزَّتها مما تحيَّفها تحيُّفَ الأسَدِ الضَّارى لما افترسا

* * *

فأين عيشٌ جنيناه بها خضِراً وأين غصنٌ جنيْنَاه بها سلِسا
محا محاسنها طاغٍ أتيح لها ما نام عن هضمها حينا ولا نعِسَا
خلا له الجوُّ فامتدت يداهُ إلى إدراكِ ما لم تطأ رجلاه مختلِسا
وأكثر الزَّعْمَ بالتثليثِ منفرِداً ولو رأى رايةَ التوحيدِ ما نبَسا

* * *

هذى رسائلها تدعوك مِنْ كثبٍ وأنت أفضل مرجوٌّ لمَن يئسا
وربَّما سبَحتْ والريح عاتيةٌ كما طلبْتَ بأقصى الشُّدَّة الفرسا
تؤمُّ يَحيى بن عبد الواحد بن أبى حفصٍ مقبِّلَةً من تُربه القدسا
ملِكٌ تقلَّدتِ الأملاك طاعتَه دينًا ودُنيا فغشَّاها الرِّضا لَبَسا
ماضى العزيمةِ والأيام قد نَكِلت طلْقُ المحيَّا ووجه الدَّهر قد عبَسا

كــأنّه البــدر والعليــاء هالتــه تحفُّ من حـوله شـهب القنا حـرسـا
قـامت على العـدل والإحـسـان دولتُـه وانشـرت من وجـوه الجُـودِ مـا درسـا
قــد نوَّر الله بـالتــقــوى بصــيـرتَه فـمـا يبـالى طريق الخَطبِ ملتبِسًا

* * *

يا أيُّهـا الملك المنصـور أنت لهـا عليـاء تُوسِع أعـداء الهُـدَى تَعَـسـا
وقـــد تواتـرت الأنبــاءُ أنَّك مَـنْ يُحـيى بقـتلِ ملوك الصُّـفـر أندلسا
طهِّــر بلادَك مـنهـم إنَّهم نجَسٌ ولا طهـارةَ مـا لـم تغـسِلِ النجـسـا
وأوطِئِ الفـيلقَ الجـرَّارَ أرضـهـمـو حـتى يطاطئَ راسًـا كلُّ من رأسـا
وانصر عبيداً بأقصى شرقِها شَرِقَتْ عـيـونُهم أدمـعـا تهـمى زكًا وخِـسـا
هم شيعـة الأمـر وهْىَ الدار قـد نهِكَت داءً مـتى لم تبـاشـرْ حـسـمـه انتكسا
واضـرب لهـا مـوعـداً بالفـتح ترقُبـه لعلَّ يوم الأعـادى قـد أتى وعـسى

ثالثا : مرثية أبى المطرّف بن عميرة[١] :

ولما سقطت بلنسيّة فى أيدى أعداء الإسلام أكثر أدباؤها بكاءها والتأسف عليها نظمًا ونثرًا « فمن ذلك قول الكاتب أبى المطرّف بن عُميرة يخاطب الكاتب أبا عبد الله بن الأبّار جوابًا لرسالة له :

طارحَنى حديثَ مَوْرِدٍ جفَّ ، وقطينٍ خفَّ ، فيا للّهِ لأتراب دُرجوا ، وأصحاب عن الأوطان خرجوا ، قُصَّت الأجنحة .. وقيل طيرُوا ، وإنما هو القتل ، أو سِيرُوا فتفرقوا أيدِى سبا ، وانتشروا ملءَ الوهاد والربا ، ففى كلّ جانب عويل وزفرة ، وبكلّ صدرٍ عليلٌ وحسرة ، ولكلّ عين عبرة لا ترقأ من أجلها عَبْرة ، داءٌ خامر بلادَنا حين أتاها ، وما زال بهَا حتى سجَّى موتاها » إلى أن يقول شعرًا :

مــا بالُ دمــعِك لا ينِى مــدرارُهُ ... أمْ مــا لِقلبِكَ لا يقَــرُّ قــرارُهُ

ألِلَوعــةٍ بين الضلوع لظاعنٍ ... ســارت ركــائِبُــه وشطَّت دارُهُ .. ؟

أمْ لِلشَــبَــابِ تقــاذَفَتْ أوطانُه ... بعــد الدُّنوِّ وأخــفَــقَتْ أوطارُهُ

أمْ لِلزَّمــانِ أتَى بخطبٍ فــادحٍ ... مِنْ مــثلِ حــادثةٍ خلَتْ أعــصارُهُ

بحــرٌ من الأحــزان عبَّ عــبابُه ... وأبِيحَ مــا بين الحــشــا زخّــارُهُ

فى كُلّ قلبٍ منهُ وجْــدٌ عنده ... أسَفٌ طويل ليس تخــبُــو نارُهُ

* * *

أمَّــا بلنسيــةٌ فمــثْوَى كــافرٍ ... حَــفَّتْ به فى عُــقْــرِها كُــفّارُهُ

زَرْع من المكرُوه هلَّ حَــصَــادُهُ ... عند الغُــدوِّ غــداة لجَّ حِــصَارُهُ

مــا كـــان ذاكَ المِصــرُ إلاّ جنَّةً ... للحُــسن تجــرِى تحــتَــه أنهــارُهُ

طابَتْ بِطِيبِ بَهــارِه آصــالُهُ ... وتعطَّرَتْ بنســيــمــهِ أشــجــارُهُ

ودَجَــا به كَيلُ الخُطوبِ بصحبِه ... أعــيــا على أبصــارنا أســفَــارُهُ

---

[١] الحلل السندسية (الجزء الثالث) ، ص ٥٤١ ، ٥٤٢ .

رابعًا : رثاء آخر معاقل الإسلام لابن خاتمة[١] :

ومن مراثى الأندلس الجديرة بالحفظ ، هذه المرثيَّة للأديب أبى جعفر ابن خاتمة والتى يرجع تاريخ نظمها إلى سنة ٩٠٤ أو ٩٠٥ للهجرة . أى بعدَ سقوط غرناطة بقليل ، وكانت مدينة رندة قد سقطت قبلها (ولذا بدأ الشاعر قصيدته بها - وقد عثر على هذه القصيدة صاحبُ الحلل السندسية لدى الأستاذ السيد عز الدين فخر الدين التنوخى السورى . وذلك عند وصول المؤلف الأمير شكيب أرسلان لسورية فى سنة ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) .

وقد وصف صاحب هذه القصيدة (ابن خاتمة) سقوط مملكة بنى الأحمر مدينةً بعد مدينة ، وكانت صُبابة كأس الأندلس ، فذكر رُندة ثم مالقة وبلَّش ، ثم المنكَّب ثمَّ وادى آش ثم بَسطة ثم المَريَّة ، وختم ابن خاتمة مناحته بذكر غرناطة أمَّ البلاد ، ومن نَسْقِ نظْمِها يظهر أنه كان مشاهِدًا تلك الحوادث القاصمة للظهور وأن البيان كان عن عيان :

أحقًا خبَا من جوِّ رُندَةَ نورُها ... وقد كُسِفت بعد الشُّموسِ بُدورها

وقد اظلمَتْ ارجاؤُها وتزلزلَتْ ... مَنازِلُها ذاتُ العُلا وقصورُها

أحقًا خليلِى انَّ رُنَدَة اقفَرَتْ ... وازعِجَ عنها أهلُها وعشيرُها

وهُدَّت مبانيها وثُلَّت عروشها ... ودارتَ على قُطْبِ التفرُّق دورُها

منازلُ آبائى الكرامِ ومنشَئِى ... وأوَّل أوطانٍ غذانِىَ خِيرُها

* * *

فمالقةُ الحسناءُ ثكلَى أسيفةٌ ... قد استُغرِقتْ قتلاً وذبحًا حجورها

وَجُزَّت نواصيها وشُلَّت يمينُها ... ويَدَّل للويل المبين سرورها

وقد كانت الغربيَّةَ الجِنَنَ التى ... تقيها فأضحَى جِنَّةَ الحربِ سورُها

---

(١) الحلل السندسية (الجزء الثالث) ، ص ٥٤١ ، ٥٤٢ .

وبَلَشُ قُطِّعَت رجلُهـا ويمينهـا ... ومن سـريان الداء بأن قُطورها

وضمَّت على تلك الثنيَّاتِ حِجْرَها ... فأقفر مغنَاها وطاشَتْ حجورُها

وبالله إنْ جئتَ المنكِّبَ فاعتبِرْ ... فقد خفَّ ناديها وجفَّ نضيرُها

وقد رجفَتْ وادى الأشَى فبقاعُها ... سُكارَى وما استاكت بخمرٍ ثغورها

وبسْطةُ ذاتُ البَسْطِ ما شعرت بما ... دهَاها وأنَّى يستقيمَ شعورُها

وإنْ أنسَ لا انسى المَريَّةَ إنَّها ... قتيلة إدجالٍ أُزيلَ غديرُها

ألا ولتقضِ يا ركبَ الأسى بمعالمٍ ... قد ارتج باديها وضجَّ حضورُها

بدار العُلا حيث الصِّفاتِ كأنَّها ... من الخُلدِ والمأوَى غدَت تشطيرُها

محلُّ قرارِ المُلكِ غرناطةَ التى ... هى الحضرة العُليا زهتْهَا زهورها

ترى للأسَى أعلامَها وهى خشَّعٌ ... ومنبرها مستعبِرٌ وسريرُها

وما حولَها ساهِى الحِجَى وأمامَها ... وزائُرها فى مأتمٍ ومزورُها

وجاءت إلى استئصال شأفةِ ديننا ... جيوشٌ كموجِ البحرِ هبَّت دَبُورُها

علاماتُ أخذٍ ما لَنا قِبلٌ بهَا ... جناياتُ أخْذٍ قد جناها مثيرُها

فلا تنمَحِى إلاَّ بمحْوِ أُصولِها ... ولا تنجَلِى حتَّى تحطَّ اصورُها

معاشرَ أهلِ الدين هبُّوا لصعقةٍ ... وصاعقةٌ وارَى الجسومَ ظهورُها

اصابَتْ منارَ الدِّينِ فانْهَدَّ ركنُهُ ... وزُعزِعَ من أكنافِها مستطيرُها

* * *

ألاَ واستعدُّوا للجهاد عزائمًا ... يلوحُ على ليلِ الوغَى مستنيرها

بأُسدٍ على جُردٍ من الخيل نسَّقٌ ... تدعُّ الأعادى سبْقُها وزئيرها

بأنفُسِ صدقٍ موقناتٍ بأنَّها | إلى اللهِ من تحتِ السيوفِ مصيرُها
فوا حسرتا كَم من مساجِدَ حُوِّلَتْ | وكانت إلى البيت الحرام سُطورُها
وواسفا كَمْ من صوامِعَ أوحشتْ | وقد كان معتادُ الأذانِ يزورُها
فمحرابُها يشكُوا ومتبرُها الجوَى | وآياتها تشكو الفراق وحورُها
وكم طفلةٍ حسناءَ فيها مصونَةٌ | إذا أسفرت يسْبِى العقولَ لَسفورُها
تميل كغُصنِ البان مالَت به الصَّبَا | وقد زانَها ديباجها وحريرُها
فأضحت بأيدِى الكافِرين رهينةً | وقد هُتِكَتْ بالرغمِ منها ستورها

خامسًا : رثاء الأندلس لشوقى[١] :

ومن أبدع ما جادت به قرائح الشعراء فى رثاء الأندلس فى العصر الحديث ، قصيدةُ أمير الشعراء أحمد شوقى ، فهى مساهمة صادقة ، وعبرات دافقة فى رثاء هذه الممالك الإسلامية الزائلة ، وكان رحمه الله ذا نفس توَّاقة إلى قراءة تاريخ تلك الممالك التى بهرت العالم بعظمتها ، كما كان مأخوذًا بمن ترعرع فى أحضانها من الشعراء والبلغاء والعلماء والفلاسفة والفقهاء .

ولما خيَّره الأعداء - بعد احتلالهم مصرَ وانتقادهِ لهم - أىَّ البلادِ يرغب أن تكون منفًى له ، لم يختَرْ سوى أسبانيا ، تشوُّقًا منه إلى استعادة ذكرى تلك الأمجاد التى تثير كوامن النفس ، وتوقد شاعريته ، ويؤسى نفسهُ مصابُهم ، فلعلَّ جرحه يندمل كما يقول (إن المصائب يجمعن المصابينا) وسنقتبس جُزءًا من قصيدته الأندلسية التى ناجى فيها وادى الطَّلح القريب من أشبيلية ، حاكيًا ما ألمَّ به من فواجعَ مؤلمة وكوارث قاصمة بعد رحيل أهله عنه - وقصيدته هذه معارضة لنونية ابن زيدون الأندلسى ولكن تختلف عنها فى الاستشهاد بها ، فهى فى مجال الرثاء والأسى ، أما نُونية ابن زيدون فالاستشهاد بها فى مجال الصَّبابة والجوَى ، قال شوقى :

يا نائحَ الطلحِ أشباهٌ عوادِينَا	نشْجَى لواديك أمْ نأسى لوادِينا
ماذا تقُصُّ علينا غيرَ أنَّ يداً	قصَّتْ جَناحَكَ جالَتْ فى حَواشِينَا
رَمَى بِنَا البَيْنُ أيكًا غيرَ سامِرنا	اخَا الغَرِيبِ وظلاً غيرَ نادِينا
كلٌّ رمتْه النَّوى ريشَ الفِراقُ لنا	سهمًا وسلَّ عليكَ البَيْنَ سِكِّينا
إذا دعا الشوقُ لم نبرَحْ بمنصَدعٍ	من الجَناحين عيْنٌ لا يلبُّينا
فإنْ يكُ الجِنسُ يا بنَ الطَّلحِ فرَّقَنا	إنَّ المصائبَ يجمَعْنَ المُصابينا
لم تألُ ماءَك تَحنانًا ولا ظمأً	ولا ادكارًا ولا شجْوًا أمانِينَا

---

(١) الشوقيات : الجزء الثانى .

تجُــرُّ من فَنَنٍ ســاقًــا إلى فنَنٍ وتســحَبُ الذَّيْلَ تَـرتادُ المُواسِـينَا

أساةُ جِـسمِك شتَّى حين تطلُبُـهمْ فـمَنْ لِرُوحِكَ يا نَطْسَ المُداوِينا

* * *

آهًـا لـنـا نـازِحـِىْ أيكٍ بِـأنْـدَلُسٍ وإنْ حلَلْنَا رفـيـقًـا من رَوَابِينَا

رسَمٌ وقَـفنا على رسَم الوفـاء له يجـيش بالدمع والإجـلال يثنينا

لِفـتـيـةٍ لا تنالُ الأرضُ أدمـعَـهم ولا مـفَـارِقَـهم إلاَّ مـصلِّينا

لو لم يسُـودُوا بدينٍ فـيـه منبَـهةٌ للناس ، كـانَت لهم أخـلاقُـهم دِينا

نَسـقِى ثَراهُم ثناءً كلمـا نُثِـرتْ دمُـوعُنَا نُظِمَتْ منهـا مـراثِينا

كـادت عُـيونُ قَـوافِـينا تحـرِّكُـهُ وكِدْنَ يُوقِظْنَ فى التُّربِ السَّلاطِينا

* * *

يا سـارِىَ البَـرْقِ يرمِى عن جـوانحنا بعـد الهـدوءِ ويحـمِى عن مـآقـينا

أمـا ترَقـرقَ فى دمعِ السَّـمـاء دمًـا هاجَ البُكا فـخـضبْنَا الأرضَ باكـينا

اللَّيلُ يشـهَـدُ لم تَهـتِكْ دياجِـيَـهُ علَى نيـامٍ ولم تهـتِفْ بسـالِينا

والنَّجمُ لم يَرنَا إلاَّ علَى قـدمٍ قـيـامَ ليلِ الهَـوَى للعـهْـدِ رَاعـينا

كـزفـرةٍ فى سـمـاءِ الليل حـائرةٍ ممَّا نردِّد فـيـه حينَ يضـوينا

يا منْ نَغـارُ عليْكُم من ضَـمَـائِرِنَا ومَنْ نَصُـون هَواهُم فى تناجِـينا

نابَ الحنينُ إليكُم فى خَـوَاطِرِنا عن الدَّلالِ علَـيْكم فى أمـانينا

جِـئنَا إلى الصـبـرِ ندعـوهُ كـعادتنا فى النَّائبـاتِ فلم يأخُـذْ بأيدينا

ومـا غُلِبنا علـى دَفـعٍ ولا جَلَـدٍ حـتَّى أتتنا نواكم من صـياصِينَا

نطوِى دُجـاه بجُـرحٍ من فـراقكمـو يكَاد فى غَلَسِ الأسـمـارِ يَطوينا

بِتْنا نُقَـاسِى الدَّواهِى من كـواكـبِـه حـتَّى قَـعَدْنَ بهـا حَسْرَى تُقاسِينا

يبـدُو النَّهـارُ فـيُـخـفِـيـه تجلُّدنا للشَّـامِـتين ويأسُـوه تأسِّـينا

سادساً : الفردوس المفقود للمحجوب[١] :

وقصيدة أمير الشعراء آنفة الذكر ترينا مدى ولع هذا الشاعر العظيم بشعراء الأندلس - فهو كما أسلفنا القول - قد عارضَ أبا الوليد بن زيدون فى نونيته التى مطلعها : أضحَى التنائى بديلاً عن تدانينا ..

ومن الإنصاف بل من الواجب أن أثبت هنا قصيدة الشاعر العربى السودانى : محمد أحمد محجوب - رئيس وزراء السودان الراحل ، وهو يرثى أمجاد العَرب والإسلام فى الأندلس :

نَزَلْتُ شطَّكَ بعْدَ البَيْنِ ولهَانَا ... فذُقْتُ فيكَ من التَّبريحِ الوَانا

وسِرْتُ فيكَ غريبًا ضلَّ سامِرُه ... داراً وشوقًا وأحبابًا وإخوانَا

فلا اللِّسانُ لسانُ العُرْبِ نَعْرِفُه ... ولا الزَّمانُ كَما كُنَّا وما كَانَا

ولا الخَمائلُ تُشجِينَا بلابِلُها ... ولا النَّخيلُ سقاهُ الطَّلُّ يلقَانا

ولا المساجِدُ يسْعَى فى مآذنِها ... مع العشيَّاتُ صوْتُ الله ريَّانَا

* * *

كم فارسٍ فيكَ أوفَى المجْدَ شرعتَهُ ... وأوردَ الخَيْلَ وديانًا وشُطآنَا

وشادَ للعُرْبِ أمجاداً مؤثَّلةً ... دانَتْ لسطوَته الدُّنيَا وما دَانَا

وهلهَلَ الشِّعْرَ زَفْزافًا مَقاطِعُهُ ... وفجَّر الروْضَ أطيافًا والحَانَا

يسعَى إلَى اللهِ فى محرَابِه وَرِعًا ... وللجَمالِ يُمدُّ الرُّوحَ قُربانَا

لم يبْقَ منْكَ سِوَى ذِكْرَى تُؤرِّقُنا ... وغيرَ دارِ هوىً أصغَتْ لنجوانَا

* * *

---

(١) بين مسبحتي ودنى : للشاعر محمد أحمد محجوب .

أكادُ أسمَعُ فيها همْسَ واجفةٍ مِنَ الرقيبِ تمنَّى طيبَ لُقيانَا

اللهُ أكبرُ هذا الحُسنُ أعرِفُهُ ريَّانَ يضحَكُ أعطافًا وأجفانَا

أثارَ فِيَّ شجونًا كُنتُ أكتُمُها عَفًا واذكُر وادِي النِّيلِ هَيْمَانَا

فلِلعُيونِ جمالٌ سِحْرُه قدَرٌ ولِقُدودٍ إباءٌ يفضَحُ البانَا

فَتلكَ دَعْدٌ سَوادُ الشَّعْرِ كَلَّلهَا أُختِي عرفتُكِ بَعْدَ الهَجْرِ أزمانا

أُختِي لَقيتُك لكنْ أينَ سامِرُنَا فِي السَّالِفَاتِ فهذا البُعد أشقانَا

أختِي لَقيتُ ولكِنْ ليس تعرفُني فقد تباعدَ بعْدَ القُربِ حيَّانَا

* * *

طُفنا بقرطبةَ الحسناءَ نسألُها عنِ الجُدودِ وعَنْ آثارِ مروَانَا

عن المساجِدِ قد طالَتْ منائِرُها تعانِقُ السُّحْبَ تسبيحًا وعِرفَانا

وعن ملاعِبَ كانَتْ للهَوَى قُدُسًا وعن مسارِحِ حُسْنٍ كُنَّ بُستانا

أبو الوليدِ تغنَّى فِي مرابِعِهَا وأجَّجَ الشَّوْقَ نيرانًا وأشجَانَا

لم يُنسِهُ السِّجْنُ أعطافًا مرنَّحةً ولا حبيبًا بخَمرِ الدَّلِّ نشوانَا

فما تغرَّبَ إلاَّ عن ديارِهمُو والقَلْبُ ظلَّ بذاكَ الحُبِّ ولهَانا

فكَم تذكَّر أيَّامَ الهَوَى شَرِقًا وكم تذكَّر أعطَافًا وأردَانا

قد هاجَ منهُ هوَى ولأدةٍ شجَنًا بوحًا وشوقًا وتغريدًا وتحنانَا

فاسمَعَ الكونَ شِعْرًا بالهَوَى عَطِرًا ولقَّنَ الطَّيرَ شكْواهُ فأشجَانَا

وعاشَ للحُسنِ يرعَى الحَسْنَ فِي ولَهٍ وعاشَ للمجدِ يبنِي المَجْدَ ألوانَا

تِلْكَ السمَاواتُ كنَّاهَا نجمُلُها بالحبِّ حينًا وبالعَلْيَاء أحيانا

فِردوس مـجْـدٍ أضَاعَ الخُلْفُ روعَـتَـه ... مِنْ بعْـدِ مـا كَـانَ للإسـلامِ عُنوانَا

* * *

أبا الـوَلـيـدِ أَعنِّى ضـاعَ تالِدُنَا ... وقـد تناوَحَ أحـجـارًا وجُـدرانَا

هذى فلسطينُ كـادَتْ والـوَغى دُوَلٌ ... تكون أنْدَلُسًـا أخْـرَى وأحـزَانَا

كنَّا سَـراةً تُخـيـفُ الكَوْنَ وَحْـدَتُنَا ... واليَـوْمَ صـرنا لأهلِ الشِّـرك عُـبـدَانَا

نغـدُو علَى الذُّلِّ أحـزابًا مـفـرَّقـةً ... ونحْنُ كنَّا لحِـزْبِ الله فُـرسـانَا

رمـاحنا فى جَبينِ الشَّـمْسِ مـشـرعـةٌ ... والأرضُ كـانَت لخـيـلِ العُـرْبِـمـيْـدانَا

الجُـرْحُ وحَّـدَنا والثـأر جـمَّـعُنا ... للنَّصـرِ فـيـهِ إرادَتٌ ووُجـدَانَا

لهفِى على القُدسِ فى المأساةِ داميـةٌ ... نفـديكِ يا قُـدْسُ أرواحًـا وأبدانَا

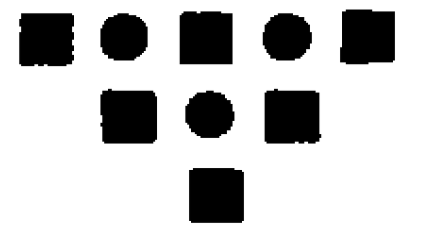
تم بحمد الله تعالى وتوفيقه

المراجع

المـــرجـــع	المـــؤلف
السيرة النبوية المعطرة	عبد الملك بن هشام .
مرآة الإسلام	الدكتور / طه حسين .
أمتنا العربية	الأستاذ / محمد فريد أبو حديد .
فتوح البلدان	البلاذرى .
مروج الذهب	المسعودى .
الكامل فى التاريخ	ابن جرير الطبرى .
مختصر تاريخ العرب	الأستاذ / سيد أمير على .
المعتمد بن عباد	الأستاذ / على أدهم .
عبقرية خالد	الأستاذ / عباس محمود العقاد .
ابن عمار	الأستاذ / ثروت أباظة .
خزانة الأدب	عبد القادر البغدادى / تحقيق الأستاذ/ عبد السلام هارون .
مقدمة ابن خلدون	عبد الرحمن بن خلدون .
الحُلَل السندسية	أمير البيان شكيب أرسلان .
التاريخ الأندلسى	الدكتور / عبد الرحمن على الحجى .
قصة الأدب فى الأندلس	الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجى .
مواكب الحرية فى مصر الإسلامية	الدكتور / عبد المنعم خفاجى .
مختارات من الشعر الأندلسى	المستشرف البوهيمى أ . ر نيكل/تقديم الأستاذ/عمر فروخ .

* * *

المؤلف	المرجع
المؤرخ الألمانى/يوسف أشباخ/ترجمة الأستاذ/محمد عبد الله عنان .	تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموحدين
ابن الآبار : تعليق الدكتور / حسين مؤنس.	الحلة السيراء
الأستاذ / عبد الله عفيفى .	المرأة العربية فى الجاهلية والإسلام
ابن قيِّم الجوزية .	زاد المعاد
الدكتور / شوقى ضيف .	البطولة فى الشعر العربى
الأستاذ / محمد رضا .	عثمان بن عفان
الدكتور / محمد السيد طنطاوى .	السرايا الحربية فى العهد النبوى
الشيخ / عبد الوهاب النجار .	الخلفاء الراشدون
الدكتور / أحمد حسن الشيباصى .	خامس الخلفاء الراشدين
الأستاذ / محمد أحمد محجوب .	ديوان : مسبحتى ودَنِّى
أمير الشعراء / أحمد شوقى .	الشوقيات (الجزء الثانى)
هدية مجلة منبر الإسلام عام ١٩٦٦ .	كتاب الصوم والهجرة
الأعداد : ٧ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٧٧ ، ٩٣ .	مجلة العربى
العدد ١٢٥ (يولية ١٩٦٧) .	مجلة الشبان المسلمين
العدد رقم (٢) من السنة الأولى .	مجلة الضياء الإماراتية



المحتويات

الموضـــــــــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث

معارك العرب فى الأندلس فى عصرى المرابطين والموحدين

الموضوع — الصفحة

الفصل الرابع

الجهاد الأخير للمسلمين فى الأندلس

العرب فى الأندلس

• هـذا الكتـاب يضـم بين دفتيه قصة الصراع بين العرب والأسبان فى شبه جزيرة أيبريا (أسبانيا حالياً) فى مدى ثمـانية قـرون من عام ٩٢هـ / ٧١١م.

• وهو تاريخ دخول المسلمين الأندلس حتى عام ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م.

• وهـو العـام الذى فقد فيه العرب آخر معقل من معـاقلهم وهـو المتمثل فى مملكة غرناطة...

وقـارئ هذا الكتـاب سيجد العظـة والحكمة البـالغة فيه وسيردد قول الله تعالى :

«إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» فالصراع بين الحق والباطل سيظل قائماً الى قيام الساعة.

الناشر

أحمد فكرى

